

بحث مقدم إلى قسم اللغة العربية ضمن متطلبات الحصول على درجة
الماجستير في تخصص /الأدب القديم /كلية /التربية للبنات بالرياض

شعر أبي الفرغ الببغاء

ت ٣٩٨ هـ

(دراسة في الشكل والمضمون)



Abi Al Farag Al Bbgah Poetry
(conformation and content Study)

مقدمة من

المعيدة : حمده بنت مشارك بن عيد الرويلي

إشراف

الدكتورة: جواهر بنت عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية في كلية التربية - جامعة الرياض للبنات

١٤٢٩ - ١٤٣٠ هـ

شعر أبي الفرج البغاء
ت ٣٩٨ هـ
(دراسة في الشكل والمضمون)

مقدمة من

المعيدة : حمده بنت مبارك بن عيد الرويلي

إشراف

الدكتورة: جواهر بنت عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ

١٤٢٩ - ١٤٣٠ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } سورة الزمر: ٩

اعتماد لجنة المناقشة والحكم

نوقشت رسالة الطالبة :حمده بنت مبارك بن عيد الرويلي بتاريخ / / ١٤٢ هـ وتكونت لجنة المناقشة والحكم من الأساتذة

الاسم	المرتبة العلمية/ التخصص	الجهة	صفة العضوية
١.
٢.
٣.
٤.
٥.

قرار اللجنة :

منح الطالبة درجة الماجستير في بتقدير

تاريخ موافقة مجلس الكلية على المنح : / / ١٤٢ هـ

عميدة الكلية :

ختم الكلية :

وكلية الدراسات العليا :

شكر وتقدير

أقدم جزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذتي الفاضلة الدكتورة/ جواهر بنت عبد العزيز آل الشيخ الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية بكلية التربية الأدبية في الرياض المشرفة على هذه الرسالة التي يعجز لساني عن إيفائها حقها من الشكر والتقدير على توجيهاتها القيمة في رعاية هذا البحث بكل أمانة العالم فجزاه الله عنا خير الجزاء كما أشكر سعادة الدكتورة/لطيفة بنت عبد العزيز المخضوب ،الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بجامعة الرياض ، وسعادة الدكتور/ مسعد بن عيد العطوي ، الأستاذ الدكتور بجامعة تبوك للبنات على ما تحملاه من تعب ومشقة في قراءة هذه الرسالة فجزاهما الله عنا خير الجزاء ، ونفعنا الله بفيض علمهم ، وأبقاهم ذخراً للعلم والعلماء . كما أخص بالشكر الإدارة والوكالة وعمادة الدراسات العليا وعميدة الكلية ووكالة الدراسات العليا ووكالة الكلية ورئيسة القسم وكل من ساهم بالتعاون معي في أخراج هذا البحث . كما لا يفوتني أن أخص بالشكر القلب الكبير الذي غمرني بالحب والرعاية وزرع في نفسي حب العلم والمعرفة والاستمرار إلى الأفضل أمي الحبيبة، وأشكر جميع أختوتي خاصة أخي فرحان لتشجيعهم ومساندتهم لي من أجل نيل العلم النافع ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرس

رقم الصفحة	بيان الموضوعات
٨ - ١	المقدمة تمهيد:
٢٣-٩	(ويتناول وصفاً لمظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ثم وصف لبلاط سيف الدولة)
	الفصل الأول : الدوافع الشعرية وأثرها في شعره
٤٣ - ٢٤	المبحث الأول : الدافع الذاتي
٦٦ - ٤٤	المبحث الثاني: الدافع الاجتماعي
٨١ - ٦٧	المبحث الثالث : الدافع الديني
	الفصل الثاني : الدراسة الموضوعية في شعره
١٢٢- ٨٢	المبحث الأول : وصف الطبيعة ومظاهرها .
١٧٢-١٣٢	المبحث الثاني : الشعر السياسي والاجتماعي .
١٩١-١٧٣	المبحث الثالث : شعر الغزل .
	الفصل الثالث : الدراسة الفنية في شعره .
٢٢٥-١٩٢	المبحث الأول: لغة الشاعر وأسلوبه .
٢٥٧-٢٢٦	المبحث الثاني: التصوير الفني .
٢٩٠-٢٥٨	المبحث الثالث: الموسيقى .
٢٩٩- ٢٩١	الخاتمة .
٣١٣-٣٠٠	المصادر والمراجع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على أفصح العرب سيدنا محمد الذي اختصه الله بجوامع الكلم وروائع الحكم وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد: لما تصفحت بعض كتب التراجم لفت نظري الشاعر أبو الفرج البغاء، وقد عرفت أنه من شعراء سيف الدولة الحمداني ، الذين قصدوا بلاطه ونالوا حبه وتقديره ، وكان من ألمع الشخصيات وأقربها إلى قلب سيف الدولة ، الذي ضم بلاطه أعظم شعراء العرب ، فوجدته أديباً محبباً للشعر والشعراء ، إلا أنه كان مهضوم الحق من جانب الباحثين والدارسين، ويظهر أن المتنبّي . شاعر العصر . قد غطى عليه بشعره ، حيث عكف القدماء على دراسة شعره ونقده ، وأهملوا الشعراء الآخرين .

ودراسة شاعر مثل أبي الفرج البغاء وإن لم تكن كشافاً جديداً في عالم الدراسات والبحوث الأدبية إلا أنني لا أعدم أن أجد بعضاً من الجوانب والزوايا التي لم تلق عليها الأضواء بما توجهه مكانة شاعر مثله وذلك من خلال دراسة شعره في الشكل والمضمون ، والتصدي لهذا التراث بالتحليل لجميع مضامينه الشعرية ورصد أبرز مظاهر الجمال الفني فيه ، لاسيما أن تلك الدراسات السابقة والبحوث الأدبية التي تدور حول الشعر العربي وشعرائه في عصورهم المختلفة من حيث الكم والكيف لم تستوف كل ما يستحقه هذا الشاعر من دراسة موضوعية فنية لشعره بالرغم من تنوعها ، فقد أغفلوا أبي الفرج (البغاء) ولم يضعوه في الموضوع اللائق به بين شعراء عصره .

وأبو الفرج هو عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي الحنبطي المعروف (بالبيغاء) من أهل نصيبين، ولد حوالي سنة ٣١٤ هـ تقريباً وتوفي - رحمه الله - ببغداد سنة ٣٩٨ هـ .

وهو من شعراء سيف الدولة الحمداني ، وفد عليه وهو في ريعان شبابه ، وأقام في بلاطه أكثر من عشرين عاماً ، ومكث في كنفه إلى أن توفي الأمير الحمداني سنة ٣٥٦ هـ .

والبيغاء نفسه في حياته وفي شعره يؤكد حبه لسيف الدولة الحمداني الذي كان درعاً واقية للثغور الإسلامية ، وحصناً منيعاً ضد الغزاة البيزنطيين ، فقد كان يشكل سيف الدولة القسم الأعظم من أشعار البيغاء ، فز ادبي ذلك رغبة في دراسة هذا الشاعر الذي كانت تربطه علاقة قوية بسيف الدولة صاحب الأيادي البيضاء في الدفاع عن الإسلام والمسلمين .

والمتمعن في شعره يجده قد تناول معظم الأغراض الشعرية فقد نظم في الوصف والحرب والمديح ، والطرده ، والغزل ، والإخوانيات ، والرثاء ، والهجاء ، وغيرها ، والوصف يكاد يكون أهم الأغراض جميعاً، فهو متشعب متفرع يتغنى الشاعر فيه بالطبيعة وجمالها وما يراه فيها من مناظر جميلة ، حيث وصف الأزهار والرياح والجداول والبرك ، وكل ما يتصل بالحياة العامة ، ومظاهر الترف وأدوات الحضارة الجديدة المستعملة في ذلك الوقت . فتنوع المضامين الأدبية والشعرية التي تميز بها الشاعر على بعض شعراء عصره كانت أهم دافع من دوافع هذا البحث ، بالإضافة إلى غزارة النتاج الإبداعي للشاعر الذي تظهر فيه صور فنية وأدبية رائعة الجمال تشد إليها القارئ والمستمع ، لذا حاولت أن تكون هذه الدراسة شاملة الشكل والمضمون لشعره .

كما تهدف هذه الدراسة للتعرف إلى واحد من شعراء العربية في عهدها الزاهر ، والذي طرق معظم أنواع الشعر العربي فأجاد في كل فن من فنونها مما مكن له أن يضع أقداماً راسخة في الأدب العربي .

والهيكل العام للدراسة يتكون من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

فالتمهيد : يتناول وصفاً لمظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي

حدثت في ذلك العصر ،لمعرفة المجتمع الذي كان يحيط به ، ومدى تأثير هذا المجتمع عليه ، سلباً وإيجاباً، والأحداث التي كانت تدور حوله ، وأهم قضايا مجتمعه ومدى تفاعله مع ذلك كله، فتكلمت بإيجاز عن اضطراب الحياة السياسية في ذلك العصر ، حيث كان الخلفاء في نظر كثير من أفراد الشعب لا يمثلون الحكام الجديرين بتولي أمور الدولة ، وتحدثت عن الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية التي سُلبت من سلطتها ونفوذها عندما سيطر الجنود المرتزقة من الأتراك على الدولة ، وعمما دار في البلاد الإسلامية من فتن وحروب ومنازعات بين القواد،وأوضحت بعض مظاهر التفاوت الطبقي في الحياة الاجتماعية ، حيث عاشت الطبقة الأولى حياة مغرقة في البذخ والترف والتبذير ، بحيث تفننوا بكل أسباب اللهو والخلاعة، وما يقابل ذلك من فقر وبؤس وتعرض للقهر والظلم والمجاعات التي كان لها آثار عميقة على حياة الناس عامة والشعراء خاصة .وتحدثت عن النضج الفكري الذي وصلت إليه الحياة العقلية بالرغم من الانحلال والضعف والتفكك الذي ساد المجتمع في ذلك العصر، فوجدت أن القرن الرابع كان من أرقى العصور ، أديباً وعلمياً وعقلياً حيث شمل كل أنواع

المعارف من فلسفة ومنطق وطب وأدب وموسيقى وغيرها، وكان من أسباب الرواج الثقافي تشجيع العلماء ورجال الأدب والعلم للحركة العلمية والأدبية والفكرية، ولاسيما سيف الدولة الحمداني بحلب الذي فتح أبوابه للأدباء والشعراء ، وأغدق عليهم الأموال ، وحثهم على التصنيف والتأليف، بالإضافة إلى تأسيس المكتبات العامة والخاصة التي تحتوي على مئات الآلاف من المصنفات . فكان من الضروري أن أتحدث عن الحياة الثقافية في بلاطه الذي كان يصفه الثعالبي بأنه مقصد الوفود ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء (١)

وأما الفصل الأول : يتناول الدوافع الشعرية ، وأثرها في شعر البغاء ويتضمن ثلاثة مباحث.

المبحث الأول : الدوافع الذاتية التي أوضحت شخصيته الفنية وملاحظه النفسية وسيرته الأدبية من خلال التعرف على مولده ونشأته الأولى وثقافته ، ولكنني جابهت صعوبة في ذلك ، حيث لم تسعني المصادر بالمعلومات الكافية ، وأوضحت أيضاً سبب تسميته بالبغاء وآراء الأدباء في ذلك ، وبينت العلاقة التي كانت تربطه بالشاعر الصابي وما دار بينهم من المساجلات الشعرية ، وفسرت تلك الأشعار لكي أفهم نفسية الشاعر وشخصيته المتمثلة في أخلاقه وسلوكه وعلاقاته مع الأصدقاء.

المبحث الثاني : الدوافع الاجتماعية وهي تتناول مصادر ثقافته وأثر البيئة و المجتمع الذي عاش فيه على تفكيره وأساليب تعبيره ، كما أوضحت الدراسة سبب تركه العراق وانتقاله

(١) بنتيمة الدهر ، ٣٧/١.

إلى الشام وخاصة حلب التي كان لها أثر عظيم في تخليد اسمه وأدبه بين الأدباء، والتي استفاد فيها من لقاءه مع كبار الشعراء في عصره ، من شعراء سيف الدولة ، المتنبي والنامي وأبو فراس الحمداني وأثر ذلك على شعره، كما تحدثت عن المظاهر الاجتماعية التي تعرض لها البغاء في حياته وشعره وكان أهمها مشكلة الفقر .

المبحث الثالث : الدوافع الدينية وهي تدرس أثر النزعة الدينية على ألفاظه ، ومعانيه ، وموضوعاته الشعرية ، فوجدته شاعراً مسلماً غير متعصب لمذهب معين ، ويبدو ذلك واضحاً في موضوعاته الشعرية المتمثلة في دعوته الصادقة إلى التمسك بالصبر وعدم الجزع من نوائب الدهر والاستسلام لها ، وأخذ العظة والعبرة من تلك المحن والنكبات دون السخط بقضاء الله وقدره .

أما الفصل الثاني : يتناول المضامين الشعرية عند البغاء ويتضمن ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : وصف الطبيعة ومظاهرها ، وكشأن سائر شعراء عصره في وصف الطبيعة فقد فتن بمظاهر الجمال فيها ووصف كل ما تقع عليه عينه ، والوصف في شعره له المقام الأول فجل فنون شعره يخلوها الوصف فله مجموعة هائلة من القصائد في وصف الطبيعة وكل ما يحيط بها وحفل شعره بصور شتى لها .

المبحث الثاني : الشعر السياسي والاجتماعي ومن موضوعات الشعر السياسي الذي أبدع فيه أبو الفرج وصف الحرب والجيش وما يتصل بها من حشد الكتائب وتسيير الجحافل، ومن الموضوعات أيضاً مدح رجالات الدولة وعلى رأسهم سيف الدولة الذي حاول الشاعر

إظهار مفاخره ودوره في محاربة أعداء الله من الروم ، ولقد تناول أبو الفرج الشعر السياسي الخاص بشؤون الإمارة والأمراء والحرب والجيش بالإضافة إلى الشعر الاجتماعي البعيد عن السياسة ومجالس الملوك والأمراء ونقصد به موضوعات الشعر التقليدي من المدح والثناء والحكمة والشكوى والعتاب والاحوانيات والهجاء .

المبحث الثالث : شعر الغزل الذي جاء في اغلبه قطع صغار تعبر عن خلجات نفس

متوهجة الأحاسيس والمشاعر ، وغزله يعتبر من الغزل العفيف الطاهر الذي يتسم بركة الألفاظ وسهولة التعبير وتدفق العاطفة .

أما الفصل الثالث : فيتناول الدراسة الفنية في شعر البيغاء ويتضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : لغة الشاعر وأسلوبه ويتناول هذا المبحث لغة الشاعر وإلى أي مدى

استطاع استخدام الألفاظ والتراكيب اللغوية بنظم شعره والتعرف على مقدرته في هذا الجانب ، من حيث تركيب اللغة ودلالة المعنى .

المبحث الثاني : التصوير الفني ويهدف إلى الكشف عن الصور الفنية الأدبية الرائعة في

قصائده التي تعبر عما في دواخل الشاعر ، بالإضافة إلى إبراز المضامين الشعرية لديه من خلال

الصورة الشعرية فقد تميز شعره بقدرة فنية كبيرة ، وقد تمثل ذلك في مجال التعبير وحسن النظم

وعمق المعنى وروعة الصور الأدبية المشرقة .

المبحث الثالث : الموسيقى الشعرية حيث أن الإيقاع والموسيقى في شعر الشاعر لها أثر

كبير في نفس المتلقي فهي التي تلفت الانتباه إليه وتشد الناس إلى السماع والمتابعة ، فالوزن والقافية على الخصوص لهم دور بارز في ذلك .

أما بالنسبة للدراسات التي تناولت الشاعر تقريباً فهي:

أولاً : دراسة بعنوان البيغاء عبد الواحد بن نصر المخزومي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (حياته - ديوانه - رسائله - قصصه) جمع وتحقيق الأستاذ هلال ناجي رئيس اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين سابقاً والحائز على جائزة الدولة العربية في تحقيق المعاجم والذي قامت بنشره عالم الكتب بيروت ، لبنان - الطبعة الأولى (١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م) ، وبعد الإطلاع على هذه الدراسة وجدتها تتكون من (ست عشرة صفحة فقط)، تناول فيها الباحث جوانب بسيطة من حياة البيغاء ونماذج من آثاره الشعرية والنثرية وليس فيه جديد ، ومرجعه في ذلك كتب التراجم .

ثانياً : دراسة بعنوان ديوان عبد الواحد بن نصر المخزومي البيغاء دراسة وتحقيق الدكتور سعود محمود عبد الجبار أستاذ مشارك بجامعة العلوم التطبيقية ، الناشر دار الحامد للنشر والتوزيع عمان الأردن . الطبعة الأولى (٢٠٠٤ م) ، وتتكون هذه الدراسة من (اثنين وعشرين صفحة فقط) تحدث فيها الباحث عن نسبه وشعره ، وبعض نواحي حياته ولقد استندت على هذا الديوان في دراسة شعر البيغاء دراسة موضوعية وفنية .

وهناك تشابه بين الدراستين الموجزتين فيما يختص بحياة الشاعر ونسبه ومولده ومواضع

شعره وكان مرجعهم في ذلك كتب التراجم فحسب .

ثالثاً: هناك رسالتين قديمتين أشار إليهما صاحب معجم الشعراء العباسيين في كتابه وهما :

١- رسالة مسجلة بجامعة القديس يوسف وهي (تحقيق لشعره) وتمت مناقشتها عام (١٩٨٠م)

وقد أطلعت على الفهرس التفصيلي لمحتوياتها ووجدتها مغايرة تماماً لموضوع بحثي.

٢- رسالة مسجلة بجامعة بغداد وتمت مناقشتها عام ١٩٨٨م وهناك إفادة من مركزين علميين

بعدم إمكانية توفيرها واستحالة هذا الأمر نظراً للظروف الأليمة التي يمر بها العراق .

رابعاً : تناول الدكتور مصطفى الشكعة الحديث عن الشاعر في كتابه (فنون الشعر في مجتمع

الحمدانيين) كغيره من شعراء الدولة الحمدانية ، وقام بدراسة بعض الجوانب من شعره وعلق

على بعض قصائده ، وقد استشهدت ببعض تعليقاته النقدية في دراستي .

وفي ختام البحث : تناولت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة في كل فصل من فصولها

في دراسة شعر البيغاء دراسة موضوعية وفنية والتي من خلالها استطعت الوقوف على ملامح

شخصيته التي لم يتم العثور عليها في بداية البحث إلا في القليل المتناثر من مختلف المصادر ،

ومن هنا عكفت على دراسة شعر البيغاء لأحقق الغاية والهدف الذي قصده من هذا البحث،

معتمده في ذلك كله على ثقتي بالله وحده .

التمهيد

قبل الحديث عن أبي الفرج البغواء وشعره، لابد من معرفة فكرة عامة موجزة عن العصر الذي عاش في أحضانه، والأحداث التي كانت دائرة فيه، ثم قمت بوصف بلاط سيف الدولة الحمداني الذي برز فيه شاعرنا.

فالحياة العامة في ذلك العصر وتحديدًا في (القرن الرابع الهجري)، بكل جوانبها، السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، كان لها أثرها الكبير في حياته، كما أنها تُعيننا كثيراً على فهم شعره، فكان من المتعين علينا دراسة هذه الجوانب ، لنذكر مدى أثرها عليه.

*

*

*

أولاً- الحياة السياسية:

كان العصر العباسي في القرن الرابع الهجري زاخراً بالأحداث السياسية العنيفة التي أورثت القلق والاضطراب، وطبعت الخلافة بطابع التفتت والانقسام، حتى وصل فساد الحياة السياسية في ذلك القرن إلى مرحلة خطيرة، مما جعل كل زعيم يتغلب على ناحيته، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها^(١) فاضطرب فيها حبل الأمن اضطراباً بيناً، وتراجع كذلك نفوذ العرب وتقهقر بسبب ضعف الخلفاء وعجزهم عن إدارة شؤون الدولة، فسيطر الجنود المرتزقة من الأتراك على الحكم، وأصبحوا المحرك الأساسي له.

(١) تجارب الأمم، مسكويه: ٥٥٣/٥-٥٤٥، وينظر تاريخ أبو الفداء حوادث سنة ٣٣٤هـ.

ويبدأ عصر نفوذ الأتراك بتولي المقتدر جعفر بن المعتضد الخلافة عام ٢٩٥هـ، وقد اختاره الوزير العباس بن الحسن لذلك مع صغر سنه، إذ لم يكن قد تجاوز الثالثة عشر من عمره^(١) فانتشر في عهده الفساد وعم الاضطراب والاستغلال، وكثرت المجاعات، إذ كان ضعيف الشخصية، كل همه إشباع رغباته في الإنفاق على الشراب والملذات الأخرى، والابتعاد عن شؤون الدولة^(٢) كل ذلك ساعد على انتشار الفتن والثورات الداخلية فيها، حتى أصبحت مطمعا للطامعين العابثين، فهناك القرامطة الذين عاثوا في الأرض فساداً حتى لم ينج منهم حجاج بيت الله الحرام، فيقول ابن الأثير عن سنة سبع عشر وثلاثمائة: "حج بالناس في هذه السنة منصور الديلمي، وسار بهم من بغداد إلى مكة، فسلموا في الطريق، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود ونفذه إلى هجر"^(٣).

ففي عهده ضعفت الخلافة وسقطت هيبتها واشتد الانتكاس ، حتى لم يعد للخلافة أدنى

احترام، واستمرت الأوضاع على هذه الحال حتى قتل عام ٣٢٠هـ

على يد مؤنس الخادم، وبعد مقتله ، تولى القاهر بن المعتضد الخلافة

(١) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير: ١٢/٨ .

(٢) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، المحسن التوحي: ١١/٨ .

(٣) الكامل في التاريخ : ٢٠٨/٨ .

عام ٣٢٠ هـ^(١) وكان سيئ السياسة والقيادة أيضاً، وتولى الجيش في عهده كذلك قيادة أمور الدولة، وبالرغم من أن القاهر استطاع القضاء على مؤنس الخادم إلا أن فئات الجيش أثرت ضده وهوجم حتى خلع عام ٣٢٢ هـ في جمادى الأولى^(٢)

وأصبح الراضي بن المقتدر خلفاً له ٣٢٢-٣٢٩ هـ^(٣) وكان سيئ السيرة والأخلاق، كثرت في عهده الفتن، وعمت الاضطرابات والنزاعات.

وفي هذا الوقت أخذت الدولة العباسية تتدهور شيئاً فشيئاً وصار أمر العباسيين يضعف ويضمحل حتى عهد الخليفة المستكفي عام ٣٣٣-٣٣٤ هـ^(٤) الذي طلب العون من بني بويه، عندما شاع الخلاف بين القواد، وانتشرت الفوضى، وبدخول معز الدولة ابن بويه بغداد سنة ٣٣٤ هـ ينتهي عصر المملوك التركي ليبدأ عصر جديد هو عصر المملوك البويهى، والخلفاء في هذا العصر لم يكونوا أفضل وضعاً من أسلافهم الأتراك .

ويصف البيروني حالهم فيقول : "إن الدولة والملك، قد انتقل في آخر أيام المستكفي، من آل العباس إلى آل بويه، والذي بقي في أيدي العباسية، إنما هو أمر ديني اعتقادي، لا ملك دنيوي . . . فالقائم من

ولد العباس الآن، هو رئيس الإسلام لا ملك"^(٥).

(١) الكامل في التاريخ : ٢٤٥/٨ .

(٢) المصدر السابق : ٣٥٥/٤ .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي : ٣٢٢/٤ .

(٤) المصدر السابق : ٣٥٥/٤ .

(٥) الآثار الباقية عن القرون الخالية ، البيروني : ١٣٢ .

وبالجملة فقد ساءت الأوضاع السياسية والإدارية، وأصبح الخليفة لا يحمل إلا اسم الخلافة الذي قد يتهاوى بسرعة حين يراد له ذلك.

ومع ذلك فقد كانت الحياة السياسية في إمارة بني حمدان تنعم بالهدوء والاستقرار في معظم الأوقات خاصة أن سيف الدولة تمكن من بسط نفوذه فيها.

كان سيف الدولة علي بن الحسن يطمع في أن يكون له حكم مستقل فطلب من أخيه ناصر الدولة أن يعطيه ولاية فقال له ناصر الدولة: الشام أمامك فاتجه إلى حلب بجيشه ودخلها سنة ٣٣٣هـ^(١) واحتلها واستولى عليها، "وتملك سيف الدولة حلب وأعمالها"^(٢) ثم سار إلى حمص واستولى عليها كذلك، وفي أثناء ذلك تقدم نحو دمشق وحاصرها "فحاصرها ولكنه رحل عنها ورجع إلى حلب"^(٣).

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: "كان لسيف الدولة قواد مدربون تتلمذوا عليه وخاضوا المعارك معه ورسموا خطط الحرب وكابدها، وكان أكثر قواد سيف الدولة ممن تربطهم به أواصر الدم والقربى، فكان في مقدمة هؤلاء الفارس الشاعر الحارث أبو فراس الذي خاض كثيراً من المعارك في صحبة سيف الدولة ومعارك أخرى بمفرده وانتصر على الروم حيناً، وعلى القبائل

الثائرة حيناً آخر"^(٤).

(١) زبدة الحلب، ابن العديم: ١١١/١١٢.

(٢) دول الإسلام، الذهبي: ١٦٢/١.

(٣) تنمة المختصر في أخبار البشر، ابن الوردي: ٢٧٨/١، وينظر المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء: ٩٩٠٩٨/٢.

(٤) سيف الدولة الحمداني، د. مصطفى الشكعة: ١١٧.

وهكذا نعمت البلاد وخاصة حلب في ظله بالأمن والاستقرار، غير أن تلك الفتن الداخلية التي واجهها سيف الدولة كانت تعكر صفوها ، ومنها ثورة بني كلاب سنة ٣٤٣هـ وهزيمته لهم ولبني عقيل وبني قشير وبني العجلان (١)

فهذه صورة للحياة السياسية في القرن الرابع الهجري بشكل عام ، والحياة السياسية في إمارة بني حمدان بشكل خاص التي أحاطت بشاعرنا وجعلته يكون أحد شعراء بلاط سيف الدولة الذي نظر إليه نظرة بطولة وإعجاب.

*

*

*

ثانياً- الحياة الاقتصادية:

عانى الشعب كثيرا من حدة الفقر في القرن الرابع الهجري بسبب تعسف الحكام في ابتزاز الأموال، والقسوة في الاستغلال وفرض الضرائب الثقيلة على كل المنتجات، وعلى كل ما يباع، ولم يقتصر الأمر على أدوات الترف، بل يتعداها إلى الضروريات، ففرضت ضريبة على الملح (٢).

لقد وصل فساد النظام المالي، وخلل التوازن الاقتصادي في هذا القرن، إلى مرحلة لم يسبق لها نظير من قبل، وكان لذلك أثره السيئ في حياة الشعب، فمعاناة الناس، نتيجة لذلك، كانت بالغة القسوة، فأدى الخلل في النظام الاقتصادي السائد في المجتمع العربي

(١) خطط الشام ، محمد كرد علي : ٢٢٠/١ .

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ابن الجوزي : ٧٨/٨ .

الإسلامي، في هذا القرن إلى تفاوت طبقي عميق كان من آثاره، أن عاشت الأغلبية من أبناء الشعب، حياة بؤس وإملاق، ظللتها المحن والنكبات، وغمرها الجوع والمرض والموت بسبب ارتفاع الأسعار، وكثرة الضرائب.

يقول ابن الجوزي في وصف حوادث سنة ثلاث وثلاثمائة: " زادت الأسعار في هذه السنة زيادة مفرطة ولحق الناس مجاعة عظيمة، وبلغ الكر من الحنطة في رمضان ثلاثة آلاف درهم، وبلغ في ذي القعدة أربعة آلاف وثمانمائة درهم، وضج الناس وكسروا منابر الجوامع، ومنعوا الصلاة في عدة جمع، ومات خلق من الضعفاء جوعاً على الطريق" ^(١) ويقول ابن مسكويه عن سنة ٣٣٤ هـ: "وفي هذه السنة أفرط الغلاء، حتى عدم الناس الخبز البتة، وأكل الناس الموتى والحشيش والميتة والجيف" ^(٢).

أما الطبقة الخاصة وهي الطبقة المستغلة من الملوك والقادة والوزراء وذوي النفوذ، عاشت حياة مغرقة في الترف والبذخ والتبذير والتفنن في أساليب المعيشة في المأكل والمشرب والمسكن في الوقت الذي كان أغلبية الشعب يتضرع من الجوع .

أما عن الحياة الاقتصادية في دولة الحمدانيين فإننا نجد أغلب نشاطها الاقتصادي ينحصر بالزراعة والصناعة والتجارة، وبلاد الشام مشهورة بزراعة أنواع عديدة من الفواكه والحبوب فهي تنتج الكثير من المحاصيل الزراعية ولعل ذلك يرجع إلى خصوبة تربتها وكثرة مياهها وتدفق أنهارها، ثم كانت هذه البلاد تحتوي العديد من المعادن والخامات التي ساعدت على ازدهار

^(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ١٢١/٧.

^(٢) تجارب الأمم، مسكويه: ٩٥ / ٢، ينظر تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، الخصري: ٥٣٠.

الصناعة ، كذلك تنتشر فيها السهول الخصبة التي تنتج خير المحصولات، وتيسر لها الحصول على الأسماك مما يساعد على ازدهار التجارة لاسيما التجارة البحرية خاصة أن موقعها بين القارات الثلاث يساعد كثيراً في إنعاش تجارتها حيث يجعلها معبراً بين الشرق والغرب^(١).

ويذكر صاحب صبح الأعشى أنواعاً عديدة من الحبوب والفواكه والحمضيات ومنها على سبيل المثال البر والشعير والعب والتين والليمون^(٢).

ومن هذا نلاحظ أن الإمارة الحمدانية كانت تنعم بالاستقرار الاقتصادي الذي يرجع إلى ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة في بلاد الشام والجزيرة بالإضافة إلى الأموال المدخرة التي تأتي من جراء الضرائب الباهضة الكثيرة التي كان يفرضها سيف الدولة على الناس حتى أن قوماً تركوا ديارهم وفروا إلى بلاد الروم هرباً من تلك الضرائب الفادحة التي كان يفرضها عليهم^(٣) لينفق منها على حروبه ضد أعداء الإسلام أولاً، وعلى بذخه ثانياً، المتمثل في حياة القصور، والترف التي يعيشها ، وفي إغداقه الخلع والعطايا على من حوله من

الشعراء والعلماء^(١)

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ،مصطفى الشكعة : ١٠٧ .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الأنثى ، القلقشندي : ٨٧٨٦/٤ .

(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : ١١١ .

(١) شعر أبي فراس الحمداني ، ماجدولين بيسسو : ٢٥ .

إذن كانت مملكة سيف الدولة تنعم بالرخاء والخير لولا بعض الظروف القاسية التي كانت تحيط بها، فبالرغم من شجاعته وبسالته في حرب أعداء العرب إلا أن ألواناً شتى من الظلم والقهر وقعت على رعيته بسببه شخصياً، عندما كان يعطي القرامطة بعض الموارد الخام مثل الحديد ليدفع بأسهم على حساب رعيته وأهل حلب، مما أساء له ولمملكته، ولكنه كان مضطراً لذلك حتى يتقي شر القرامطة، لعدم قدرته على مواجهتهم هم والبيزنطيين في نفس الوقت^(٢). وهكذا يتضح لنا، أن النظام الاقتصادي، في ذلك القرن قد وصل إلى مرحلة خطيرة من الانهيار والتدهور الذي أثر على غالبية الناس في ذلك القرن. كما أثر على شاعرنا ودفعه إلى الاغتراب عن وطنه، والتنقل من بلد إلى بلد، أملاً في الخلاص من معاناته، وقد صور ذلك بما خلفه لنا من نتاج شعري.

*

*

*

ثالثاً. الحياة الاجتماعية:

كان للاضطرابات السياسية والاقتصادية في القرن الرابع الهجري، أبعاد الأثر في الحياة الاجتماعية، وفي علاقة الأفراد بعضهم البعض الآخر، فهاهو أبو حيان التوحيدي وهو ابن القرن الرابع الهجري يقدم لنا في الإمتاع والمؤانسة، صورة عن مجتمعه وعصره، فيقول: "وقد بلينا بهذا الدهر، الخالي من الديانين، الذين يصلحون أنفسهم، ويصلحون غيرهم، بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام ... فذهب هذا كله، وتاه أهله، وأصبح الدين وقد أخلق لبوسه،

^(٢) سيف الدولة الحمداني، د. مصطفى الشكعة: ١٧٦.

وأوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه، وصار المنكر معروفاً، والمعروف منكراً وعاد كل شيء إلى كدره وخاثره وفساده وضائره، وحصل الأمر على أن يقال: فلان خفيف الروح وفلان حسن الوجه، وفلان حلو الشمائل، ظاهر الكيس، قوي الدست في الشطرنج، حسن اللعب في النرد، جيد في الاستخراج، مدبر للأموال ١٠٠٠ إلى غير ذلك مما يأنف العالم من تكثيره، والكاتب من تسطيره. وهذه كلها كنايات عن الظلم والتجديف، والخساسة والجهل، وقلة الدين، وحب الفساد، وليس فيها شيء، مما قدمنا وصفه، عن القوم، الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله، بالرأفة والرقّة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف"^(١).

ومما سبق يتضح لنا أن القرن الرابع للهجرة، كان أسوأ عصر وصلت إليه الدولة العربية الإسلامية، من حيث تفسخ الحياة الاجتماعية، وانهيار القيم الإنسانية، وانحلال الأخلاق العامة.

وفي كتاب آخر، يصف أبو حيان انحطاط وتفكك العلاقات الاجتماعية بين الناس في عصره، فيقول: "إن الصداقة، والعشرة، والمؤاخاة، والألفة، وما يلحق بها، من الرعاية والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والكرم قد ارتفع رسمه بين الناس، وعفي أثره عند العام والخاص"^(١).

فانتشر الفقر والبؤس، وعانى الناس من القهر والظلم، وفقدان الأمن، نتيجة لتلك الأوضاع السائدة في هذا المجتمع الفاسد، المنهار سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

^(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي: ١٦/١ - ١٨.

^(١) الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي: ٢.

ومن المظاهر التي تدل على تدهور الحياة الاجتماعية في القرن الرابع . والتي يلعب فيها العامل الاقتصادي دوراً بارزاً . ظاهرة انتشار الدجل والخرافات والأوهام "فقد تعلق الناس بالأسباب الموهمة في الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة، فتنجيم، واعتقاد في الطوالع، التي تسعد وتشقي ٠٠٠ والالتجاء إلى دعوات الأولياء، لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى، هذا الاعتقاد في السحر والطلسمات، والبحث عن الكنوز المخبئة ونحو ذلك"^(٢).

أما الحياة الاجتماعية في الإمارة الحمدانية فيلخص لنا الدكتور درويش الجندي أهم مظاهرها فيقول: مظهر الترف والبذخ والإسراف وما يتبعه من المجون في بيوت الخلفاء والأمراء والوزراء وذوي المناصب العالية في دولته، بالإضافة إلى الشعراء الذين التفوا حوله وغرقوا في مجبوحة العيش، حيث كسبوا المال وغنموا الجاه، ومظهر الفقر المدقع في بيوت أغلبية الشعب ممن يرزخ تحت أعباء السيطرة والظلم^(٣).

ومن ذلك يتضح التفاوت بين طبقات المجتمع فطبقة تنعم بالرخاء والخير، وطبقة تستكن للذل والظلم والطغيان .

*

*

*

رابعا - الحياة الثقافية :

(٢) الأدب في ظل بني بويه، محمود غناوي الزهيري : ١٨٠ ١٦/١ .

(٣) الشعر في ظل سيف الدولة ، د. درويش الجندي : ١٥٩ .

فعلى الرغم مما دب في جسم الدولة من ضياع وانقسام وضعف، وعلى الرغم من اضطراب الأحوال السياسية، وانحيار الأسس الاقتصادية والاجتماعية في القرن الرابع الهجري إلا أن هذا القرن كان من أرقى العصور بالنشاط الأدبي والعقلي والعلمي ويعود هذا الفضل إلى جملة أسباب منها: اختلاط الثقافات، الناتج عن ازدهار حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، فترجمت الكتب من السريانية إلى اللغة العربية ومن اليونانية إلى اللغة العربية أيضاً، وإن كانت قد بدأت حركة الترجمة قبل القرن الرابع الهجري بكثير، وازدهرت في أيام المأمون كثيراً، إلا أنها قد أثمرت في هذا القرن، وشملت كل أنواع المعارف والعلوم من طب وهندسة ومنطق وأدب . . . وغيرها. وقد لمع في هذا القرن أسماء كثيرة من مشهوري الطب والفلسفة اليونانية ليفلسفوا علومهم من دين ونحو وصرف وبلاغة وغير ذلك^(١) مما حلا لهم من علوم في مختلف المجالات كما كان لتوزيع مراكز الحكم في الدولة، أثر عظيم في ظهور الكثير من منارات العلم والأدب، كحلب والموصل والقاهرة وقرطبة وغيرها من العواصم، التي بدأت تنافس بغداد، بعد أن كانت وحدها مركزاً للحركة الفكرية والأدبية، وكان أيضاً للخلفاء والملوك في القرن الرابع دورهم البارز في نمو الحركة العلمية والأدبية والفكرية في مختلف الممالك الإسلامية، فقد كانوا يتباهون بجمع الكتب وتأسيس دور العلم، حيث كانوا يجلبون المصنفات من مختلف الأقطار، وينفقون على ذلك الأموال الطائلة، ويذكر القدماء أن الصاحب بن عباد، بلغ من حبه للعلم

(١) ظهر الإسلام، أحمد أمين، ١١/٢ .

والأدب أن كان يرسل إلى بغداد خمسة آلاف دينار، كل سنة، تفرق على الفقهاء وأهل الأدب^(١) كل هذه العوامل ساعدت على النهضة الثقافية.

وفي هذا العصر ازدهر فن المقامات في الأدب العربي حين كتب بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨-٣٩٨هـ)، مقاماته الرائعة، فأصبحت المقامة بفضلها فناً أدبياً مستقلاً نستطيع من خلالها التعرف على الأحوال السائدة في تلك الفترة.

ولا ريب أنه كان للأسرة الحمدانية، وسيف الدولة أثر عظيم وكبير في نمو الحياة الثقافية والأدبية.

وصف لبلاط سيف الدولة الحمداني:

تُنسب الأسرة الحمدانية إلى أصل عربي هو قبيلة تغلب بن وائل، وهي و بكر أعظم قبائل ربيعة في بلاد العرب^(٢).

ويقول عنهم الثعالبي في اليتيمة: "كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة وألستهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلاذتهم"^(١)

لم تقف عظمة سيف الدولة عند شجاعته في الحرب وانتصاراته الباهرة والوقوف في وجه أعداء الأراضي الإسلامية سداً منيعاً حال دون تقدمهم واحتلال الوطن الإسلامي وحسب،

^(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، الجوزي : ١٨٠/٧ .

^(٢) دائرة المعارف الإسلامية : ٣٢٤ .

^(١) يتيمة الدهر ، الثعالبي : ٣٧/١ .

بل كان الأمير العربي راعياً للأدب والفنون، وكانت ندوته التي يقيمها في قصره حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة الذين يقصدونه من كل صوب، يلقون من كرمه ما يدفع بهم إلى تجويد صناعتهم الأدبية، فقد كان سبباً مباشراً من أسباب رقي الشعر العربي واستحداث فنون جديدة بعد أن كان محصوراً في إطار تقليدي محدود (٢)

لقد ضمت ندوة سيف الدولة الكثير من الشعراء والأدباء والعلماء، ويصف لنا الثعالبي بلاطه فيقول: "إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك . بعد الخلفاء . ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، . . . وكان أديباً شاعراً محبباً لجيد الشعر" (٣)

لذلك كثر الشعراء الوافدون على بلاطه من مختلف المناطق، وتضاعف عددهم، ومنهم المتنبي، وأبو العباس النامي، والصنوبري، والسري الرفاء، وأبو الفرج البغداد، وغيرهم.

كما كان بلاطه أيضاً ملتقى لأشهر اللغويين والنحويين والفلاسفة في عصره أمثال أبو علي الفارسي، وتلميذه ابن جني، وخالويه، الذي استقر في حلب، وكون مدرسة لغوية وصار أحد أفراد الدهر في كل قسم من أقسام الأدب والعلم وكانت إليه الرحلة من الآفاق (٤).

ويذكر الدكتور مصطفى الشكعة أن الأدب العربي لم يظفر بحظ موفور من الازدهار والقوة والتشجيع كما ظفر في تلك الحقبة التي عاشها أيام دولة بني حمدان، وبخاصة في عهد سيف

(٢) سيف الدولة الحمداني ، د. مصطفى الشكعة : ١٨١ .

(٣) يتيمة الدهر : ٣٧/١ .

(٤) وفيات الأعيان ، ابن خلكان : ٢٧٩/١ .

الدولة الحمداني^(١) الذي جمع في مجلسه أعداداً ضخمة من الشعراء والأدباء بدافع الحب الحقيقي للعلم والعلماء .

ويرى الدكتور طه حسين أن الإمارة الحمدانية استطاعت أن تحقق لنفسها درجة عالية من الرقي والازدهار في فترة بسيطة، أسوة ببغداد، وإن كانت لاتصل إلى متانة وعراقة الحضارة البغدادية التي أثبتت لنفسها العز والمجد أكثر من ثلاثة قرون^(٢).

ولا ريب أن من أسباب رقي الشعر في بلاط سيف الدولة تلك السماحة النادرة، والكرم المتدفق الذي كان يغدقه الأمير على شعرائه، فكلما جودوا في البضاعة ازداد العطاء ومن الأمثلة الواضحة على سخاءه وكرمه الوفير قول ابن نباته السعدي وهو من شعراء سيف الدولة، إلى حد أن ضاق ذرعاً بكرم الأمير وكثرة عطايه كما يقول:

قد جُدَّتْ بِاللُّهْمَا حَتَّى ضَجِرْتُ بِهَا وَكِدْتُ مِنْ ضَجْرِي أُثْنِي عَلَى الْبُخْلِ
إِنْ كُنْتَ تَرَعَّبُ فِي بَدَلِ التَّوَالِ لَنَا فَاخْلِقْ لَنَا رَغْبَةً أَوْلَا فَلَ تُنِيلِ
لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أَوْمَلُّهُ تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلِ

ولم يقف كرم هذا الأمير إزاء شعرائه ببذل الدنانير العادية ، بل ضرب دنانير - خاصة

بالصلوات - عليها اسمه وصورته^(٣)

وأخيراً، فإن هذا استعراض لصورة مظاهر الحياة بشتى ألوانها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في القرن الرابع الهجري، الذي شهد ولادة شاعرنا الببغاء، إذ أن تلك

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ١٥٥.

(٢) من تاريخ الأدب العربي ، طه حسين : ١٧٥/٣.

(٣) سيف الدولة الحمداني ، د. مصطفى الشكعة : ١٨٤.

المؤثرات قد لعبت دوراً بارزاً في حياته، وفي أعماله الفكرية والأدبية، وإبداعه الشعري، كما

سنرى.

*

*

*

الفصل الأول

الدوافع الشعرية وأثرها في شعره

المبحث الأول : الدوافع الذاتية .

المبحث الثاني : الدوافع الاجتماعية .

المبحث الثالث : الدوافع الدينية .

المبحث الأول

الدوافع الذاتية

قبل دراسة شعر أبي الفرج لا بد من الإلمام ولو بشيء يسير عن حياة الشاعر ونشأته، لأن دراسة شخصية الشاعر، والأحوال السياسية والعقائدية والاجتماعية والبيئية، التي عاش فيها، من الأمور التي يترتب عليها نتائج عظيمة، فهي تساعد على تفسير الأدب الذي أنتجه هذا الأديب، كما أنها تعد من أهم الملامح التي يجب التعرف عليها عند دراسة شخصية من شخصيات الأدب العربي في العصور المختلفة.

فمن هو أبو الفرج (البغاء)؟: هو عبد الواحد بن نصر بن محمد النصيبي^(١) من أهل نصيبين في جزيرة ابن عمر وكان يعرف بالحنطي^(٢) وبالمخزومي ولكنه لم يكن من بني مخزوم، ولد بنصيبين^(٣).

وأغلب حياته يكتنفها الغموض إلا ما أفصح عنه شعره وأخبار رويت له وهذا قليل، أما عن زواجه وحياته الشخصية فذلك ما لم تفصح عنه المصادر التي بين أيدينا.

مولده ونشأته :

لا تسعفنا المصادر بتحديد لتاريخ ميلاده شأنه شأن كثير من الأدباء غيره الذين عرف تاريخ وفاتهم بسبب شهرتهم، أما ميلادهم فهو مجهول، ولقد أغفل المؤرخون الذين أروخوا

(١) تيممة الدهر، للتحالي: ٢٩٣/١، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: ١١/١١-١٢، والأنساب، للسمعاني: ٧٠/٢، وفيات الأعيان، لابن خلكان: ١٩٩/٣، وشذرات الذهب، لابن العماد: ١٥٣/٣، والنجوم الزاهرة، لابن تغري بردي: ٢١٨/٤، والكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢٣٩/٧، وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد الطباخ: ٦٨/٤، وكشف الظنون، لحاجي خليفة: ٧٧٣/١، وهديّة العارفين، لإسماعيل البغدادي: ٦٣٣/١، وتاريخ الأدب العربي، لبروكلمان: ٩٨/٢، والأعلام، للزركلي: ١٧٧/٤، ومعجم المؤلفين، لعمر كحالة: ٢١٤/٦، والنثر الفني في القرن الرابع الهجري، لزكي مبارك، ٢٧٥/٢.

(٢) الحنطي: بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الطاء المهملة في آخرها الباء الموحدة، نسبة إلى الجد واشتهر بها أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد عبد الله بن عمر بن الحارث بن عبد الله بن عبد العزيز بن المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم الحنطي المعروف بالبغاء، ينظر الأنساب: ٢١٥/٤.

(٣) نصيبين: بفتح النون وكسر الصاد، كورة من كور ديار ربيعة وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفي قراها علما يذكر أهلها أربعون ألف بستان وبينها وسنجان تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام، ينظر معجم البلدان: ٢٨٨/٥، ومعجم ما استعجم: ٥٨٣/٢.

للبيغاء في ترجمتهم له سنة مولده، فلم يذكرها الثعالبي أو البغدادي أو ابن خلكان أو ابن الأثير أو السمعاني أو غيرهم.

وليس في أخباره القليلة ما يعيننا على التوصل إلى تاريخ تقريبي لميلاده اللهم احتمالات تعتمد على مقارنة بعض الأحداث التي تساعد على أن نفترض له تاريخاً تقريبياً وذلك أن أبا الفرج قال في رواية له " تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمة الله مكرهاً، وقد سار عنها في بعض وقائعه، وكان الخطر شديداً على من أراد اللحاق به من أصحابه حتى إن ذلك كان مؤدياً إلى النهب وطول الاعتقال، واضطرت إلى أعمال الحيلة في التخلص والسلامة، بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية، وكان سني في ذلك الوقت عشرين سنة" (١).

وبذلك يتضح أن الشاعر آنذاك كان عمره عشرين عاماً عندما دخل سيف الدولة إلى دمشق خلال حربه مع الإخشيديين سنة ٣٣٤هـ ومعنى ذلك أن مولده حوالي سنة ٣١٤هـ، يرجح ذلك صاحب الديوان (٢).

ولد في نصيبين تلك المدينة الساحرة الجميلة، وفي أحضان تلك الطبيعة الفاتنة الساجية التي حباها الله بالحسن الخلاب ترعرع وتعلم، وكان من أشهر أساتذته الشاعر النامي (٣) الذي كان ذا حظوة في بلاط سيف الدولة الحمداني بجلب، وكانت هناك صلة طيبة وقوية بين البيغاء وأستاذه الذي تتلمذ عليه وروى عنه بعض أماليه (٤)

(١) يتيمة الدهر: ٢٩٤/١.

(٢) الديوان: ٩.

(٣) النامي: هو أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المصيصي النامي من أهل المصيصة، ولد نحو ٣١٠هـ وتوفي عام ٣٩٩هـ وكانت له معارضات مع المنبي في الأناشيد، ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٧٠/١.

(٤) نفسه.

أما عن طفولته ومستهل حياته وكل ما يتعلق بنشأته وتربيته فلا يذكر لنا التاريخ شيئاً عنها إلا ما ذكرناه .

وتوفي البغاء ببغداد سنة ٣٩٨هـ وقد أجمع المؤرخين الثقة على ذلك ومنهم ابن الأثير^(١)، وابن خلكان^(٢)، وابن العماد الحنبلي^(٣)، وحاجي خليفة^(٤) وغيرهم

لقبه:

يزخر الأدب العربي بالعديد من أسماء المشاهير في مختلف المجالات، وقد جرت العادة غالباً على أن يكون للشخص المشهور كنية أو صفة أو لقب يطغى على اسمه الحقيقي وكأن له اسمين ومن أمثلة ذلك أبو الفرج الذي أجمعت مصادر عديدة^(٥) على أنه لقب بالبغاء ولكن اختلفوا في سبب تلقيه بذلك. واشتهر البغاء بهذا اللقب وعرف به في المنتديات الأدبية، والأوساط الشعرية أكثر من اسمه، وقيل أنه لقب بذلك للثغة في لسانه أو لفصاحته، وكان ابن جني يسميه (الففغاء)^(٦) بفاءين .

ويحدد لنا الثعالبي في اليتيمة سبب تسميته بالبغاء فيقول إنه لقب بذلك بسبب لثغة في

(١) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير : ٢٣٩/٧ .

(٢) وفيات الأعيان : ٩٦/٢ .

(٣) شذرات الذهب ، ابن العماد : ١٥٢/٣ .

(٤) كشف الظنون ، حاجي خليفة : ٧٧٣/١ .

(٥) وفيات الأعيان : ٩٥/٢ ، وينظر شذرات الذهب : ١٥٢/٣-١٥٣ ، واللباب : ٩٥/١ .

(٦) وفيات الأعيان : ٩٧/٢ .

لسانه، ويصفه بأنه "نظيف اللبسة، بهي الركبة، مليح اللثغة، طريف الجملة"^(١) ويرى غيره أنه لقب بذلك لفصاحته^(٢).

وأنفق مع الثعالبي في هذا الرأي ، لأن البغاء يذكر لقبه في أشعاره ويشير إلى أنه لقب به في الصغر قبل أن تفتح قريحته الشعرية ويبدو أنه لم يكن راضياً عنه، ويتضح ذلك من خلال قصيدته التي يرد بها على أبي إسحاق الصابئ^(٣) الذي كان يعاتبه لأنه غاب عن زيارته وهو في السجن حيث كانت هناك صداقة بين البغاء والصابئ الأديب المشهور وقد جمعت المودة والمحبة بينهما، فقد كان الصابئ كاتباً لبختيار، كما كان البغاء كاتباً لتغلب وكان أبو تغلب زوجاً لابنة لبختيار وكان على صلة طيبة به. وشاءت الأقدار أن يدخل الصابئ السجن فقام أبو الفرج بزيارته في سجنه ثم تأخر عنه فترة طويلة لم يزره فغضب عليه الصابئ وبعث إليه بقصيدة يعاتبه فيها ومطلعها:^(٤)

أبا الفرج اسلم وابق وانعم ولا تزل
مضت مدة تستام ودي غالياً
يزيدك صرف الدهر حظاً إذا نقص
فأرخصته والبيع غال ومرتخص

فأجابه أبو الفرج بقصيدة يبرر فيها غيابه ويتمنى إطلاق سراحه ويرجو عضد الدولة أن يرأف به فيقول:^(٥)

أيا ماجداً مُدَّ يَمِّمَ المِجْدَ ما نكصن
وبَدَرَ تمام مُدُّ تكامل ما نَقصن

(١) يتيمة الدهر : ٢٩٣/١ .

(٢) كشف الظنون : ٧٧٣/١ ، وينظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، زكي مبارك : ٢٣٠/٢ .

(٣) الصابئ : هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ ، صاحب الرسائل المشهورة ، توفي سنة ٣٨٤ ببغداد ، ينظر وفيات الأعيان : ٣٤١-٣٥ .

(٤) الديون : ١٠٧ .

(٥) نفسه .

سَتَخْلُصُ مِنْ هَذَا السَّرَارِ وَأَيْمًا هَلْأَلْ تَوَارَى بِالسَّرَارِ فَمَا خَلَصَ
بِرَأْفَةِ تَاجِ الْمَلَّةِ (١) الْمَلِكِ الَّذِي لِسُوْدَدِهِ فِي خِطَّةِ الْمَشْتَرَى خِصَصَ

ثم يختم قصيدته بذكر لقبه ويشير أنه لقب به في الصغر، ويُظهر عدم رضائه فيقول:

فَإِنْ كُنْتُ بِالْبِغَاءِ قَدِمًا مَلَقَّبًا فَكَمْ لِقَبِ بِالْجَوْرِ لَا الْعَدْلِ مُخْتَرِصٌ
وَبَعْدُ فَمَا أَخْشَى تَقَنُّصَ جَارِحٍ وَقَلْبِكَ لِي وَكُرِّ وَرَأْيِكَ لِي قَفْصٌ

ثم انتهى الابتداء والجواب لعضد الدولة فأعجب بهما واستطرفهما ، وكان ذلك سبب في

إطلاق سراح أبي إسحاق الصابئ من معتقله، ثم اتصلت بينه وبين البيغاء المودة والكتابة.

ويشير أبو إسحاق الصابئ إلى صفة البيغاء في أرجوزته التي استهلها بقوله: (٢)

أَنْعَمْتُهَا صَبِيحَةَ مَلِيحَةٍ نَا طَقَّةَ بِاللُّغَةِ الْفَصِيحَةِ
غَدَتُ مِنَ الْأَطْيَارِ وَاللِّسَانِ يُوْهَمُنِي بِأَنَّهَا إِنْسَانٌ

فهذه المحاورات الطريفة كلها تشير إلى لقب البيغاء، الذي يؤكد الصابئ فيها على أن لثغة

البيغاء كانت هي السبب في تسميته بهذا اللقب.

فأجاب أبو الفرج بأرجوزة يرد بها على هذه الأرجوزة، يبدؤها بأحوال الكتاب،

فيقول: (٣)

مَنْ مُنْصِفِي مِنْ مُحْكَمِ الْكُتُبِ شَمْسُ الْعُلُومِ قَمَرُ الْآدَابِ ؟
أَضْحَى لِأَوْصَافِ الْكَلَامِ مُحْرَزًا وَسَامَ أَنْ يُلْحَقَ لَمَّا بَرَزَا.

(١) تاج الملة: لقب من جملة ألقاب عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه، ولما ملك حصل ما لم يحصل لأحد من أهل بيته من سعة الملك والاستيلاء على الملوك، وهو أول من خطب بالملك في الإسلام، وأول من خطب على منبر بغداد بعد الخليفة وكان فاضلاً مشاركاً بعدة فنون، قصده فحول الشعراء فمدحوه بأحسن المدائح، ومنهم أبو الطيب المتنبّي، وكان له أشعار، توفي بعلّة الصرع في يوم الاثنين ثامن شوال سنة ٣٧٢ بيغداد، ينظر السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، بدر الدين العيني: ١٦٨.

(٢) يتيمة الدهر: ٣١١/١.

(٣) الديوان: ١٦٧.

وهل يُجاري السابق المقصّر؟ أم هل يساوي المدرك المعذر؟

فيقول: من ينصفه من عقلاء الكتاب وحكمائهم، الذين هم شمس العلوم وقمر الآداب؟ هم لأوصاف الكلام ممتلكين محققين، وعندما يبرزون ويتفوقون، فهم لا يحبون أن يلحق بهم أحد، ويواصلون السبق والتفوق والمنافسة على القمة والريادة، ويتعجب من أن المقصر لا يمكنه أن يجاري وينافس السابق المتفوق، وهل يساوي المعذر الذي يعاني عوائق النجاح والتفوق، الذي أدرك التفوق والدرجة العليا في العلم والأدب؟!

ثم يبين غرض أبو إسحاق الصابئ وهو واحد من الذين امتلكوا نواصي الكلام من أرجوزته فيقول: (١)

يحوّم حول غرض معلوم	ومقصدٍ في شعره مفهوم
حتى تجلّت دعوة الصريح	وسلم التلويح للتصريح
وصح أن البغاء مقصده	بكل ما كان قديماً يُورده
لم يدع لقائل مقالاً	فيها ولا لخاطر مجالاً

فأبو إسحاق يدور في كلامه حول غرض معلوم ومفهوم من شعره، حتى ظهرت تلك الدعوة الصريحة، وتحول التلويح إلى تصريح، وأفصح أن البغاء هو المقصد الذي يريده، وعندما تحدث عنه لم يترك لقائل، ولا لصاحب خاطرة بعده مقال، أو مجال.

ثم يتوجه إلى وصف أبو إسحاق له، في قوله: (٢)

أهدي لها من كلّ نعتٍ أحسنه
وصاغ من حلى المعاني أزينه

(١) الديوان: ١٦٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

أحالَ بالريشِ الأشيبِ الأخضرِ وبأحمرارٍ طَوَّقَها والمنسرِ
على اختلاطِ الروضِ بالشقيقِ وأخضر الميناءِ بالعقيقِ
تزهى بدوَّاجٍ من الزمردِ ومثقلةٍ كسبيحٍ في عَسَجِدِ

فقد وصف أبو إسحاق طائر البيغاء بكل وصف حسن، وصاغ من أجمل المعاني أفضلها، فهو صاحب ريش اختلط فيه الأخضر والأحمر طوق ذلك البيغاء أشبه ذلك شقائق النعمان في روضة يانعة، وزين عينيه الخضراء التي تشبه الزجاج بالعقيق وهي ولد العين التي شبهها به في الجمال واحمرار لونها، مغطاة تلك العين بما يشبه اللحاف وهو من الزمرد ذي اللون الأخضر، ومقلة العين مثل الفحمة أو جمرة مطفئة في ساحة من ذهب .

وفي وصف منقارها، وقدرتها على تقليد ما تسمع يقول: (١)

وحسن منقارٍ أشم قاني كأنما صيغ من المرجانِ
صيرَها انفِرادُها في الحبسِ بنُطْقِها من فصحاءِ الإنسِ
تميّزت في الطيرِ بالبيانِ عن كلِّ مخلوقٍ سوى الإنسانِ
تحكي الذي تسمعه بلا كذبٍ من غير تغييرٍ لجدُّ أو لعبِ
غذائها أركى طعام رغدا لا تشرب الماءَ ولا تخشى الصدا
ذاتٌ شغى تحسبه ياقوتا لا ترتضي غيرَ الأرزِّ قُوتا
كأنما الحبةُ في منقارِها حباةٌ تطْفُو على عُقارِها

ويصف منقارها الحسن الأشم المرفوع ذو اللون البني أو الأحمر الداكن، كأنما صيغ هذا المنقار من المرجان، وأحالتها انفرادها في الحبس بنطقها للكلمات التي تسمعها من فصحاء الإنس، فهي قد تميزت بين كل الطيور بالبيان، وهذه الميزة كانت لها بين كل المخلوقات خلا

(١) الديوان: ١٦٩

الإنسان، فهي تردد ما تسمع من كلمات بلا كذب ولا تغيير فيه سواء كان لجد أو لعب.
ويأتي إلى غذائها فيقول أنها لا تأكل إلا أطيب وأفضل وأزكى الطعام، ولا تشرب من الماء إلا
أنقاه، وإن لم تجده فهي لا تخشى العطش، ولها سن شاغبه تتميز باختلاف في بنيتها بالطول
والقصر والدخول والخروج فهي زائدة عن باقي الأسنان، تحسبها ياقوتا، ولا ترضى طعاماً إلا
الأرز، وانظر إلى الحبة في فمها وكأنها فقاعة على سطح الخمر.

ثم يبين أبو الفرج أنه منعوت بها، وأنه سعيد بهذا النعت، ويصف مدح أبي إسحاق

للبغاء في شخص أبي الفرج، فقال: ^(١)

لو لم تكن لي لقباً لم أختصر
لكن خشيته أن يقال مُنْتَصِرٌ وإنما تُنْعَثُ با
ستحقاقٍ لو صفها حذق أبي إسحاقٍ شرفها وزاد في تشريفها
بحكم أبداعٍ في تفويها فكيف أجزي بالثناء المُنْتخبِ مَنْ صرف المدح إلى
اسمي واللقبِ

فالبغاء لو لم تكن لقباً له، لما اختصر في وصفها، ووصف جمالها وتميزها، ولكنه خشي أن
يقال عنه أنه ينتصر لنفسه، ويمدح شخصه، ولكن البغاء تنعت بجدارة واستحقاق كما وصفها
أبو إسحاق، فهو شرفها وزاد في تشريفها وأبداع في تشريفها وأبداع في تزيينها وتوشيتها، ولذلك
فهو لا يعرف كيف يجازي بأفضل الثناء من حول المدح إلى اسمه ولقبه، وهو يقصد أبو
إسحاق.

^(١) الديوان: ١٧٠٠ .

والذي يؤكد أن البغاء لقب بذلك للثغة في لسانه قول أبي إسحاق الصابئ الذي أبدع فيه

عندما وصف لثغة أبي الفرج البغاء فيقول: (١)

أبا الفرج استحققت نعتاً لأجله تسميت به بين الخلائق ببغا
وما هجنت فيك المحاسن لثغة وليس سوى الإنسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدم خالياً لغير إذا ما صاح أو جمل رغا
فيا لك حرفاً زدت فضلاً بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوغاً

ويتفق الدكتور زكي مبارك مع الصابئ على أن البغاء لقب بذلك للثغة (٢) كانت في لسانه

، ثم يعلق على قول الصابئ في وصف لثغة أبي الفرج فيقول: "واللثغة تكون أحياناً أملح من

النطق الصحيح فيكون النقص بها فضلاً كما أشار الصابئ، ولكننا لا نرتضي بقية التمثيل "

(٣)

وهكذا يتضح لنا أن الشعر كان وسيلة البغاء الفضلى في التعبير عن مشاعره وعواطفه.

فالأدب هو اللغة التي يعبر فيها الشاعر عن أحاسيس نفسه الإنسانية وشدة انفعالها بما يحيط

بها فهو " مسرة النفس وسلوى الحزين يجد فيه الأديب متنفساً لهومومه وأكداره، ويجد فيه الفرح

صورة لشعوره، ويظفر منه الإنسان بمتعة قل أن يجدها في غيره من الفنون السهلة، شمولاً،

وصراحة" (٤).

(١) يتيمة الدهر: ٣١٣: ٢١٤.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك: ٢٣٠/٢.

(٣) المصدر السابق: ٢٣١/٢.

(٤) أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب: ٨١.

ولقد تحدث كذلك بشر بن المعتمر في صحيفته عن الدوافع الذاتية التي تدفع إلى عملية الإبداع الفني حيث يقول: "فإن بليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطبع في أول وهلة، وتعاصى عليك بعد إجمالة الفكرة، فلا تتعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلك. وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعمد الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق، فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصنعة إلى أشهر الصناعات إليك وأخفها عليك" (١)

ويعلق الدكتور سعد أبو الرضا على ذلك فيقول: " وهم بذلك يربطون بين المبدع والعمل الفني ربطاً قوياً بحيث يصبح هذا العمل محصلة لعوامل عدة منها حالة الشاعر النفسية" (٢).
ومن ذلك يتضح أن الطبع والرواية والدربة والذكاء من أهم العوامل المعينة على التدفق في الإبداع الفني يقول المرحاني في ذلك: " إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان، ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث، والجاهلي والمخضرم، والأعرابي والمولد، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر" (٣).

(١) الصناعات: أبو هلال العسكري: ١٤٠٠.

(٢) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياها، د. سعد أبو الرضا: ٦٤.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، المرحاني: ٢١ وما بعدها.

ثقافته :

التحق البغاء بخدمة سيف الدولة الحمداني وهو دون العشرين كما أسلفنا، ويبدو أنه قرض الشعر في فترة مبكرة من حياته، لأن سيف الدولة يعجب به، ويضمه إلى قائمة شعرائه، ليصبح بعدها نجماً لامعاً من نجوم الندوة السيفية، وشاعراً مشهوراً يبرز في بلاط سيف الدولة وينال حظوته ورعايته، ويستفيد من منابع علمه وثقافته بالإضافة إلى ما يلقاه عنده من الجاه والمكانة الرفيعة.

لقد كان للموهبة التي يتمتع بها البغاء أثراً عظيماً في إعطائه القدرة على الاستفادة من منابع الثراء الفكري والفني التي كانت تدور حوله في بيئة سيف الدولة، حيث يستفيد البغاء من المناظرات والمناقشات التي تقوم في بلاط سيف الدولة، كما يستفيد من سيف الدولة نفسه، حيث عمل كاتباً في ديوانه، يكتب له رسائله العديدة المتنوعة.

وكان سيف الدولة يسهم في تلك المناقشات، ويميز بين الرديء والجيد من الشعر وقد روى الثعالبي في اليتيمة أن الشاعرين الخالدين أبي بكر وأبي عثمان كانا من خواص شعراء سيف الدولة، وقد أهدى لهم ذات مرة وصيفة ووصيفاً، ومع كل واحد منهما بدره وتحت

من ثياب مصر، فبعث أحدهما إلى الأمير قصيدة شكر طويلة يقول فيها:

لم يغد شكرك في الخلائق مطلقاً
خوّلتنا شمساً وبدراً أشرقت
إلا ومالك في النّوال حبيسُ
بهما لدينا الظُّلّمة الحنديسُ
وغزاةٌ هي بهجة بلقيسُ
وحتى بعت المال وهو نفيسُ
أنت الوصيفة وهي تحمل بدرةً
و بررتنا مما أجادت حوكه
وأتى على ظهر الوصيف الكيسُ
مصراً وزادت حسنه تنيسُ
مشروب و المنكوح و الملبوسُ
فعدا لنا من جودك المأكول وال

فقال له سيف الدولة أحسنت إلا في لفظة المنكوح فليست مما يخاطب به الملوك^(١).

ومما يؤكد حبه للعلم والبلاغة مارواه الطبري حيث يقول : "كنت يوماً بين يدي سيف الدولة بجلب، فدخل عليه ابن عم له فاستبطأه الأمير وقال له : أين كنت اليوم؟ وبم اشتغلت؟ فقال له : أيد الله مولانا، حلقت رأسي، وأصلحت شعري، وقلمت أظافري، فقال له : لو قلت أخذت من أطرافي لكان أوفر وأبلغ"^(٢).

ويشير الدكتور طه حسين إلى ثقافة وعلم سيف الدولة فيقول : " وما كان الرجل يصنع هذا عن جهل، ولا عن غرور ولا عن رغبة في المنافسة للمنافسة من حيث هي ، بل عن بصيرة وحسن رأي ، وعلم بما يأتي وما يدع ، وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزهرة في نشر الدعوة، وإعلان ما كان يريد لملكه ودولته من أبهة وجلال "^(١).

(١) يتيمة الدهر : ٤٥٤/١ .

(٢) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، محمد راغب الطباخ : ٢٨٥/١ .

كما يصور لنا أيضاً كارل بروكلمان طبيعة الحياة الفكرية في ظل سيف الدولة فيقول: " ولم تقتصر الحركة الفكرية في بلاط سيف الدولة على الشعر والأدب بل عدتْما إلى العلم أيضاً، بروح ملؤها التفهم والإدراك، فلمع في سماءه أحد تلامذة أرسطو الكبار أبو نصر الفارابي، التركي الأصل، الذي أتم دروسه في بغداد" (٢).

نشأ البيغاء في وسط هذا الجو العلمي الثقافي الذي لم يخل بلا شك من تأثير على موهبته في الصياغة الشعرية، والصنعة الفنية.

لقد حددت أشعار البيغاء طبيعة الشاعر ذاتها، كما حددت أهم الدوافع لديه، ومنها رغبة الشاعر في تحقيق ذاته الأدبية والاعتزاز بها، وتأكيد مدى مقدرته الفنية على الإبداع في هذا الفن والمعارضات (٣) الشعرية السابقة التي جرت بين البيغاء والصائبى خير دليل على ذلك.

ومن الدوافع الذاتية أيضاً معاناته التي دفعته للإبداع وعشقه للحياة ورغبته في الهروب من واقعها القاسي المؤلم الذي كان يعاني منه بما فيه من أزمات نفسية ومحن خاصة، كل ذلك دفعه إلى البعد عن القيود التي يفرضها المجتمع بحيث يتمكن من تصوير نفسه على

(١) من تاريخ الأدب العربي ، طه حسين : ١٧٦/٣ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان : ٢٤٤٣-٢٤٤٣ .

(٣) المعارضة : أن ينظم الشاعر قصيدة على نمط قصيدة لشاعر آخر يتفق معه في البحر ، والروي ، والموضوع سواء أكان الشعائر متعاصرين أم غير متعاصرين ، ينظر عصر سلاطين المماليك ، د. محمود رزق : ٤٤٧/٨ .

طبيعتها، لأن التصوير الصادق لما يدور في نفسه من تلك الأزمات والشدائد، وإدراكه بما يدور حوله من تجارب الآخرين لمواقف الحياة المختلفة ينعكس من خلال ذاته على ما ينظمه من الشعر.

ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال شعره ، فهاهو يقول مصوراً فقره: (١)

سألت زماني بمن أستغيث فقال أستغثُ بعميدِ الجيوشِ (٢)
فناديتُ مالي به حرمةً فجاوب حوشيتَ من ذا وحوشي
رجاؤك إياه يُدنيك منه ولو كنتَ بالصينِ أو بالعريشِ
تبتُّ بي داري وفَرَّ العبيد دُ وأودتُ ثيابي وبعثُ فروشي
وكنْتُ ألقبُ بالبيغاء قديماً فقد مزَّق الدهرُ ريشي
وكان غذائي نقيُّ الأرز فما أنا مُقتنع بالحشيشِ

فقد عانى البيغاء من الفقر والبؤس، كما عانت فئة كبيرة من الناس في عهده من ذلك، فنظموا قصائد رائعة تجسد مدى ما يحس به هؤلاء الشعراء من آلام وأحزان لشدة فقرهم وعوزهم فتعددت الشكاوي التي ترسم لنا أبعاد هذا الفقر، وتعبر عن رغبتهم في التمتع بمباهج الحياة، وتوفير سبل العيش الهانئة.

كذلك الشكوى من الهموم تعد من أهم الدوافع الذاتية لدى الشعراء لأنهم من خلال تلك القصائد يعبرون عن أحاسيسهم الداخلية ، وآلامهم وأحزانهم في ذلك العصر.

(١) الديوان: ١٠٦.

(٢) عميد الجيوش : هو أبو علي الحسين بن أبي جعفر، ولد سنة ٥٢هـ، وتوفي سنة ٤٠١هـ ، ينظر الأعلام: ٢/٢٣٤، والنجوم الزاهرة: ٤/٢٢٨.

فمن قصائد البيغاء التي يناجي فيها ذاته، قوله^(١):

ولقد صحبتُ الدهرَ صحبةً عارِفٍ متعودٍ لصلاحه و فساده
وخبرته فرأيتُ ذنبي عنده فضلي وأعجزني دواء عناده
ومن البلية أن تداوي حِقْدَ مَنْ نَعْمُ الإله عليك من أحقاده

لقد اتجه الشعراء إلى الأشعار ينظمون فيها القصائد الرائعة التي تعبر عن ذاتهم الإنسانية المتألّمة في ذلك العصر، وقد كانت أشعار البيغاء نماذج واضحة لصفاته الشخصية وسماته الفنية، فهو يبدو من خلالها إنساناً طموحاً مسالماً يميل إلى الهدوء والبعد عن المشاحنات مع الآخرين، كما أنه يتصف بالمرح والتفكه ليهرب من آلامه الداخلية، ومن الطرائف الشعرية قوله في وصف النار:^(٢)

فَحَمًّا قَدَّمُ الغلامُ فأهدى في كوانينه حياةَ النُّفوسِ
كان كالآبَنُوسِ عَيْرٍ محلِّي فغدا وهو مُذْهَبُ الآبنوسِ
لقى النارَ في ثيابِ حَدَادٍ فكسبته مُصَبَّغَاتِ عَرُوسِ

وأرى مع الدكتور عز الدين إسماعيل في قضية الدافع إلى الإبداع: "أن الأديب لا يكتب لكي يستمتع بثمار عقله على نحو أو آخر، وإنما يكتب لأنه يستمتع بعملية الإبداع ذاتها، فهذه المتعة هي حافزه على الكتابة، لأنه يتخلص بها من وطأة الظروف على نفسه".^(٣) فالذاتية لا تقتصر على التعبير عن الذات، لأنه "ليس المراد بالذاتية أن يقتصر الشاعر على التعبير عن ذاته وعواطفه وتجاربه الخاصة وحدها وإن كان ذلك من أهم مظاهر الذاتية بل

(١) الديوان: ٨٣.

(٢) المصدر السابق: ١٠٤.

(٣) التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل: ٣٤.

أن الشاعر كيان مستقل ونظرة متميزة للحياة والناس، ووجدان يقظ يرصد المجتمع والطبيعة
والنفس الإنسانية" (١)

من الدوافع الذاتية أيضاً التي دفعت أبا الفرج البغاء إلى نظم الشعر دافع شفافية نفسه
ورقة مشاعره حيث ساعدت حياة الترف والنعيم واللهو التي عاشها الشعراء في عهد سيف
الدولة على الإكثار من شعر الغزل الذي يعبر فيه الشاعر عن لوا عج الحب وعذباته، ويحتل
الغزل مكانة كبيرة في نفس أبي الفرج البغاء، فهاهو يقول: (٢)

جاورتُ بالحبِّ قلباً لم تذرْ فِكْرِي للحبِّ مستمعاً فيه ولم تدعِ
مفرقاً بين همٍّ غير مُفترقٍ عنه وبين سلوٍ غير مُجتمِعِ
يصبو ولكن يكفّ الحلم صبوته وأشرفُ الحبِّ أدناه من الورعِ
وبي أمسَّ غرام لو أنستُ إلى ال شكوى ولكن أعدَّ الصبر للجرعِ
ما بال أهل زماني من تجاهلهم بموضعي بين مغبون ومختدعِ
قومه أفعاله شرفاً بالفضل فهو لمعنى غير مخترعِ
عفتُ الموارد لما لم أجد ظمأ في كثرة الماء ما يغني عن الجرعِ

فهو يقول أنه جاور بالحب قلباً هو فيه بين مستمع بالتفكير به وخائفاً من فراقه، فهو بين
أمرين، بين هم ملازمه من شدة الحب وبين سلو لا يستطيع فعله، فشاعرنا يصبو إلى محبو بته
ولكن هناك من الحلم ما يقف حائلاً بينه وبين ما يصبو إليه، فالإنسان المحب الصادق في

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د. عبد القادر القط: ٢٦.

(٢) الديوان: ١١٣.

حبه لا بد للورع أن يمنعه من التجاوز في هذا الحب، رغم أنه في أمس الحاجة إلى هذا الغرام،
ولكن الصبر لمواطن الجزع.

وفي موضع آخر نجد غزله يؤدي إلى الشقاء والتعب ، فهو موافق على هذا الشقاء وموافق
على تملك حبيبته إياه حتى تقتله عشقاً وغراماً، ثم يطلب من حبيبته التي خاصمته ولم تكلمه
عشرة أيام أن تستعمل الرفق معه ،فمن يدري أنني سأبقى إلى هذا الوقت على قيد الحياة ،
فإن ما تفعله بي سيتلفني. فيقول: (١)

أشقتني فرضيت أن أشقى وملكنتي فقتلتني عشقا
وزعمت أنك لا تكلمني عشراً فمن لك أنني أبقى
ليس الذي تبغيه من تُلْفَى متعذراً فاستعمل الرفقا

وفي موضع آخر نجد أبا الفرج يتحدث عن حبه وهواه الذي وصل به إلى وضع تساوى فيه
الحجر والقرب، فلقد سلب الحب قلبه حتى أن الفراق والقرب لا يضيفان شيئاً جديداً على
نفسه فيقول: (٢)

حصلتُ من الهوى في مَحَلِّ يساوي بينَ قُرْبِكَ والفِراقِ
فلو واصلتَ ما نقص اشتياقي كما لو بِنْتٍ ما زاد اشتياقي
ويقول أيضاً في الغزل: (٣)

وقد رامَ هذا الحبُّ أن يسرقني فأنجدني صَبْرٌ عليه جميلٌ

(١) الديوان: ١١٦ .

(٢) المصدر السابق: ١١٩ .

(٣) المصدر السابق: ١٣١ .

فالحب أراد لشاعرنا أن يصبح عبداً له ولكن الشاعر لاذ بالصبر الجميل وأنقذه من هذه

العبودية.

ومن الدوافع الذاتية التي دفعت أبا الفرج الببغاء لقول الشعر، المدح فلقد استخدمه جميع الشعراء لنيل الحظوة عند الرؤساء والملوك، ولتكسب العيش فمعظم شعراء العربية استخدموا المدح وسيلة للتكسب، وكان هذا الدافع الذاتي سبباً من أهم الأسباب التي استخدمها الشعراء لنيل الحظوة والمكانة الرفيعة عند الخلفاء والأمراء وكان سبباً في العيشة الهنية التي عاشها الشعراء على مر الأزمان.

ولم يخرج شاعرنا أبو لفرج عن جل الشعراء في ذلك، حيث استخدم المدح أيضاً للوصول إلى مكانة رفيعة عند الأمراء وخاصة سيف الدولة الحمداني، الذي جعل معظم مدحه فيه فهما هو يقول مادحاً إياه: ^(١)

يسعى إلى الموتِ والقنا قِصْدُ وخيلُهُ بالرؤوسِ تَنْتَعِلُ
كأنه واثقٌ بأنَّ له عُمرًا مقيماً وما له أجل

فشاعرنا يقول في ممدوحه أنه يسعى في الحرب إلى الموت وفي يده الرمح ليقاتل الأعداء وخيله تنطلق نحو العدو، ومن كثرة القتلى التي تمر عليها الخيل تخيل الشاعر أن رؤوس قتلى الأعداء أصبحت نعلاً للخيل. وهو في انطلاقه في المعركة غير هيباب واثق بان عمره لن ينتهي وان أجله ممدود لا حدود له، وهذا يدل على جسارة هذا القائد وعدم خوفه من الموت .

ومن مدحه لسيف الدولة أيضاً قوله: ^(١)

^(١) الديوان: ١٢٦

فصرتُ أمسك عن أوصافِ نِعْمَتِهِ عجزاً وينطلق من آثارها حالي
لما تحصنتُ من دهري بمَعْقَلِهِ سمّت بحملانه أَلْحَاظُ إقبالي
ووصلتني صلاتٌ منه رُحْتُ بها أحتالُ ما بين عزِّ الجاهِ والمالِ
فليَنظُرِ الدَّهْرُ عُقْبِي ما صرتُ له إذ كان من بعضِ حُسَّادي وعُدَّالي
ألم أكِدْهُ بُمُحْسِنِ الانتظارِ إلى إن صُنْتُ حَظِّي عن حلِّ وترحالِ
بلغت ما لا يجوزُ السؤالِ نائله ولا يدافعُ عن فضلٍ وإفضالِ
يعارضاً لم أشمُّ مذكنت بارقه إلا رويت بغيثٍ منه هَطَّالِ
رُوَيْدٌ جودك قد ضاقتُ به هَمِّي وردَّ عني برغمِ الدَّهْرِ إقلالي
لم يَبْقَ لي أملٌ أرجو نداك به دهري لأنك قد أفنيت آمالي

فشاعرنا هنا يشكر سيف الدولة ويمدحه على ما أهده له من خلع ومال فلقد حباه سيف الدولة بنعم كثيرة عجز اللسان عن شكره هذه النعم، فلقد تحصنت من الفقر بما حباي به سيف الدولة، فعطاياه التي وصلتني جعلتني اختال بين عز الجاه والمال، حتى أن حسادي وعُدالي عدلوني على هذا العز والجاه، فهذا العز جعل مني إنسانا مرتاحاً لا يفكر في الترحال لكسب العيش، فلقد منحني سيف الدولة من المال ما لا أستطيع أن أسأل أحداً بعده لأنني بلغت من الغنى ما يكفيني، ففضله عليّ مثل الغيث المطال الذي يروي الأرض فيشبعها، حتى إن هممي ضاقت بهذا العطاء الوفير الذي منحه لي، وابتعد عني الإقلال والفقر فلقد سد سيف الدولة كل منافذ الفقر التي كانت تحوطني فلم يبق أمل أرجو به نداك لأنك أفنيت آمالي.

ومن مدائحه في سيف الدولة أيضاً قوله: ^(١)

^(١) الديوان: ١٣٣.

^(٢) الديوان: ١٣٢.

كأنما ادّخر الرحمن معظمة دون الملوك لسيف الدولة البطل
رآه أكرمهم في الخير إن ذُكروا وصفاً وأفلهم في القول والعمل
فهزّه وظبأ الأسياف مُغمدة واستله غير منسوب إلى الفل
حتى غدا الدين من بعد العبوس به جذلان يرفل من نعماه في حُلل
فلو تكلم في حال وقيل له من خير هذا الوري؟ لم يسم غير علي

فلقد ادخر الله سبحانه وتعالى سيف الدولة الحمداني دون الملوك لهذا الدين، لأنه أكرمهم
وأخيرهم وأفضلهم في القول والعمل، ولأنه سيف من سيوف الله القوية، حتى أن الدين بعد أن
أصابه العبوس والحزن أخذ يفرح ويرفل في حلل النصر بقدم هذا البطل العظيم، ولو تكلم
الدين بلسان حاله وسُئل عن خير هذا الوري أجاب الدين سريعاً بأنه عليّ بن أبي الهيثم بن
عبد الله الحمداني الملقب بسيف الدولة.

ومن كل ما تقدم نستطيع القول أن شعر البغاء الذاتي اتصل بتجارب حياته الشخصية،
كالشكوى، وذم الدهر مثلاً، كذلك نراه في كثير من تجاربه الشعرية الأخرى وخاصة في
وصف الطبيعة ومناظرها البهية، والغزل، والمدح، وسيوضح ذلك في الدراسة الموضوعية لشعره.

*

*

*

المبحث الثاني

الدوافع الاجتماعية

الدافع الاجتماعي ونقصه به تلك البيئة التي تحيط بالإنسان وتؤثر فيه، فالمكان وما فيه من مظاهر اجتماعية وطبيعية بألوانها وأشكالها وأحيائها وعاداتها وسلوكها والأحداث التي تطرأ عليها تغير مجرى حياة الناس، وبما أن الشعراء أرق الناس إحساساً وأدقهم لحظاً وأسرعهم تأثراً، من هنا تنعكس البيئة الاجتماعية المحيطة بهم على شعرهم وصورهم الفنية لأن دراسة تلك البيئة والتعرف على الأوساط الاجتماعية التي ينشأ فيها، والشخصيات التي يتعامل معها وعلاقته مع أبناء عصره من الشعراء من أهم العوامل التي تساعد على دراسة أدبه، ومعرفة الدوافع الشعرية لديه.

وحياة الشاعر تنقسم إلى فترتين في بيئتين: بيئة الشام وبيئة العراق حيث ولد ونشأ في مدينة نصيبين، هذه المدينة الساحرة الجمال، وترعرع وتعلم على يد أستاذه (النامي) الذي كانت تربطه به صلات المحبة والتقدير والاحترام. ثم غادر الببغاء العراق أول مرة، ولم يكن قد ذاع صيته، أو اتسعت أفاقه الأدبية بعد، فاتجه إلى بلاد الشام والتحق بخدمة سيف الدولة كما أسلفنا سابقاً، وهناك استفاد من منابع التراث الأدبي والفكري على السواء، ولعل في انضمامه إلى تلك البيئة وخاصة حلب أثر عظيم في تخليد اسمه وأدبه بين الأدباء.

" أصبح لحلب زمن سيف الدولة مركز أدبي مرموق، ما كانت لتحظى به لو لم يكن أميرها محباً للعلم وللعلماء، متذوقاً للأدب، مجاهداً يضطلع بعبء الجهاد، سخياً ينفق على رجال الأدب ويغدق لهم العطاء " (١) وهذا الأمر معروف وهو أن حلب في عصر سيف الدولة كانت من أجل بقاع الأرض.

واستفاد كذلك من لقاءاته مع كبار الشعراء في عصره خاصة شعراء سيف الدولة، وكان له علاقات وثيقة مع معظمهم، وكانت هذه العلاقات تقوم على المحبة والمودة، لا يشوبها الحسد والضغينة، كما هو شائع بين معظم الشعراء في ذلك العصر من مشاحنات، ومن أمثلة ذلك قصة ضرب ابن خالويه للمتنبّي بمفتاح على رأسه وهي مشهورة في كتب الأدب. (٢) كما :

"كان النامي من جملة حساد المتنبّي، وكانت له معه وقائع ومعارضات في الأناشيد" (٣).

(١) الصراع مع الروم، د. نصرت عبد الرحمن: ٢٠٥.

(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، د. مصطفى الشكعة: ١٧٤.

(٣) وفيات الأعيان، ابن خلكان: ١٤٧/١.

فالبغاء له علاقات وثيقة مع معظم الشعراء أمثال المتنبي، وأبي فراس الحمداني وغيرهم من شعراء الندوة السيفية أما عن علاقته بالشاعر المتنبي يذكر لنا صاحب كتاب الصبح المبني على حثية المتنبي حديث للبغاء يقول فيه : " كان أبو الطيب يأنس به ويشكو من سيف الدولة، ويأمني على غيبته له، وكانت الحال بيني وبينه عامرة دون باقي الشعراء، وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاضمه، ويجفو عليه إذا كلمه والمتنبي يجيبه في أكثر الأوقات ويتغاضى في بعضها"^(٤).

وبالرغم من كثرة العداوة والمشاحنات والخصومات بين المتنبي وبعض شعراء عصره إلا إننا نجد الكثير منهم سواء أتباعه أم خصومه قد تأثروا به.

ولقد عقد صاحب اليتيمة فصلاً لسرقات الشعراء من المتنبي سواء منهم أتباعه وخصومه وإليك أمثلة تنطق بذلك. قال أبو الطيب:

وقد أخذ التمام البدر منهمم وأعطاني من السقم المحاقا

أخذ ه أبو الفرج (البغاء) أحد أصدقاء المتنبي والمعجبين به فلطفه وقال:

أوليس من إحدى العجائب أنني فارقته وحييت بعد فراقه
يا من يحاكي البدر عند تمامه ارحم فتى يحكيه عند محاقه
وقال أبو الطيب في الوصف:

يخدن بنا في جوزه وكأنا على كرة أو أرضه معنا سفر

حيث أخذه السري الرفاء فقال :

^(٤) الصبح المبني على حثية المتنبي ، البديعي : ٩٢ .

وخرق طال فيه السّير حتى حسبانه يسير مع الركابِ

قال أبو الطيب :

ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزلهنّ إلى من عنده الدّيم

وأخذ كذلك السري منه قوله :

وأنا الفداء لمن مخيلة برقه عندي وعند سواي من أنوائه

ولاشك أن حياة المجتمع ، واختلاف مظاهر العيش التي تنتشر في كل عصر فضل في

وجود الكثير من الشعراء لأن " الأديب يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته ، القائمة

في مجتمعه ، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع "(1).

فالحياة الاجتماعية – بالرغم من تباين مظاهر العيش فيها – لها فضل في وجود الكثير

من الاتجاهات الشعرية المختلفة ، فمن كان مقيماً في القصور ينعم بالحياة الراغدة ، انطلق

لسانه بأبيات تصف كل ما يحيط به من نعمة فصورت القصور ومجالس الخمر، وما يدور

فيها، كل ذلك مساعد على وجود تيار الجحون والتغزل بالغلّمان الذي كان منتشرًا في ذلك

العصر، أما من حرم ذلك النعيم ، تهدجت أبياته واصفة اعتصار قلبه من الحرمان والتطلع لحياة

سعيدة بعيدة المنال(2).

(1) الأدب وفنونه ، د. عز الدين إسماعيل : ٣٠٠٢٩ .

(2) الحياة الأدبية في بلاط البويهيين ، د. فاطمة الزهراء : ١٢٢٠١٢١ .

(3) ظهر الإسلام ، أحمد أمين : ٩٧/١ .

فالأدب ما هو إلا فن يترجم لنا هذه الحياة بكل معطياتها المختلفة، كما أنه يصور لنا أحوال الأمم السائدة في كل عصر، فمن خلال أشعاره نستطيع التعرف على خبايا تلك الحياة في كافة نواحيها السياسية والاجتماعية والثقافية، التي أسهب الشعراء في التعبير عنها، لأن النفس الشاعرة المرهفة تترجم لنا أحداث تلك الحياة التي عاشوا في كنفها بصورة صادقة معبرة، كما تعكس لنا أحوال المجتمع وطبقاته.

فمن الطبيعي في مجتمع وصل فيه الفساد المالي والإداري أشده أن يؤدي ذلك إلى التفاوت بين طبقاته " فالثروة غير موزعة توزيعاً عادلاً، ولا متقارباً، والحدود بين الطبقات كانت واضحة كل الوضوح"^(٣).

فهناك طبقتان متميزتان: الطبقة الأولى هي طبقة الخلفاء والملوك والقادة والوزراء والولاة وبعض التجار والإقطاعيين. وطبقة ثانية تختلف عن سابقتها، وهي طبقة العامة وتشمل أغلبية أفراد الشعب من علماء وأدباء وصناع وغيرهم.

أما الطبقة الخاصة من الأغنياء، فقد نعموا بمباهج الحياة من مأكّل وملبس ومشرب، وعرفوا بشراستهم في تعاملهم مع الطبقة العامة، وابتزاز أموال الرعية، واستخدام أساليب التعسف والظلم والقهر، بغية الحصول على المال، كما أنهم فرضوا الضرائب على كل ما يباع، ولم يقتصر الأمر على الترف، بل تعداها إلى الضروريات، حيث فرضت ضريبة على الملح^(١) ولما عزم صمصام الدولة عام ٣٧٥هـ ببغداد على وضع ضريبة مقدارها عشر الثمن على ثياب

^(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي: ٧٨/٨.

الابريسم والقطن المبيعة،" اجتمع الناس في جامع المنصور وعزموا على قطع الصلاة وكاد البلد يفتتن فأعفوا من ذلك" وكثيراً ما كانت تشب الفتن في بغداد ومدن العراق، بسبب تلك الضرائب التي أرهقتهم، حتى عجزوا عن تقديمها^(٢).

وقد ظهر هذا الترف في أسلوب معيشتهم، فعاشت الطبقة الأولى حياة ترف وبذخ وتبذير وإسراف، فقد تأنقوا في مآكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم، وخاصة في بناء القصور الفخمة، التي تحيط بها الحدائق الغناء والبساتين الخلابة .

ويروى عن الوزير المهلي^(٣) أنه كان شديد التأنق في طعامه، ويقال أنه كان يأكل

بملاعق الذهب، وكان كذلك محباً للزهور يشتريها ويلقيها في بركة ماء في داره

وكأن هذه البركة قد احتوت على فورات ماء عجيبة^(١).

ومن مظاهر الترف والنعيم والغنى الفاحش ما ذكره البغدادي في تاريخ بغداد عن قصر

الخليفة المقتدر كدليل منه على ما وصلت إليه هذه الطبقة من نعيم^(٢)، فعضد الدولة مثلاً

بلغت ثروته عندما مات أكثر من ألف دينار^(٣).

فالشراء الفاحش الذي تمتعت به هذه الطبقة، انتهى بها إلى حياة مغرقة في الترف والبذخ

والتبذير والجري وراء الشهوات وملذات الحياة ومطالبها والانغماس في مجالس اللهو، كمجالس

(١) المنتظم: ١٢٧/٧.

(٢) الوزير المهلي: هو الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون من ولد المهلب بن أبي صفرة الأزدي أبو محمد من كبار الوزراء الأدباء الشعراء، ولد بالبصرة سنة ٢٩١ هـ، وتوفي في واسط سنة ٣٥٢ هـ، ينظر وفيات الأعيان: ٢٥٣/١.

(٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي: ١٣٨/٩.

(٤) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ١٠٤١٠٠.

(٥) الحضارة الإسلامية، آدم متر: ٣٦/١.

(٦) الديوان: ٣٦.

الشراب، ومجالس الغناء العامرة بالنساء والجواري والغلمان فهذا كله ترك أثراً واضحاً على شعر

شعراء تلك الفترة، فقد انجذبت قلوبهم للحضارة والترف المحيط بهم. فهاهو (البغاء) يصف لنا

الخمر التي تركت أثراً في شعره، وأصبحت من أهم أغراضه الشعرية فيقول: (٤)

ومُدَامِ كَأَنَّهَا فِي حَشَا الدِّ نَّ صِبَاخٍ مَقَارِنَ بِمَسَاءِ
فَهِيَ نَفْسٌ لَهَا مِنَ الطَّيْنِ جِسْمٌ لَمْ تُتَمَتَّعْ فِيهِ بِطَوْلِ الْبِقَاءِ
مَا تَوَهَّمْتُ قَبْلَهَا أَنْ فِي الْعَا لِمِ نَاراً تُذَكِّي بِقَرْعِ الْمَاءِ
بِزَلَّتْ وَالضُّحَى عَنْ اللَّيْلِ مَحْجُو بٌ فَلَاحَتْ كَالشَّمْسِ فِي الظُّلْمَاءِ
وَتَلَاهُ الْفَجْرُ الْمُنِيرُ فَعَفَنَاهُ لِأَتَا عَنْ نُورِهِ فِي غِنَاءِ
مَا اسْتَرَدَدْنَا بِهِ ضِيَاءً عَلَى أَيْسَرَ مَا كَانَ عِنْدَنَا مِنْ ضِيَاءِ
مَا زَحَتْ جَوْهَرَ الزُّجَاجِ فَجَاءَتْ كَشُعَاعٍ مُمَارِجٍ لِهَوَاءِ
وَتَجَلَّتْ مِنَ الْحَبَابِ بَدْرٌ يَتَلَاشَى بِاللَّحْظِ وَالْإِيْمَاءِ

نلاحظ هنا أن أبا الفرج يصف الأقداح التي يشرب فيها الخمر ثم يصف الخمر نفسها

بأوصاف لم تسبق من قبل، فوصفها بالنار التي يزيد بها الماء اشتعالاً، كما أنها مثل الشمس

المشرقة في ظلام الليل الأسود، ثم شبهها بالبدر الذي يتلاشى باللحظ والإيماء.

ولو رجعنا إلى ديوان البغاء لوجدنا أن الجانب الاجتماعي المتمثل بوصف الخمر ومجالسها

قد أخذ قسطاً وافراً من شعره، وإن كان هذا يبرز ضعف الجانب الديني عنده، إلا أن أبا الفرج

استطاع أن ينقل لنا صورة اجتماعية حية لتلك الحياة العابثة التي عاشها مع وجود الكثير من

المغريات.

وفي مكان آخر يصف المكان الذي تشرب فيه الخمر، وهو مكان لهو ومعهد للتنزه

ومجالس الأُنس فنراه يقول: ^(١)

بالقفص ^(٢) للقفص منزل كَثَبُ ما للتصابي في غيره أربُ
جادتْ به ديمَةٌ السرورِ وحَا لَ اللهو فيه وعَرَسَ الطربُ
دارتْ نجومُ السرورِ في فلكٍ منه له من فتوتِي قطبُ

ثم ينتقل فيقول:

جلت عروس المدامِ حالية فيه علينا الأوتارُ والنخبُ
فالأفق كفي و الأنجمُ الحبُّ والراحُ بدرٌ و الجامِ هالتهُ

حالٌ به الماءُ عن طبيعتهُ بالمزجِ حتى خلنأه يلتهبُ
ونحن في مجلس تدير به الـ خمرَ علينا الأقداحُ لا العُلبُ

نلاحظ هنا الشاعر يصف مجالس اللهو والسرور، ويصف الخمر بأنها فاضحة للأسرار التي يحجبها الإنسان عن الآخرين حيث تلعب الخمر برؤوس شاربها فيضيع ما يكتمه عن الناس. ثم ينتقل في وصف الخمر فيقول أن الخمر مثل البدر في ليلة تمامه وأثناء الخمر وهو الجام هو الهالة التي تحيط بالبدر، ثم يصف الأفق التي يظهر فيها البدر بأنه كفه والنجوم هي الحبيبات التي تظهر على وجه الكأس وصف يدل على مدى امتزاج الشاعر في هذه الطبيعة وهذا المنظر حيث تتداخل في نفس الشاعر مع الخمر التي يشربها.

^(١) الديوان: ٤٤ .

^(٢) القفص: قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا من مواطن اللهو ومعاهد التنزه ومجالس التفرج ينسب إليها الخمر الجيد وفيها حانات كثيرة ، ينظر معجم البلدان، عمر رضا كحالة: ٤ / ١٥٠ .

وهاهو أيضاً يصف موطناً آخر من المواطن التي كان يشرب فيها الخمر ألا وهو (الكرخ) وموطن آخر يسمى (دير السّوسي) فيتذكر ما كان يحدث فيها من نشوة ولهو، فهذه الأماكن عنده مثل الجنة إلا أن الإنسان لا يخلد فيها فيقول: ^(١)

يَالْيَالِيَّ بِالْمَطِيرَةِ وَالكَرْخِ خِ وَذِيرِ السُّوسِيِّ بِاللَّهِ عُودِي
كُنْتُ عِنْدِي أَنْموذَجَاتٍ مِنْ الْجَنَّةِ لَكِنَّهَا بغيرِ خُلُودٍ
أَشْرَبُ الرَّاحَ وَهِيَ تَشْرَبُ عَقْلِي وَعَلَى ذَاكَ كَانَ قَتْلُ الْوَلِيدِ

فهذه الأبيات تدل على أن الشاعر كان متعلقاً بشرب الخمر حتى أنه يتمنى أن تعود هذه الأيام. وهاهو البغاء يصف مكاناً آخر كان يتردد عليه لشرب الخمر وهو بين

(كلواذى وقطر بل) فيقول: ^(١)

كَمْ لِلصَّبَابَةِ وَالصَّبَا مِنْ مَنْزِلِ مَا بَيْنَ كُلُّوَادَى ^(٢) إِلَى قَطْرِ بُلِّ ^(٣)

فنى أبا الفرج يذكر هاتين القريتين ويتمنى أن ينزلهما لما فيهما من خمر ولهو ولعب.

وقد ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة أماكن كثيرة للهو، كان يرتادها

الكثيرون من طلاب اللهو والمتعة ^(٤).

^(١) الديوان: ٧٨ .

^(٢) الديوان: ١٣٦ .

^(٣) كلواذى: هي طسوج من طساسيج سواد العراق، أي كورة من سواده، وهي جنوب بغداد، معجم البلدان: ٣٧١/٤، وينظر معجم ما استعجم: ٤٧٦ .

^(٤) قطريل: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر، وقد أكثر الشعراء من ذكرها، وهي طسوج من طساسيج سواد العراق، وهي شمالي بغداد، ينظر معجم

البلدان: ٤٧٧/٤ .

^(٥) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي: ١٨٣/٢ .

^(٦) يتيمة الدهر: ٣٩٤/٢ .

^(٧) ديوان السري الرفاء: ٢٤٦ .

لم يقتصر اللهو والمجون على فئة معينة بل شمل معظم الناس حتى الوزراء والحكام وبعض كبار رجالات الدولة "ويحكى أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة هم ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم وما منهم ألا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبى" (٥).

ها هو السري يذكرهم في شعره عندما حضر يوماً معهم على الشراب فيقول: (٦)

مجالس ترقص القضاة بها	إذا انتشوا في مخانق البرم
وصاحب يخلط المجون لنا	بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شبيه عبثاً	أنامل مثل حمرة العنم
حتى تحال العيون شيبته	شيبة فعلان ضرحت بدم

ثم ينتقل الشاعر إلى صورة أخرى في وصف الخمر، فهاهو يصف المعصرة التي تعصر الخمر وكيف أنه نزل بها وقرن الشمس لم تغب، ثم بدأ يصف قزازها الممتلىء بالخمر وأنه مثل معدن الذهب ثم يبدأ يصف كيف يتم عصر العنب فيها وكيف يفقد الكرم فيها اعين العنب، ثم يصف العصير بالياقوت الذي يلاعب لؤلؤ الحب ثم يتعجب من عاصر الخمر وكيف يعيش هذا العاصر وهو واقف بين الخمر التي يشبهها أبو الفرج باللهب فنراه يقول: (١)

ومعصرة أُنحْتُ بها	وَقَرْنُ الشَّمْسِ لَمْ يَغِبْ
فَخَلْتُ قَزَازَهَا (٢) بِالرَّاحِ	حَ بَعْضَ مَعَادِنِ الدَّهَبِ

(١) الديوان: ٥٥.

(٢) قزازها: القر القدح، أو الصغير من القوارير، والطاس، ينظر القاموس المحيط: (مادة: قزر).

وقد ذرفت لفقْد الكَرَمِ م فيها أعيُنُ العِنَبِ
وجاشَ عُبابُ واديها بِمُنْهَلٍ و مُنْسَكِبِ
وياقوتُ العَصِيرِ بها يلاعِبُ لؤلؤَ الحَبِيبِ
فيا عَجِباً لعاصرها وما يُعْنَى به عَجَبِي
وكيف يعيشُ وهو يخو ضُ في بَحْرِ مِنَ اللَّهَبِ

ثم نرى أبا الفرج ينتقل نقلة أخرى في وصف الخمر حيث أنه لا يستطيع أن يسلو

الشراب فيطلب من مدير الخمر أن يبدأ يومه بهذا الشراب ثم يصفها بأنها كالجلنار وهو زهر
الرمان فنراه يقول: (٣)

غادني بالصُّبُوحِ قَبْلَ الصُّبَّاحِ واجرِ في حَلْبَةِ الصُّبَّاحِ والمِراجِ
واغتَنِمْ زائرَ الغِرامِ فقد بشد رَ بالغَيْثِ من نَسِيمِ الرِّياحِ
عاطنيها كالجلنار إذا ما كُئِلتْ من حبابها بالأقاحِ
في اختصاصِ التفاحِ بالطيبِ والخمِ رة لا في كثافةِ التفاحِ
غير نكر أن تستمدَّ شعاع الـ شمسٍ منها كواكبِ الأقداحِ
فهي أصلُ الأنوارِ لطفاً كما كا ساتها عصرُ الزلالِ القراحِ
خدمتها الأجسامُ بالطبعِ لما شاهدتْ قُربها من الأرواحِ

وهاهو في موضع آخر يطلب التمتع بالخمر ويعتبرها عوض عما فاته من لذة وسرور فنراه

يقول: (١)

خُذُوا مِنَ العِيشِ فالأعمارِ فانيةً والدهرُ مُنْصَرِفٌ والعِيشُ مُنْقَرِضُ
في حامِلِ الكأسِ من بدرِ الدُّجَى خلف وفي المِدامَةِ من شمسِ الضُّحَى عِوضُ
كأن نجمِ الثريا كَفُّ ذِي كَرَمِ مَبْسُوطَةٌ للعِطايَا ليس تَنْقَبِضُ

(٣) الديوان: ٣٤.

(١) الديوان: ١١٠.

ومن وصف الخمر أيضاً عند أبي الفرج وصفها بأنها معتقة وأنها عريقة الأنساب والشيم
وأنها موجودة قبل خلق الناس، ثم يتغنى أبو الفرج في وصف الخمر، وأنها كاملة الفضائل وأن
كثرة الوصف فيها لا يصل إلى وصفها فهي موجودة قبل نور الشمس وقبل خلق الصبح
والظلم وأن اسمها السلاف كونها من سالف الأمم فنراه يقول: (٢)

وعريقة الأنساب والشيم مَوْجُودَةٌ والخَلْقُ في العَدَمِ
قَدَمْتُ فلا تُعزِي إلى حَدَثٍ إلا إِذَا عُرِيَتْ إلى الهَرَمِ
هل آدمُ الكرمِ المولّدِ في الد نيا وحوّا الخمر في القَدَمِ
كَمَلْتُ فضائلها وقصّر عن أوصافِها الإغراقُ في الكلمِ
ظهرت ونورُ الشمسِ في فلكٍ من قبل خَلْقِ الصُّبْحِ والظُّلْمِ
فانهلَّ جوهَرُها بمُنْسَكٍ لم يُعْتَصِرَ بيدٍ ولا قَدَمِ
واشتقَّ معنى اسمِ السُّلافِ لها من كوْنِها في سالفِ الأُممِ
فكأنَّها في صَفْوِها خُلِقِي وكأنَّها في عِتْقِها كرمي

ومما لاشك فيه أن البيئة لها تأثير عظيم على أمزجة الشعراء ومشاعرهم خاصة وقد
أسبغت عليها الطبيعة حلل الجمال ومظاهر البهاء، والبيغاء قد كلف بالطبيعة ومظاهرها، فهي
ملهمته الأولى ومن يقرأ ديوانه يجد صلة قوية بينه وبين مظاهر الطبيعة بصورة عامة، فلم يقف
في وصفه على مظاهر الطبيعة الصامته من وصف الرياض والزهور، والبساتين، والجداول، وإنما
وصف كذلك الطبيعة المتحركة، وفتن بها، فهاهو يصف الثعلب فيقول: (١)

وأعفر المسك تلقاه فتحسبه من أدكنِ الخَزِّرِّ مَخْبُوءٍ بِخَيْفَانِ
كأنَّ أذنيه في حُسنِ انتصابها إذا هما انتصبا للحِسِّ رُجَّانَ

(١) المصدر السابق: ١٥٢.

(٢) الديوان: ١٦١.

يَسْرِي وَيَتَّبَعُهُ مِنْ خَلْفِهِ ذَنْبٌ كَأَنَّهُ حِينَ يَبْدُو ثَعْلَبٌ ثَانِي
فَلَا يَشْكُ الَّذِي بِالْبُعْدِ يَبْصُرُهُ فَرْدًا بَأَنَّهُمَا فِي الْخَلْقَةِ اثْنَانِ لَمْ يَتْرِكْ (الْبِغَاءُ)

شيئاً وقعت عينه عليه إلا وصفه، ومن بعض دُرره هذه، قوله في وصف اليؤيؤ: (٢)

وَيُؤْيِؤُ أَوْحَى مِنَ الْقَضَاءِ
مُتَمِّعِ الصُّورَةِ وَالْأَعْضَاءِ
ذِي سُفْعَةٍ فِي خَدِهِ بِيضَاءِ
مُخْبِرَةٍ عَنْ هَمَّةٍ بِيضَاءِ
وَمَقْلَةٍ صَفَّتْ مِنَ الْأَقْدَاءِ

هذه الأبيات ترسم لنا صورة الحياة في تلك البيئة التي تتمثل بكثرة أنواع الصقور.

" وليس من شك في أن المجتمع الذي يعيشه الشاعر يمكن أن يكون بالقياس إليه مصدر إلهام ووحى لا ينضب، وليس من شك كذلك في أن المجتمع بكل ما يخوضه من معارك ونضال وكل ما يتصل به من قضايا سياسية واقتصادية تأثيره في الكتاب والشعراء، وهذه المسألة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها" (١)

بالإضافة إلى ما سبق نستطيع أن نقول إن التطور الحضاري الذي أصاب الحياة في القرن الرابع الهجري من أهم الدوافع الاجتماعية التي كان لها أثر كبير في معاني الشعر، عند شعراء ذلك القرن، حيث وصفوا الآلات والأدوات التي يستخدمها الناس في هذا العصر سواء آلات

(٢) المصدر السابق: ٣٨.

(١) قضايا النقد الأدبي، زكي العشماوي: ٢٣.

(٢) الديوان: ٤٠٠.

الصيد أو آلات اللهو والغناء أو أدوات لطهي الطعام، والكانون الذي يوقد فيه النار، ووصف

البرك التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، فهاهو شاعرنا يقول في وصف

بركة ماء: (٢)

وقوراء كالفلك المستدير تروقُ العيون بالآلائها حبتها البحارُ بأُمواجهها
وسحبُ السماء بأنوائها
كأنَّ تدفقَ تيارها يداك تفيضُ بُنعمائها
وجُودك أغزرُ من جريها وخلقك أعذبُ من مائها

فهو يصف هذه البركة بأنها مستديرة الشكل كالفلك المستدير، وهي تبهج العيون بمنظرها

الخلاب كما أن البحار أعطتها من أمواجهها وكذلك السحب أعطتها من أنوائها فهي متلاحمة

الأمواج كالبحار نقية الماء كماء المطر.

ومن وصف الجوانب الاجتماعية عند أبي الفرج أيضاً وصفه للكانون الذي يوقد فيه النار

فراه يقول: (١)

والتَّهَبَتْ نارُنا فَمَنْظَرُها يَغْنِيكَ عن كلِّ منظرٍ عَجِبِ إذا رَمَتْ بالشَّرارِ
واضْطَرَمَتْ على دُرَاها مطارفُ اللُّهْبِ
رَأَيْتَ ياقوتةَ مشبِكة تطيرُ منها قُرْاضةُ الذَّهَبِ

(١) الديوان : ٥٠٠ .

فالشاعر هنا يصف الكانون الذي تلتهب فيه النار، وان منظره لعجيب حيث الشرار المتطاير منه عند اضطرام النار، وإن هذا اللهب مثل المطارف وهي الأردية المصنوعة من الخز، فهذه النار و لهيها مثل الياقوتة المشبكة التي تشبه قراضة الذهب.

ومن الأدوات التي وصفها البغاء في شعره وصفه لشبكة العصافير حيث قال أنها شبكة شفافة حين توضع على التراب كأنها حلة من الزرد، ثم يصفها كأنها درع إلا أنه ليس فيها مسامير ولكنها معروفة بكثرة العقد، وهي كذلك كالأعين المفتحة، وكزخرف الدنيا وهذا الزخرف كالسرور المشوب بالنكد، فنراه يقول: (٢)

رُقْرَاقَةٌ فِي السَّرَابِ تَحْسَبُهَا عَلَى الثَّرَى حُلَّةٌ مِنَ الزَّرْدِ
كَالدَّرْعِ لَكِنهَا مَعْوِضَةٌ عَنِ الْمَسَامِيرِ كَثْرَةَ الْعُقَدِ
سَائِرُهَا أَعْيُنٌ مُفْتَحَةٌ لَا تَرْتَضِي نِسْبَةً إِلَى جَسَدِ
كَأَنَّهَا فِي غُرُورِهَا زَخْرَفِ الدِّ نِيَا الْمَشُوبِ السَّرُورِ بِالنَّكْدِ

كان للازدهار الفكري، والنشاط العقلي، والرقى الحضاري أثر كبير في توجيه أذهان الشعراء إلى أغراض شعرية متعددة تدل على حياة الترف في ذلك المجتمع.

يقول البغاء في وصف الاضطراب (١)

وَمُسْتَدِيرٍ مَعْجَمِ التَّقْسِيمِ
مُنْتَسِبِ الْأَشْكَالِ وَالرُّسْمِ
دَبَّرَهُ فِكْرُ امْرِئٍ حَكِيمِ
فَصَاغَهُ فِي صِعْرِ التَّجْسِيمِ

(٢) المصدر السابق: ٧٦.

(١) الديوان: ١٥١.

مُسَاوِيًا لِلْفَلَكَ الْعَظِيمِ

مَقْتَطَعًا لِسَائِرِ النُّجُومِ

ومن الآلات التي وصفها أبو الفرج البغاء السبطانة وهي إحدى آلات الصيد، وهذه

الآلة تتخذ من خشبة مستطيلة كالرمح، مجوفة الداخل، يجعل الصائد بندقة من الطين صغيرة

في فيه وينفخ بها بجدة فتصيب الطير فترميه، وهي كثيرة الإصابة. فنراه يصفها فيقول: (٢)

وَجَوْفَاءَ حَامِلَةٍ تَهْتَدِي إِلَى كُلِّ قَلْبٍ مَقْرُوحِهِ

مُقَوِّمَةِ الْقَدِّ مَمْشُوقَةٍ مُهْفَهْفَةِ الْجِسْمِ مَمْسُوحِهِ مُثَقِّفَةِ فَمِّهَا عَيْنُهَا تُبَشِّرُ

قَلْبِي بِتَصْحِيحِهِ

فَإِنْ هِيَ وَالْجَارِحُ اسْتُنْهَضَا إِلَى الصَّيْدِ عَاقَتُهُ عَنِ رِيحِهِ

إِذَا الْمَرْءُ أَوْدَعَهَا سِرَّهُ لُتْخَفِيهِ بَاحْتِ بِتَصْرِيحِهِ

مَوَاتٌ تَعِيشُ إِذَا مَا أَعَادَ لَهَا النَّافِخُ الرُّوحَ مِنْ رُوحِهِ

هِيَ السَّبْطَانَةُ فِي شَكْلِهَا فِي الْقَلْبِ جَدٌّ تَبَارِيحِهِ

تُحْطُّ أبا الفَرْخِ عَنْ وَكْرِهِ وَتَسْتَنْزِلُ الطَّيْرَ مِنْ لُوحِهِ

فلقد وصف أبو الفرج السبطانة بأنها جوفاء ولكنها تحمل الهلاك بداخلها، ثم يصفها

بأنها مثل القدّ ممشوقة ومهفهفة الجسم كالفتاة، وهي إن أودعها الصائد البندقة وأخفاها فيها

أظهرت هذا السر بخروجها إلى صيدها.

ومن الأوصاف التي نظم فيها أبو الفرج وصفه تمثال سبع حيث يظهر هذا السبع والماء

يخرج من فيه كأن روحه هي التي تخرج ولكنه جسم بدون روح فيقول: (١)

وَضِيْعَمٍ فِي ذَائِلٍ يَلُوحُ

(١) المصدر السابق: ٦٥.

(٢) الديوان: ٦٢.

مساوِرٍ تسيلُ منه الروحُ
جِسْمٌ ولكن ليس فيه روحُ

ولقد احتوت أشعار البغاء على العديد من الأبيات التي تعكس لنا مظاهر الحياة المترفة في ذلك العصر، ففي المجتمع الحمداني، كان الأمراء الحمدانيين هم الحكام في ذلك الوقت وكان سيف الدولة يستعين بهم في الحكم، وقد أعطى كل منهم ولاية فإنطاكية لأبي العشائر، وحمص لأبي تغلب، ومنبج لأبي فراس، وقد تفنن هؤلاء الحكام في بناء القصور الفخمة التي خلدها الشعراء في شعرهم وكان أشهر تلك القصور جميعاً قصر الحلبة على ضفاف نهر قويق الصغير الذي يشق حلب ويروي بساكنها ومغانيتها، وقد أجمع المؤرخون على عظمتها وفخامته.^(٢)

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة " وكانت طبقة الأمراء التي مر ذكرها تقتني القصور في الولايات التي يحكونها وفي نفسها، تحيط بهم النعمة أينما حلوا ، ولعل أشهر قصور هؤلاء الأمراء في غير حلب قصور الأمير الشاعر أبي فراس في منبج والتي كان منها "البديع" و"المستجاب" و"المصلى" ولقد ردد ذكر بعضها وصور حنينه إليها حينما كان أسيراً في بلاد الروم في قوله :

قِفْ في رُبُوع "المستجا ب وناذِ أكناف "المصلى"
فالجوسقِ الميمونِ فالسد قيا بها فالنهرِ أعلى تلك المنازلُ والملا عب لا
أراها الله محلاً
أوطنتها زمن الصِّبا وجعلت مَنبجَ لي محلاً
حيث التفت رأيت ما ءء سابحاً وسكنت ظلاً

^(٢) سيف الدولة الحمداني ، د. مصطفى الشكعة : ١٥٦.

تر دار وادي "عَيْنِ قَا
وتحلُّ بالجسر الجنا
والماء يفصل بين زهـ
كبساط وشيِّ جَرَّدَتْ
صِرَّ" منزلاً رحباً مُطلاً
نُ وتسكن الحصن المعلى
ر الروض في الشطين فصلا
أيدي القُيون عليه نَصلاً

وهكذا نلاحظ أن أبا فراس كان يملك في منبع مجموعة من القصور والدور الجميلة ذات

البساتين النظرة التي تجري فيها الجداول الرقاقة وترصعها الخمائل والورود".^(١)

ومن الأوصاف التي كثرت في شعر البيغاء وصفه لبركة ماء ملئت وجعل فوقها ورود وبهار

وشقائق غطت أكثر الماء فيقول:^(٢)

خجل الورد من جوار البهار
وحكى الماء فيهما أحمر اليا
جُمعاً بالكمال في بركةٍ تُمتد
أضرمَ الماء بالشقيق بها النا
فوجدنا أخلاق سيِّدنا الزهر
ظَلَّتْ منه ومن نداماه للأز
فمشى بأحمرار في اصفرار
قوت حُسناً مُرَّصعاً بنضار
عُ حُسناً نواظر الحُضَّارِ
ر وعهدي بالماء ضدَّ النار
ذكاء تُربى على الأزهار
س نديمَ الشمس والأقمار

فلاحظ هنا أن الورد قد خجل عندما جاور البهار على هذه البركة حيث جُمع الكمال

على هذه البركة من حسن وجمال وأن الجمع بين الأحمر والأصفر جعل المنظر يضطرم مثل

اشتعال النار.

ومن الأوصاف التي كانت في بيئته والتي قام بوصفه قوله:^(٣)

لنا روضةٌ في الدار صيغٌ لزهراها
قلائدٌ من حمل الندى وشُنوفُ

^(١) سيف الدولة الحمداني: ١٥٩، ١٥٨.

^(٢) الديوان: ٩٠.

^(٣) الديوان: ١١٥.

يطيف بنا منها إذا ما تنفستُ نسيماً كعقل الخالديّ ضعيفُ

فهو يصف روضة كانت في داره فيقول أنها كانت ممتلئة بالأزهار وكان نسيماً الجميل الذي نتنفسه يطيف بنا.

ويشير الدكتور أحمد الشايب في كتابه إلى أهم العوامل المؤثرة في حياة الأديب فيقول: "من هذه العوامل المكان وهو الإقليم الذي يعيش فيه الشعب عيش قرار واستيطان أو يضطرب بين حدوده، فتتأثر حياته الحسية والمعنوية بطبيعة هذا الإقليم وخواصه فإذا ما عبر الأدب عن هذه الحياة كان فيه طبيعتها وأحوالها الاجتماعية وأثارها في نفوس الأفراد ومن هنا اختلفت الآداب باختلاف الأقاليم، فإذا انتقل الشعب إلى بيئة أخرى تخالف بيئته الأولى وقضى فيها مدة كافية أو نشأ معه جيل جديد تربى في ظل هذا المكان الجديد، تغير كثير من نظم حياته وملابسها فأخذ في تصويرها بأدب آخر يختلف عن السابق".^(١)

أما الطبقة الثانية هي طبقة العامة وتشمل أغلبية أفراد الشعب ، الذين يفتقرون إلى لقمة العيش، ويعانون من الموت الجماعي بسبب المجاعات الكثيرة، وموجات الغلاء المتوالية، وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكثير من تلك المجاعات، التي فتكت بالناس^(٢)، وساعدت على انتشار الفتن، وحركات التمرد^(٣) التي تتعدى بغداد وتشمل مدن أخرى.

^(١) أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب : ٨٤٨٣ .

^(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير : ١٠٢٩٥/٩ .

^(٣) المصدر السابق ، ذكر ابن الأثير الكثير من أخبار الفتن والحوادث في الجزء الثامن حوادث سنوات (٦٣٠٦-٣٢٤٣١٥٣٠٦) .

ففي سنة ٣٧٧هـ "حدثت فتنه شديدة بين الديلم والعامّة بمدينة الموصل قتل فيها

مقتلة عظيمة، ثم أصلح الحال بين الطائفتين" (٤).

وهاهو مسكويه يصف إحدى تلك المجاعات التي حدثت سنة ٣٣٤هـ بقوله: "وفي هذه

السنة أفرط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة وأكل الناس الموتى والحشيش والميت والجيف

... وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهور الطريق، وهو تالف ضراً، فيصيح: الجوع،

الجوع إلى أن يسقط ويموت" (٥).

وأمام هذا الضيق، وتلك المجاعات، وانتشار الفقر والبؤس، وتعرض الناس للظلم والقهر،

وفقدان الأمن، أصبحت علاقة الأفراد بعضهم مع بعض تقوم على الخداع والمكر، فكثير

للصوص وقطاع الطرق والعيارين الذين افسدوا وعبثوا بالأمن.

ففي سنة ٣٣٢هـ استطاع ابن حمدي، وهو لص ظهر ببغداد على رأس جماعة من

أصحابه، أن ينهبوا أموال أهلها "كثرت الكبسات من اللصوص بالليل والنهار من أصحاب

ابن حمدي، وتحارس الناس بالبيوقات وعظم أمر ابن حمدي" (١).

ولا شك أن للجانب الاجتماعي والاقتصادي أثراً عميقاً في تكوين نفسية الشاعر وفي

تحديد ملامح حياته واتجاهاته الأدبية، فانطلقت ألسنة الشعراء بآيات رائعة تصور تلك المعاناة

(٤) الكامل في التاريخ: ٥٧/٩.

(٥) تجارب الأمم، مسكويه: ٩٥/٢.

(١) الكامل في التاريخ: ٤١٧/٨.

(٢) الديوان: ١١٤.

والحرمان من رفاهية الحياة ولذة العيش، فهاهو البيغاء يصف الأزمات التي لحقت به فيقول

شاكياً من الفاقة وشدة الحاجة: (٢)

كم كُرْبَةٍ ضاق صدري عن تحملها فملت عن جَلدي فيها إلى الجزع
ثم استكنتُ فأدّنتني إلى فرجٍ لم يجر بالظنِّ في يأسٍ ولا طمع

ومن المظاهر الاجتماعية التي تعرض لها البيغاء في حياته مشكلة الفقر، فقد عاش شاعرنا في

بداية حياته ، في ضنك من العيش ثم بدأت أحواله تتغير وتتحول بعد وصوله إلى حلب ،

وتقريبه من بلاط سيف الدولة ، فهاهو البيغاء في بعض أشعاره يشكر سيف الدولة على

عطاياه الجزيلة فيقول: (١)

فصرتُ أمسك عن أوصاف نِعْمَتِهِ عجزاً وينطق من آثارها حالي
لما تحصّنتُ من دهري بمَعْقِلُهُ سمت بجمالنه أَلحاظ إقبالي
وواصلتني صلواتٌ منه رُحْتُ بها أختالُ ما بين عزِّ الجاهِ والمالِ
فليَنظُرِ الدَّهْرُ عُقْبِي ما صرتُ له إذ كان من بعضِ حُسَّادي وعُدَّالي
ألم أكِدهُ بَحْسَنِ الانتظارِ إلى أن صنت حظي عن حل وترحالِ
بلغت مالا يجوزُ السؤالِ نائله ولا يدافع عن فضل وإفضالِ
يعارضاً لم أشمّ مذ كنت بارقهُ إلا رويت بغيثٍ منه هطالِ (٢)
رُوَيْدٌ جودك قد ضاقت به هَمَمِي وردَّ عني برغمِ الدَّهرِ إقلالِ
لم يَبْقَ لي أملٌ أرجو نداك به دهري لأنك قد أفنيت آمالي

(١) الديوان: ١٣٣.

(٢) الهطل: تتابع المطر ، يقال هطلت السماء تهطل هطلاً وهطلاناً ، ينظر القاموس المحيط ، (مادة : هطل) .

(٣) الديوان: ١٠٥.

ومن خلال هذه الأبيات يتضح لنا أن الحياة ابتسمت للبيغاء بعد اتصاله بسيف الدولة، فأعطته بغير حساب، فعاش حياة هائلة، تمتع فيها برغد العيش، فجاء شعره عاكساً لتلك الحياة.

ولاشك أنه في كل عصر من العصور، وفي أي مجتمع من المجتمعات، تنهار فيه القيم الأخلاقية، وتسوده القيم الشاذة، لا بد من وجود طبقة واعية من الشعراء ترسم لنا لوحات دقيقة لمظاهر تلك الحياة بصورة عامة.

يقول البيغاء في وصف المرأة التي تحمل رمزاً لحياته: (٣)

كلُّ فضلٍ لكلِّ نوعٍ وِجنسٍ دون فضلِ المرأةِ من غيرِ لبسٍ
لَطُفَتْ رِقَّةً وفاضتْ صَفَاءً فهي كالماءِ في عيانٍ ولَمَسِ
واستدارتْ بباهرِ النورِ حتى ظنَّها الناظرونَ قطعةَ شَمْسِ

يعلق الدكتور عبدالله باقازي على هذه الأبيات في كتابه فيقول: " تمثل المرأة ملمح

الاضطراب والاهتزاز في حياة الشاعر، على أن الإشارة إلى الشمس في الأبيات، وكذلك النور : " بياهر النور"، " قطعة شمس " يمثلها وميض الاستقرار، وانتعاش الحلم بهذا الشعور المضيء الذي ما يبرح يداعب هواجس الشاعر القلقة، ليضيئها، ويبدد شيئاً من اضطرابها وعدم استقرارها" (١).

سألت حال البيغاء في أواخر أيامه حتى أن داره نبت عنه وفر من عنده العبيد وباع كل ما يملك حتى فراشه الذي كان ينام عليه، وبليت ثيابه في آخر أيامه وتحول طعامه من أكل الأرز

(١) شعراء من العصر العباسي الثاني ، د. عبد الله باقازي : ٤٩٠ .

النقي إلى أكل الحشيش فهاهو يمدح عميد الجيوش الحسين بن أبي جعفر الذي استنابه بهاء

الدولة على العراق، فاستغاث به قائلاً: (٢)

سألت زماني بيمن استغيث فقال استغثت بعميد الجيوش
تبت بي داري وفر العبيد وأودت ثيابي وبعث فروشي
وكنت ألقب بالبغاء قديماً فقد مزق الدهر ريشي
وكان غذائي نقي الأرز فها أنا مقتنع بالحشيش

عمر البغاء طويلاً فقد عاش أكثر من ثمانين عاماً لذلك هو يشكو الزمان والدهر فيقول

:

صحبت الدهر في سهل وحزن وجرت الأمور وجرتني
فلم أر مُدُّ عرفت محل نفسي بلوغ غنى يساوي حمل من
ولم تتضمن الدنيا حظي منال مسرة إلا بحزن
حملت على السوابق ثقل همي وشاهدت العواقب صفو ذهني
وشمت بوارق الآمال دهرًا فلم أظفر على ظمًا بمزني
لم أركالجياد أصح وداً إذا عدل الودود إلى التظني
نكلتها عزائمًا فتكفي ونستدني الحظوظ بها فتدني
وهبت لمثل قطع الليل منها أغرر كمثل ضوء الصبح مني
وكنت بحيث ظن من اعترام وكان من المضاء بحيث ظني
وثالثاً ابن جد لا يرى أن يصاحب في تصرفه ابن وهن

ونلاحظ فيما تقدم من أشعار أن الشاعر يذم الدهر والزمان، ويعده السبب في كل بلاء،

ويرمز بذلك إلى المجتمع وما ساد فيه من قيم وأخلاق وعادات شاذة.

(٢) الديوان: ١٥.

(٣) المصدر السابق: ١٥٧.

وبذلك نستطيع أن نقول إن الدافع الاجتماعي عند البيغاء يتضح من خلال شعره المتمثل في تصويره لبيئته ومجتمعه، وخاصة مجتمع سيف الدولة الحمداني تصويراً صادقاً، فقد عُرف عنه أنه لا يسعى لشيء غير أن يحقق لنفسه حداً معقولاً من حياة الترف والرفاهية، فكان شعره هو السبيل لتحقيق هذه الحياة، لأن الظروف الاجتماعية المناسبة تساعد على الإبداع الأدبي، خاصة أن البيغاء أديب يتكسب ويتعيش بأدبه كمعظم شعراء عصره وذلك نتيجة لظروف الحياة الصعبة، فهو يسعى للغنى، ليتمكن من الحصول على العيش الطيب، وحتى تتوفر له وسائل المتعة من الشراب وغيرها.

المبحث الثالث

الدوافع الدينية

الذي يقلب النظر في ديوان أبي الفرج البغاء يلحظ أن الدافع الديني في شعره قليل مقارنة بالدافع الاجتماعي، حيث يغلب على شاعرنا ذكر الخمر ومجالسها والندماء، وكذلك الوصف من وصف للطبيعة والأزهار والبرك وآلات اللهو والصيد، فشاعرنا مقل في الجانب الديني، وتظهر بعض جوانب هذه النزعة الدينية في شعر الحرب.

حيث "غلب على الحروب البيزنطية في القرن العاشر الطابع الديني، وهذه الروح الدينية أثارت القواد والجنود على السواء، فاعتبرهم المعاصرون حماة المسيح ورعاية العذراء كانوا يقاتلون، وإنهم على استعداد لأن يخوضوا المعارك، وقد حملوا راياتهم التي تزينها صور القديسين المقاتلين"^(١).

وسيف الدولة أحد الأبطال الشجعان، الذين لا يهابون الموت فقد دافع دفاعاً قوياً عن الدولة الإسلامية، وحمى الإسلام تجاه سيل الروم العارم، فقد كان بطلاً مظفراً، وقائداً موهوباً،

(١) الدولة البيزنطية، الباز العيني: ٣٧٠.

ومحارباً شجاعاً، تفرغ للروم البيزنطيين، وألقى الرعب فيهم، وأنزل الهزيمة بين صفوفهم، فهو "المحارب الوحيد الأعظم السامي الذي أعلن الحرب المقدسة على النصرانية".^(٢) " ولم يظفر أحد من الحمدانيين بشيء من الفروسية والأعمال العظيمة إلا سيف الدولة"^(٣).

لذلك خلد الكثير من الشعراء نصر سيف الدولة في كثير من المواقع بشعر حماسي بليغ، ربطوا فيه بين الجهاد والدين، فهاهو المتني يصور بطولة وانتصار سيف الدولة الذائد عن حوزة الدين رغبة في تحقيق رضوان الله تعالى بأنه انتصار ليس مقصوراً على الأعداء، بل هو أعظم وأنبل، لأنه انتصار للتوحيد وأهله وهزيمة للشرك وأهله فيقول:^(١)

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم

ومما لا شك فيه أن معظم شعر البغاء كذلك يدور حول سيف الدولة وانتصاراته، لأنه كان من أقرب الأدباء إلى قلبه كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة : "كان أبو الفرج البغاء من أقرب الأدباء إلى قلب سيف الدولة، بل إلى الأمراء الحمدانيين بصفة عامة، سواء من كان منهم في حلب أو من عاش منهم في الموصل"^(٢) لذلك خلد شعر البغاء ذكر سيف الدولة وإمارته على مر الزمان.

فالدافع الديني عند البغاء يظهر في تصويره لبطولة سيف الدولة المجاهد، الذي يحمي ثغور المسلمين من قبل الروم، الذائد عن حوزة الدين رغبة في رضوان الله عز وجل، ونصرة لدين الإسلام وحتى يحقق لنفسه العزة لأن العزة لا تتحقق إلا بدفع الأعداء عن الدين والبلاد.

^(١) شعر الحرب ، زكي المحاسني : ٢٤٧، ٢٤٦ .

^(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متر : ٢٩/١ .

^(٣) شرح ديوان المتني ، الشيخ عبد الرحمن البرقوقي : ١٣٨/٤ .

^(٤) سيف الدولة الحمداني ، د. مصطفى الشكعة : ٢٤٤ .

حيث يؤكد في أشعاره على قيمة القتال والجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، فهاهو يمدح

سيف الدولة ويبين دوره في محاربة أعداء الله ، وافتدائه الأسرى من بين أيديهم فيقول: (٣)

ما المال إلا ما أفادَ ثناءً ما العزُّ إلا ما ثنى الأعداءُ
شحَّت على الدنيا الملوكُ وعاقها مَنْ لم يُطع في حفظها الأهواءُ
باع الذي يَفنى بما أبقى له ذكراً إذا دجَّت الخُطوبُ أضواءُ
فبداية القصيدَة تنم عن حكمة صائبة وهي أن المال الوافر لا يغني صاحبه شيئاً إلا إذا
أنفقه الإنسان في موضعه المناسب الذي يستحق عليه الشكر والثناء، وكذلك لا يكون
الإنسان عزيزاً إلا إذا أحدث نكاية في الأعداء، وسيف الدولة باع كل ما يملك من المال حتى
يحقق رفعة هذا الدين، ثم وصفه في نفس القصيدَة بطهارة الخلق فقال:

وطهارةُ الخُلُق الذي لو لم يكن عَرَضاً من الأعراض كان الماءُ
ورجاحةُ الحلم الذي لو حلَّ بال هضباتٍ من رَضوى ثناه هباءُ
بَدَرَ تحققت البدور بأنها ليست وإن كَمُلْت له أكفاءُ
ألقي إليه الدهرُ صَعَبَ قِيَادِهِ فاستخدمَ الأيامَ فيما استاء

ومن تأثره بالمنطلقات الدينية وصفه لسيف الدولة بأنه حارس الإسلام وحاميه من الريب

والشك فهاهو يقول: (١)

يا كاليِّ الإسلامِ يَحْرُسُهُ من أن يخالِجَ حَقُّهُ الرِّيبُ
إن كُنْتَ ترضى أن يطيعك ما سَجَدُوا له سجدتْ لك الصُّلْبُ

(٣) الديوان: ٣٤.

(١) الديوان: ٤١.

وهنا يوضح أبو الفرج أن سيف الدولة لا يرضى أن يسجد له أحد ، لأن السجود لله وحده، فإن رضي بذلك ستسجد له الصلب التي يسجد لها النصارى .

كما تظهر بعض جوانب هذه النزعة الدينية حيث يوجه الخطاب إلى الأمير الحمداني الذي حمى الدين ودافع عنه مراراً وتكراراً بينما غيره سادر في الغي والضلال فيقول: (٢)

شكرَ الإله من اهتمامك بالهدى ما زادَ باهرَ نوره استعلاءً
راعيتَه وسواك في سنّة الهوى ما ذادَ عنه لسيفك الأعداءَ
وفديت من أسر العدو معاشرًا لولاك ما عرفوا الزمانَ فداءً

ومن تأثره بالدافع الديني مدحه لسيف الدولة بأنه ينصر دين الله ومن أجل ذلك فالله ناصره فنراه يقول: (١)

وكيف يُفهرُّ مَنْ لله ينصر من دون الوَرَى وبعزّ الله يَعْتَصِمُ
إن سار سار لواءَ الحمدِ يقدمه أو حلّ به الإقبال و الكرمُ
يلقى العديّ بجيوشٍ لا يقاومها كُنْزُ العساكرِ إلا أنّها همَم

وقد بدأ التوجه الديني جلياً في مدح البغاء لسيف الدولة، فقد مدحه بأنه من أهل الدين والهدى والتقوى لأنه ناصر الدين وحافظ على وصايا النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، حيث يقول: (٢)

فلا انتزع الله الهدى عز بأسه ولا أنتزع الله الوغى عزّ نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعى سوام الدين توفير شكره

(١) المصدر السابق: ٢٤.

(٢) الديوان: ١٤١.

(٣) المصدر السابق: ٩٨.

فما تدرك المدّاح أدنى حقوقه بإغراق منظوم الكلام ونشره

فهو يؤكّد على هذه المعاني النبيلة التي يفخر بها كل عربي ، وتعزز بها العروبة، كما يمدح كرمه وعطاءه، فهو يبذل المال الوفير في طرق الخير لينال الأجر في الآخرة، ويذكر فضله على الإسلام وأهله، وقد ربط بين الأخلاق والدين، فيقول: (٣)

كأنما أدّخر الرحمنُ معظمة دون الملوك لسيفِ الدولةِ البطلِ
راه أكرمهم في الخير إن ذُكروا وصبّاً وأفضلهم في القولِ والعملِ
فهزّه وظبا الأسيافِ مُغمدةً واستلّه غيرَ منسوبٍ إلى القلِّ
حتى غدا الدينُ من بعد العُبوسِ به جدلانَ يرفلُ من نُعماه في حُلِّ (١)
فلو تكلم في حالٍ وقيل له من خيرُ هذا الورى ؟ لم يسمّ غير علي

كما استطاع الشعراء أن يبرزوا في أشعارهم بعض الأخلاق الكريمة والملامح الإنسانية لرجال القيادة والحكم، فهاهو سيف الدولة يقابل القسوة والعنف من القبائل العربية التي بدأت تعيش الفساد في أرض المملكة بالتسامح والإكرام والإحسان لحريمهم وأسراهم، وهذا التصرف يدل على الأخلاق الكريمة التي يتصف بها سيف الدولة، والبيغاء من الشعراء الذين وصفوا حلمه وعفوه عن بعض القبائل وخاصة بني كلاب فيقول: (٢)

إذا استلّك الجانون أغمدك الحلمُ وإن كَفَكَ الإبقاءُ أهضَكَ العزمُ
ومن لم يؤدّبهُ لفرطِ عُتُوهِ إذا ما جنى الإِصافُ أدّبهُ الظلمُ
إذا العُربُ لم تجزِ اصطناعِ ملوكها بشُكْرِ تمادت في سياستها العُجمُ

(٣) المصدر السابق: ١٣٢.

(١) الحلل : جمع حلة ، والحلة إزار ورداء بورد وغيره ، ولا تكون حلة إلا من ثوبين ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : حلل) .

(٢) الديوان : ١٤٠.

أَعِدَّهَا إِلَى عَادَاتِ عَفْوِكَ مُحْسِنًا كَمَا عَوَّدْتَهَا قَبْلَ آبَاؤِكَ الشُّمُّ
فَإِنْ ضَاقَ عَنْهَا الْعُذْرُ عِنْدَكَ فِي الَّذِي جَنَّتُهُ فَمَا ضَاقَ التَّفْضِيلُ وَالْحِلْمُ

ويشير الدكتور مصطفى الشكعة إلى أخلاقه الكريمة في معاملة الضعفاء من الأسرى وإكرامهم وتكريمهم فيقول: " أن سيف الدولة كما كان كريماً في معاملة جنود الإخشيديين في موقعة الدستن فإنه أيضاً لم يخرج عن طبيعته في معاملة القبائل بالحسنى بعد أن تم تأديبها لأنه كان رقيقاً بقومه من العرب ٠٠٠ وعلى كل حال فإن هذه القبائل لم تكن تشكل بثورتها تلك خطراً مباشراً على المملكة اللهم إلا أن تطمع الطامعين في الدولة وتعوق تقدمها الحربي والعمرياني" (١).

يعد وصف المعارك الحربية في شعر البغاء من أكثر الموضوعات التي تهتم بتصوير مآثر سيف الدولة ، فقد صور جهاده وحره مع الروم ، كما صور كذلك حره مع القبائل العربية التي اضطر لمحاربتها ، وعد ذلك صراعاً دينياً ، حيث صور حره مع الروم بأنه حرب بين الإسلام والكفر ، وانتصار لدين الله العزيز ، ومن هذا قوله: (٢)

وهل يترك التأيدُ خدمةَ عسكِرٍ وإقدامُ سيفِ الدولةِ العضبِ قائده؟
عفت عن سَمْنَدُو (٣) خيله وتنجرت بخرشنةٍ ما قدمته مواعدهُ
وزارت به مواطن الكُفْرِ حيث لا يشاهد إلا بالرماح مشاهدُه

(١) سيف الدولة الحمداني: ١٤٩٠٤٨.

(٢) الديوان: ٨١.

(٣) سمندو: بلد وسط الروم ، ينظر القاموس المحيط ، (مادة: سمد).

كانت هذه الحروب مجالاً خصباً للشعر العربي، فقد صور الشعراء في بعض أشعارهم صوراً من الواقع السياسي الذي مرت به البلاد في ظل سيف الدولة كما وصفوا معظم المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم.

تحدث ابن سلام الجمحي في طبقاته عن بعض العوامل التي تدفع الشعراء إلى كثرة القول، وكان في مقدمتها الحروب فهي تثير العواطف وتحيج الانفعالات فيقول: "وبالطائف شعراء وليسوا بالكثير، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة، ولم يجاربوا، وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف"^(١)

ويرد الجاحظ على ذلك فيقول: "وبنو حنيفة مع كثرة عددهم وشدة أعدائهم ٠٠٠ ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم"^(٢).

ويعلق الدكتور إحسان عباس على ذلك فيقول: "إذن ليس لكثرة الحرب والوقائع دخل في كثرة الشعر"^(٣) ومع ذلك فلا يشك أحد في تأثير الحروب على الأدب شعراً ونثراً.

ومن تأثر أبي الفرج البغاء بالقيم الإسلامية محاربتة لخلق ذميم ألا وهو البخل الذي ذمه الإسلام فيقول في ذم هذا الخلق:^(٤)

وشاعَ البخلُ في الأشياءِ حتى يكادَ يشحُّ بالريحِ المهبوبِ
فكيف أحصُ باسمِ العيبِ شيئاً وأكثرَ ما تشاهدُهُ معيبِ

(١) طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي : ٢٥٩/١.

(٢) الحيوان ، الجاحظ : ٣٨٠/٤.

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس : ٨٤.

(٤) الديوان : ٤٣.

فلقد انتشر البخل بين الناس حتى أن الريح كادت تشح بالهبوب، وأصبح كل شيء في الدنيا معيباً حتى أننا لا نشاهد شيئاً إلا وبه العيب.

وحق حين يصف أبو الفرج البغاء الخمر ومجالسها لا يفوته أن يذكر بعض الألفاظ التي جاء بها الإسلام ألا وهي كلمة النفاق التي لم تكن موجودة قبل الإسلام فهاهو يقول في وصف شاربها وما تفعله به: (٥)

لا عيب فيه سوى إذاعته الـ سرّ الذي في حشاه محتجبُ
كأنما صاغه النِّفاق فما يخلص منه صدقٌ ولا كذبُ

فالذي يشرب الخمر يوصف بالنفاق لأنه لا يتمالك نفسه حتى يذيع ما في باطنه من الأسرار .

ويتمثل الدافع الديني عنده في مدح الصفات الشريفة والمكارم الفاضلة، فهاهو يتحدث عن عفافه وبعده عن الفواحش حتى ولو كان منفرداً بمحبوبته لأنه يرفض الدناءة وفعل المحرمات فيقول: (١)

سلو الصبابة هل خلوتُ بمن
أهوى مع الشوق إلا والعفافُ معي
وحافظي من دواعي الحُبِّ معرفتي
إني من المجد في مرأىٍ ومُسْتَمِعِ
تأبى الدناءة لي نفسٌ نفائسها
تسعى لغير الرضا بالريِّ والشبَعِ
وهمة ما أظن الحظَّ يُدركها
إلا وقد جاوزت في كلِّ مُمتنعِ
لا صاحبتي نفسٌ إن هممتُ لما
أرضى بها غمرات الموت لم تُطعِ
على جناب العُلا حليٍّ ومرتحلي
وفي حي المجد مصْطاني ومرتبعي

(٥) المصدر السابق: ٤٤.

(١) الديوان: ١١٥.

وما نضوتُ لباسَ الذلِّ عن أُملي حتى جعلتُ درعَ البأسِ مُدرعي
وكلِّ من لم تُؤدِّ به خلائقُهُ فإنه بعظاتي غيرُ مُنتَفِعِ

فأبو الفرج يطلب من الناس أن تسأل الصبابة عن عفافه وبعده عن الفواحش رغم أنه كان يخلو بمحبوبته ، حيث أن مجده العريق يراقبه ويستمتع له فهو يأبى الدنيئة ، ويرفض الفاحشة .

ومن مظاهر التأثير الديني لديه وصفه للعالم بأنها متاع زائل تخدع الناس بزخرفها

فيقول: (١)

حتام تخدعنا الدنيا بزخرفها ولا تحصّلنا منها على أربِ
نُسّرُ منها بُحني عواقبه همماً ونُحربُ والآجالُ في الطلبِ

فهاهي الدنيا تخدع الناس بما تتزين به كأنها امرأة جميلة ، ولكن الناس لا يستطيعون الحصول منها على مآربهم ورغباتهم فهم يفرحون بما يجنون من هذه الدنيا ولا يعلمون أن ثمارها الهم والنكد ، كما أنهم يهربون منها ولكن هيهات هيهات فالآجال تطلبهم ولو كانوا في بروج مشيدة .

ومن تأثره الديني أيضاً ذكره أن انتشار الشيب في شعر الإنسان يدل على قرب أجله ،

لأن الشيب أشد واعظاً للإنسان فيقول: (٢)

(١) الديوان: ٥٠ .

(٢) المصدر السابق: ٤٧ .

لا عذر بعد عذارٍ شابٍ أكثُرُهُ فالشيبُ أوَعظُ أَعذارٍ وإنذارٍ

ومن تأثره الديني ذكره الحكم التي وردت في ثنايا ديوانه التي تدل على بعد نظر الشاعر

في الأشياء ومن حكمه التي وردت موافقة للإسلام قوله: (٣)

وما شرفُ الإنسانِ إلا بنفسه وإن خَصَّةُ جدِّ شريفٍ ووالدُ
إذا كان كلَّ الناسِ أبناءُ آدمٍ فأفضَلُهم من فضَّلته المحامدُ

فالإنسان لا يشرف إلا بأفعاله وإن كان أجداده وآبائه من الشرفاء ، وبما أن كل الناس أبناء آدم وحواء فالأفضل من تسابق إلى المحامد ، ومنها التقوى والكرم وطيب النفس وكل هذه أخلاق إسلامية .

ومن الحكم التي تنم عن روح إسلامية أيضاً قوله: (١)

لا تُستَكُنْ لطوارقِ النوبِ والحقَ الخطوبِ بوجهٍ محتسبٍ
فدنوّ ما ترَجُّوه من فَرَجٍ يأتي بحسبِ تكاثفِ الكربِ
كم خائفٍ من هلكةٍ سبباً نالَ النجاةَ بذلك السببِ

فيطلب الشاعر من الإنسان ألا يضعف أمام المصائب وما تأتي به الأزمان من خطوب ، بل يجب على الإنسان أن يواجه هذه الخطوب بكل شجاعة وحزم، وأن لا يجرع من نوائب الدهر ومصائبه بالاستسلام لها، فكم من إنسان ظن هلاكه من مصيبة، وكانت هذه المصيبة من دواعي نجاته وخروجه من هذا الكرب العظيم الذي ألم به وأصابه بالنكد والحزن الشديد.

ومن حكمه الصائبة التي تدل على مدى فهمه الدقيق للأمور قوله: (٢)

(٣) المصدر السابق : ٧٠٠ .

(١) الديوان : ٥٠٠ .

وصلاحُ الأجسامِ سهلٌ ولكنْ في صلاحِ العقولِ يعي الطيب

فدواءُ الأجسامِ سهلٌ وفي متناولِ الطيب ، أما إذا كان المرضُ بالعقولِ فهنا يعجز الطيب

عن المعالجة .

ومن حكمه التي تتسم بعمق تفكيره قوله: (٣)

وما يدركُ العلياءَ إلا مهذبٌ يصاب على مقداره و يصيبُ
فلا تصطفِ الإخوانَ قبلِ اختبارهم فما كلَّ حلَّ تصطفيه نجيبُ

ومن الحكم التي تدل على عمق تجربته في أمور هذه الحياة ، وخبرته الدينية قوله: (١)

هي حالان شدةٌ ورحاءٌ ومجالانِ نعمةٌ وبلاءٌ
والفتى الحازمُ اللبيبُ إذا ما خانهُ الدهرُ لم يُخنهُ العزاءُ
وإذا ما الرجاءُ أُسقطَ بين الناسِ فالناسُ كلُّهمُ أكفاءُ

فالدنيا بين شيتين الشدة والرخاء، النعيم والشقاء، النعمة والبلاء، ولكن الإنسان العاقل

هو الذي يتعزى بما يصيبه وبما قدره الله له.

ومن حكمه أيضاً التي ملأت الدنيا وذاع صيتها قوله في التحذير منها وعدم الاغترار بها

فنراه يقول: (٢)

هي الدنيا تقولُ بملءِ فيها حذارِ حذارٍ من بطشي وفتكي
ولا يغركمُ حُسنُ ابتسامي فقولي مُضحكٌ والفعلُ مُبكي

(١) المصدر السابق: ٤٧.

(٢) المصدر السابق: ٤٢.

(٣) الديوان: ٣٣.

(٤) المصدر السابق: ١٢٤.

(٥) المصدر السابق: ٩١٠.

ومن تأثره الديني وتعلقه به دعوته إلى الصبر، والرضا بقضاء الله وقدره عند مواجهة الأزمات والمحن، فكل إنسان مهما جزع لا بد له من الصبر، فكل مصيبة تصيب الإنسان يأتي الله بما يلفها عليه، فهو صاحب القدرة المطلقة التي لا تتقيد بزمان أو مكان، فعلى الإنسان أن يشكر الله في كل أحواله، فهاهو يقول: (٣)

صبرت ولم أحمد على الصبرِ شيمتي لأن مآلي لو جزعتُ إلى الصبرِ
والله في أثنائه كلُّ مُلمّةٍ وإن ألمّت لطفٌ يحضُّ على الشكرِ
وكل فرج واليأس يحجب دونه أتاك به المقدور من حيث لا تدري ف
الدافع الديني يظهر بصورة واضحة في قدرته على تحمل ما نزل به، وثقته بعدالة الله، والصبر على النوازل، حتى يحقق له تعالى الفرج، وهاهو البغاء يطلب من الناس أن يتعدوا عن مذاهب الهمج الرعاع الحمقى وأن يتمسكوا بالصبر فهو الراحة والسرور فيقول: (١)

تنكّب مذهب الهمج وعُدّ بالصبر تبتهج
فإنّ مُظلمَ الأيا م محجوجٌ بلا حُجج
تسامحنا بلا شكر وتمتعنا بلا حرج
ولطف الله في إتيا نها فتح من اللجج

ويقول التنوخي: " وأنشدني أبو الفرج المخزومي المعروف بالبيغاء لنفسه " (٢)

كلُّ الأمورِ إلى مَنْ به تتمُّ الأمورُ
وأفرغَ إليه إذا لم يُجركَ عجزاً مجيئُ
وكلُّ صعبٍ عسيرٍ عليه سهلٌ يسيرُ

(١) الديوان: ٦١.

(٢) الفرج بعد الشدة ٥/٥٣، وينظر الديوان: ٨٨.

فهذه الأبيات تفوح منها رائحة الإيمان، والثقة بالله عز وجل، ونسب كل عمل وكل فضل

إليه، فلا ينتظر الجزاء إلا منه ولا يطلب الثواب الحسن إلا من رحمته وفضله سبحانه

وتعالى، الذي إليه تتم الأمور، وفي البيت الأخير يظهر تأثره بالقران الكريم في قوله تعالى

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} (٣)

كما نجد هذا المعنى في قوله: (١)

كم كُرْبَةٍ ضاق صدري عن تحملها
ثم استكنتُ فأدّنتني إلى فرجٍ
فملت عن جلددي فيها إلى الجزع
لم يجر بالظنّ في يأس ولا طمع

فيقول إن كثيراً من المصائب التي حلت بي وضاق صدري عن احتمالها، وكدت أن

أركن إلى الجزع منها بعد أن نفذ صبري، زالت وانقشعت عندما أراد الله ذلك.

فلاحظ مما سبق أن نفس البغاء مملوءة بالإيمان بقضاء الله وقدره والاستسلام له وحده،

لأن الفرج يأتي منه فهو اللطيف الخبير بعباده.

ويتمثل كذلك الملمح الديني في قوله: (٢)

فإن رأى لا أراه الله نائبةً
أن يجعل النجح لي باباً إليه وأن
من الزمان ورعاه من الغير
يخص حسن رائتي فيه الظفر

فهو يوجه دعائه إلى رجل قد ناصره وأيده من خلال الشعر بأن لا يريه الله أي مصيبة أو

نازلة من نوازل الزمان وأن يرعاه ويجعل التوفيق والفلاح طريقه.

(٣) سورة الشرح: ٥-٦ .

(١) الديوان: ١١٤ .

(٢) المصدر السابق: ٥٠ .

إذن " فالدين لا يشك أحد في سلطانه القوي في الآداب، وربما كان الباعث الأسبق على ابتكار الأناشيد الدينية التي رتلتها الجماعات البشرية في المعابد، وكثير من الديانات صحبة كتاب مقدس يعد مثلاً أديباً ممتازاً، فالقران معجزة الأدب العربي، والتوراة والإنجيل

يعدان في لغتهما من آيات البيان وللدين تأثيره على الأدب غير مباشر"^(١).

فمن مظاهر الدافع الديني في أشعار البغاء تلك المعاني التي يشع منها الإيمان، ويتخللها الرضاء بقضاء الله وقدره المتمثلة في حثه المجاهدين على القتال والدفاع عن الإسلام والمسلمين والتضحية بالمال والنفس في سبيل الله وتشجيع المقاتلين على طرد الأعداء من بلاد المسلمين وتطهير بلادهم منهم .

كما أن الألفاظ في بعض أشعاره تشير إلى ذلك الباعث الديني الذي يحوطه الإيمان ومنها، الرحمن والشكر والدعوة إلى الإصلاح والصلاح، والتخلق بالشمائل الكريمة والدعاء وغيرها من التعابير الدينية التي تؤكد ذلك.

والبغاء من خلال أشعاره يتضح لنا أنه لا يمثل أي قضية سياسية أو عقائدية بالرغم من شيوع ذلك في عصره وخاصة في بلاط سيف الدولة الحمداني، فالأسرة الحمدانية تنتمي إلى المذهب الشيعي، ثم أن سيف الدولة كان أيضاً شيعياً، ودليل ذلك أنه أمر سنة ٣٥٤ هـ بضرب دنانير قيمة كل منها ثلاثين ديناراً بمناسبة زواج أبنيه من كريمتي ناصر الدولة، وأبي تغلب من

(١) أصول النقد الأدبي: ٨٩٨٨.

(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ١٢٥.

كريمته، وقد كتب على أحد جانبي الدينار لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسن الحسين جبريل عليهم السلام^(٢).

ويقول أحمد أمين " فالخلفاء العباسيون ومن تبعهم سنيون يتعصبون للسنية ، والفاطميون

في مصر والشام والمغرب ، والحمدانيون في ديار ربيعة وبكر ومضر ، وبنو بويه في العراق

وغيرهم يتشيعون "^(١).

فالمدافع الديني والأخلاقي في شعر البيغاء يظهره لنا شاعراً مسلماً غير متعصب، ويبدو

ذلك واضحاً في دعوته إلى التمسك بالصبر ، وعدم الجزع من نوائب الدهر ومصائبه ، وعدم

الاستسلام لها ومقابلتها باحتساب الآجر عند الله تعالى، وأخذ العظات من تلك المحن

والنكبات والشعور بالتفاؤل والرضا دون السخط بقضاء الله وقدره .

ومن الأمثلة التي تدل على قلة تفقه البيغاء في الدين قوله :^(٢)

صَفَحْتُ لِهَذَا الدَّهْرِ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَعَدَدْتُ يَوْمَ الدَّيْرِ مِنْ حَسَنَاتِهِ

فقد نسب للدهر سيئات وهذا أمر مرفوض دينياً، ولقد ورد في الحديث القدسي قوله : "

لا تسبوا الدهر فأنا الدهر"^(٣)، ولكن أبا الفرج ينسب السيئات لهذا الدهر عندما وصف دير

عمر الزعفران.

(١) ظهر الإسلام ، أحمد أمين : ٥/٢ .

(٢) الديوان : ٥٧ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي . رواه مسلم برقم (٢٢٤٦) .

*

*

*

الفصل الثاني

الدراسة الموضوعية عند أبي الفرج البغاء

المبحث الأول : وصف الطبيعة ومظاهرها .

المبحث الثاني : الشعر السياسي والاجتماعي .

المبحث الثالث : شعر الغزل .

المبحث الأول

وصف الطبيعة ومظاهرها

اهتم شعراء القرن الرابع الهجري بالوصف اهتماماً بالغاً ، فهو من أشمل الأغراض الشعرية التي عرفت في الأدب العربي ، فوصفوا في أشعارهم كل ما رأته أعينهم ، أو ما دار في خيالهم ،

حتى تطورت مقدرتهم على التعبير والتصوير في ذلك القرن عما كانت عليه في القرون الماضية ، كما أنهم لم يقتصروا في وصفهم على الموضوعات التقليدية القديمة بل أننا نجد الشعراء يخرجون إلى الطبيعة ، ويصفون كل ما تقع عليه أعينهم وصفاً مادياً ومعنوياً، فهم يصفون الرياض والزهور والبساتين والورود والنبات والليل والنجوم والجداول والغدران والأنهار والبحار والبرك والأحواض والمنازل والقصور إذ كان لانبهار الشعراء بآيات الجمال والإبداع التي رأوها في تلك الطبيعة أثر في إطلاق ألسنتهم بكثير من الأشعار ، وقد كانوا يتسابقون في نظم القصائد التي تصف تلك الطبيعة وما يرونها فيها من مناظر خلابة ، ومظاهر جميلة ، حيث لم يتزكوا جزئية من جزئيات هذه الطبيعة إلا وقد نظموا فيه .

يقول الدكتور مصطفى الشكعة: "ليس فن الوصف بجديد على الشعر العربي ، فقد عرفه الشعراء القدامى منذ الجاهلية فوصفوا الصحراء والناقة والخيل وبعض الظواهر الطبيعية، وكانوا في كثير من الأحيان أقوياء الملاحظة عندما وصفوا الخيل وشيائها وكل ما وقع تحت حسهم من حيوان أو نبات أو جماد ، غير أن هذا الفن لم يكن يتعدى المحيط الصحراوي الذي عاش فيه الشعراء ثم اتسع الأفق العام لهذا الفن عند بعض الشعراء في العصر الأموي وأخذ شعر الطبيعة ينمو شيئاً فشيئاً عند الشعراء في مستهل العصر العباسي لاختلاف المناظر والبيئات" (١) .

ومن أهم موضوعات الوصف التي تناولها شاعرنا ما يلي :

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، د. مصطفى الشكعة : ٤٨٥ .

أولاً : وصف الطبيعة ومظاهرها :

حيث أن المتمعن في شعر البيغاء يجده قد طرق الكثير من الأغراض الشعرية ، ومن أهم ما طرقة وأكثر فيه هو غرض الوصف ، ولقد تعدد الوصف عنده وتنوع وقد شمل وصف الطبيعة ومظاهرها ، لأنه فتن بجمال البيئة المحيطة به ومناظرها الخلابة التي جعلت لهذا الغرض مكانة بارزة في شعره.

فهذه البيئة الطبيعية المتنوعة المناظر المختلفة المشاهد : من البر والبحر ، والسهول والوديان والجبال ، والأنهار والبحيرات والعيون ، والأشجار والثمار والأزهار والحيوان الأليف والوحشي والطير البرية والمائية والداجنة وغير الداجنة ... الخ كل أولئك قد فتن بعض شعراء العصر الحمدايي ، حتى لقد وقف بعضهم شعره كله أوجله على التغني بمشاهد هذه الطبيعة ورسم صورها^(٢).

وهنا سأتناول بعض المظاهر الوصفية للطبيعة في شعره وأهمها ما يلي :

(أ) وصف البئر :

^(٢) انظر : الشعر في ظل سيف الدولة الحمدايي ، د. درويش الجندي : ١٦ .

لقد ولد الببغاء في نصيبين ، هذه المدينة الساحرة الجمال التي حباها الله بالحسن الخلاب ،
ومظاهر الطبيعة الجميلة التي تنوعت وأبرزت هذا الحسن الجميل ، فكان منها وصف البئر ،
تناول الببغاء هذا الوصف فقال : (١)

وقوراء كالفلك^(٢) المستدير تروقُ العيون بالألائها
حبثها البحارُ بأمواجها وسحبُ السماءِ بأنوائها

فقد صور البئر في استدارتها بالفلك في السماء تشد العيون وتبهرها بلمعانها الساطع
على صفحة مائها ، ويقول: أن البحار قد منحتها مياهها بأمواجها المتدفقة التي وصلت إلى
البئر ، أيضاً حبثها سحب السماء عندما أمطرت وتدفق ماؤها ونزل في هذا البئر ، ففاضت
مياهها وملأت البئر .

(ب) وصف بركة ماء :

قال القاضي أبو علي التنوخي : كنت أنا وأبو الفرج الببغاء نشاهد بركة ملئت وجعل
فوقها ورد، وبهار ، وشقائق حتى غطى أكثر الماء ، فحضر أبو علي الهاشم ، فسأل أبو الفرج
أن يعمل في ذلك شيئاً فعمل بحضرتها أبيات وهي : (٣)

(١) الديوان : ٤٠ .

(٢) الفلك : مدار النجوم ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : فلك) .

(٣) الديوان : ٩٠ .

(١) البهار : نبت طيب الريح وكل حسن منير ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : بهر) .

(٢) الديوان : ٩٠ .

خجل الورد من جوار البهار^(١) فمشى باحمراره في اصفرار
وحكى الماء فيهما أحمر اليا قوت حُسناً مُرَصَّعاً بنضار

فقد وصف الورد وكأنه فتاة تخجل لأن البهار بجوارها وهو نوع من الزهور ، ولخجله تحول
لونه الأحمر إلى اصفرار ، هكذا الخجل ، وتحول الماء من هذه الورد والبهار إلى اللون الأحمر
وهو لون الياقوت في حسنه المزين بالنضارة والجمال ، والورد والبهار والياقوت تجمعوا فوق
صفحة هذه البركة فرسموا أكمل صورة في الحسن تجذب الأنظار إعجاباً بها ، وأبدع أبو الفرج
(البيغاء) غاية الإبداع عندما قال : (٢)

أضرم الماء بالشقيق بها النا ر وعهدي بالماء ضد النار
فوجدنا أخلاق سيدينا الزهر ذكاء تُرى على الأزهار
ظلت منه ومن نداماه للأنس نديم الشموس والأقمار

فيا جمال هذا التعبير الذي وصف فيه شقائق النعمان وكأنه قد أشعل النار فوق الماء من
جماله الأخاذ ، وشدة احمراره ، مع أن الماء هو الذي يطفى النار .

وأنظر إلى وصفه الزهر بأنه إنسان أخلاقه تتميز بالذكاء الذي جعله سيد الأزهار، وجماله
فاق كل جمال ، وقد جعل من الزهر وشقائق النعمان والبهار وسائل تجلب الأنس للإنسان ،
وتشتق جمالها من جمال الشمس عندما تسطع بضوئها عليهم ، والقمر صاحب
الضوء الصافي والجمال الآخاذ .

(ج) وصف ياقوت في الماء :

وامتداداً لوصف الماء عند أبي الفرج البغاء ، فقد صنع من وجود الياقوت في الماء لوحة
جملية مكتملة العناصر فشملت اللون والحركة والصوت ، فقد كان أبو الفرج البغاء في مجلس
سيف الدولة وإمام جماعة من الشعراء كانوا يمتدحونه ، فأخرج خازنه قدحاً من ياقوت أزرق
فملأه ماء وتركه يتشعشع ، فقال أبو الفرج البغاء : يا مولانا ما رأيت أحسن من هذا ،
فقال سيف الدولة : قل فيه شيئاً وهو لك فقال : (١)

كَمْ مِنَّةٍ لِلظَّالِمِ فِي عُتْقِي بَجْمَعِ شَمَلٍ وَضَمِّ مَعْتَبِقِ
وَكَمْ صَبَاحٍ لِلرَّاحِ أَسْلَمِي مِنْ فَلَقِ سَاطِعٍ إِلَى فَلَقِ
فِعَاطِيهَا بِكُرّاً مُشْعَشَعَةً كَأَنَّهَا فِي صَفَائِهَا خُلْقِي

فهو يعترف أن للظلام فضل عليه ، لأنه يجمع الشمل ، ويشعره بالسكون ، ولكن
الصباح بنوره الساطع ينقله من نور إلى نور والياقوت في الماء مثل الصباح أنوارها ساطعة صافية
مثل الأخلاق الصافية، وتظهر بلونها الأزرق الذي يتضح في الماء ، فهي ظاهرة لدرجة أنك
ترى الياقوت وكأنه منفرد دون أن ترى الماء لنقاء الماء وجمال الياقوت .

(د) وصف روضة الدار :

(١) الديوان: ١١٧.

وبعد وصفه للماء وهو العنصر المهم في مظاهر الطبيعة كلها يتوجه إلى وصف روضة الدار

فيقول: (١)

لنا روضةً في الدار صيغٌ لزهرها قلائدٌ من حمل الندى وشُنفُ
يطيف بنا منها إذا ما تنفست نسيمٌ كعقل الخالديّ ضعيفُ

نظر إلى روضة الدار وقال أن الله صاغ لها قلائد مكونه من الزهر الذي سقاه الندى ،

وهذا الزهر عندما تفوح رائحته ويسير مع الريح وكأن الزهر يتنفس فيشمه الواقف وسط

الروضة ، فيشعر بالراحة والانسجام الوجداني بسبب هذه الرائحة الفواحة من هذا الزهر .

(هـ) وصف النرجس :

ويتابع أبو الفرج البيهقي وصفه لجمال البساتين والرياح التي عاش فيها في ظل إقامته حول

سيف الدولة ، ويصف احد عناصر هذه الرياض والبساتين وهو النرجس الذي ألهم خياله هذه

الأبيات، فيقول: (٢)

ونرجس لم يعد مبيضٌ الـ كأسٌ ولا أضفره الرّاحا
تخال أقحافٍ جُيّن حوتٌ من أضفر العسجدٍ أقداحا
كأنما تهدي التحايا به لطفياً إلى الأرواح أرواحا
يلهي عن الورد إذا مارنا ويخلف المسك إذا فاحا

(١) الديوان : ١١٥ .

(٢) المصدر السابق : ٦٣ .

فيصف النرجس بأنه لم يعد لون زهره أبيض ، ولا أوراقه صفراء ، فقد تحول لونه في جماله الذي تخيله وهو في إنائه وكأنه فضه تم تشكيلها وتزيينها بلون الذهب الأصفر ، وأحيا فيه الروح فصوره من جماله الرائع بأنه يلقي التحية في لطف بلغة تتسرب بين الأرواح ، وهو بهذا الجمال يفوق الورد في الجمال الجذاب ، والرائحة الفواحة العطرة ، ثم يجعل ذلك الوصف الممتع وسيلة إلى ساعات الأنس والبهجة وذريعة إلى مجلس خمر وشراب .

لم يقتصر وصف النرجس على الببغاء فقد فُتت الكثير من الشعراء غيره بالنرجس وأضفوا عليه أوصافاً جميلة رائعة ، أمثال الواواء دمشقي فها هو يصف زهرة النرجس فيقول:

نرجسةٌ لم تزل محدقةً لم تكتمل قطُّ لذة الغضِ
أما لها القطر فهي باهتة تنظر فعل السماء بالأرضِ

ويعلق الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه على وصف النرجس عند كل منهم فيقول "الواواء قد يكون أنشد بيته في ساعة سخط أو في فترة انقباض نفسي فبرزت فيها تلك المسحة من السخط والبرم بالحياة فولد من الجمال كآبة ومن الأنس والبهجة انقباضاً وحنناً، وأما الببغاء فأبياته صورة مرحة لنفسه الصافية وطبيعته العابثة التي ظلت تصاحبه ما ينوف على ثمانين حولاً من الزمان"^(١) .

ثانياً : وصف مظاهر البيئة المحيطة بها :

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : ٥٠٣ .

(١) الديوان: ٩٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(أ) وصف الشمعة

ويهبط أبو الفرج إلى الأرض مرة أخرى ، ليرى الجمال متمثلاً في شمعة مضيئة فيقول:

(١)

وصفر كأطراف العوالي قدودها قيامً على أعلى كراس من الصُّفْرِ
تلبسّ من شمس الأصيل غلائلاً فأشرقن في الظلماء بالخَلِجِ الصُّفْرِ
عرائس يجلوها الدجى لماتها وتحيا إذا أذرت دموعاً من التبر

فيصفها بلونها الأصفر وكأن قدودها أطراف الرماح ، تقوم على قوائم من النحاس الأصفر ، وتأخذ من لون الشمس الأصفر وقت الأصيل شعارات ، فأشرقت تضيء الظلام بهذه الخلع الصفر ، وكأنها عرائس يظهرها الظلام لأنها تبده ولكن على حساب حياتها ، فكلما أضاءت كان ذلك موتاً لها ، وحياتها من دموع احتراقها ، فإذا بكت بدموعها التي تشبه التبر صحت وعادت إليها الحياة ، وهذه الدموع عندما تنسكب تسيل شحومها وزيوها نتيجة اشتعالها ، وكأن هذه الدموع تبر لم يتم صياغته بعد .

ويواصل الشاعر ذلك الوصف الرائع الدقيق للشمعة وهي تضيء في الظلام فيقول: (٢)

إذا ضربت أعناقها في رضا الدجى أعارته من أنوارها خَلِجِ الفجرِ
تبكي على أحشائها بجسومها فأذمُّعها أجسامها أبداً تجري
علاها ضياءً عامل في حياتها كما تعمل الأيام في قصر العُمْرِ

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : ٥٥٤ .

فهي لا تضيء إلا إذا ضربت أعناقها في الظلام وعندها تعطي هذا الظلام أنوار تشبه أنوار الفجر ، وفي وصف رائع لاحتراقها يصورها بأنها تبكي على أحشائها أي الفتيل الذي يضيء بجسمها أي الشحوم والزيوت المحيطة بالفتيل ، فما دامت مضيئة فدموعها التي هي أجسامها تجري بصورة مستمرة ، وهذا الضوء الموجود فوقها من فتيلها هو الذي يقضي على حياتها مثلما تقضي الأيام بمرورها على الإنسان وعمره فتقصره وتؤدي به إلى الفناء .

ويصف كذلك الواواء الدمشقي الشمعة فيقول :

ومخطوفة الخصر لما بدت لدى الليل عاينت صباحاً يِضِي
تُعاقب من نفسها نفسها فتقضي الأمور كما تنقضي
وتمرض إن تركوا رأسها وإن قطعوا الرأس لم تمرض

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن الواواء الدمشقي يصفها وصفاً دقيقاً ملائماً لطبيعة نفسه الغزلية المرحة ، أما البيغاء فإنه يصفها وصفاً أدق وأبرع وأكثر تصرفاً وأوسع مدى (١) .

فليس من شك في أن الفكرتين عند الشاعرين واحدة ، وأن الموضوع كذلك واحد وأن كلاً منهما وصف الشمعة وصفاً متشابهاً ما على الأقل ، ولكن ليس من شك أيضاً أن كل

شاعر منهما قد عبر في وصفه بعبارة تختلف اختلافاً واضحاً عن الأخرى ويرجع هذا الاختلاف إلى طبيعة الشاعر نفسه وقدراته الفنية كما يتضح من الرأي السابق .

(ب) وصف الثريا والبدر :

وبعدما وصف مظاهر الطبيعة النباتية على الأرض ، يتجه إلى وصف مظاهر الطبيعة في

السماء ، فيقول :^(١)

تَرى الثريا والبدرِ في قَرْنٍ ۝ كما يُجَيِّا بنرجسٍ مَلِكُ

فعندما نظر إلى السماء ، ورأى الثريا وهو نجم في السماء ، ورأى البدر بجماله ، وهما في

صفحة السماء ، تخيلهما كأن البدر ملك ومجموعة نجم الثريا كأنها نرجس يجيا بها هذا الملك

تعبيراً عن إحاطة هذه المجموعة للبدر في صفاء السماء . ويدل ذلك على أن البيغاء يتمتع بقدرة

وصفية عظيمة لما يراه أو يحسه .

ونتيجة لحياة الترف التي كانت تحيط بالناس في ذلك العهد من جانب أئجه الشعراء إلى

وصف بعض أدوات الترف ونظموا أبياتاً في وصفها حيث وصفوا الشموع كما أشرنا سابقاً

وكذلك وصفوا كانون النار وهو الموقد الذي تشتعل فيه النيران من أجل استجلاب الدفء

واتقاء البرد كما سيتضح في الصفحات التالية .

(ج) وصف كانون النار :

^(٢) الديوان : ١٢١ .

فهاهو شاعرنا يتوجه من وصف مظاهر الطبيعة الحية ، سواء كانت ذات روح ، أو حركة

، إلى وصف الجمادات وقد رأى فيها ما دفعه إلى وصفها فقال: (١)

وأحـدقنا بأزهرَ حـا فـقـات حـولـه العـذبُ
فـمـا يـنـفـعـكُ عـن سـبـجٍ يـعـودُ كـأنـه ذـهـبُ

فهو يقول أننا أحطنا بمصدر للضوء المتحرك وحوله الماء العذب الطيب ، كناية عن هذا

الكانون الذي تشتعل فيه النار ، وهذا الكانون فيه مادة قيرية صلبة سوداء لماعة تلتهب

كالفحم الحجري ، من شدة احتراقه في النيران يتحول إلى اللون الأصفر وهو لون الذهب ،

وأرى أن هذا الوصف لم يبالغ فيه أبو الفرج .

وفي موضع آخر يصف كانون فيه النار ، وقد أطل هنا في الوصف ، فيقول: (٢)

ومجلسٍ حَلَّ مَنْ يَحِلُّ بِهِ مـن المـعـالي في أرفـع الدُّرُجِ
أمسى ندام الكانون فيه لنا أكـثـرُ أنـسِ النـفـوسِ والمهـجِ
يُـبـدي لنا ألسنة كالسنة الـ حـيـاتٍ مـن ثابـتٍ ومُخـتَلِجِ

يفصف مجلسهم حول كانون النار ويقول أننا اجتمعنا من أصحاب المعالي ، وأصحاب

الدرجات الرفيعة ، والمنازل العالية ، فوجدوا في صحبتهم حول الكانون أنس النفوس ،

وراحة القلوب ، ويقول أن الكانون يخرج ألسنة اللهب كما تخرج الحيات لسانها ، فمرة

يثبت ، وأخرى يتحرك بحركة الهواء ، ويواصل القول :

لـمـا بـدأ الفـحـمُ فـيـه أسـودَ كـالـ لـيـلٍ و بـتُّ الشـرارَ كـالـسـرِجِ

(١) الديوان: ٤٦. وديب صبيغ اللهب فيه بتضُّ ريج حدود الشقائق الضُّرُجِ (١)

(١) الضج: بوضعت الثوب تضرجياً: إذا صبغته بالحمرة، ينظر القاموس المحيط، (مادة: تضرج). ظننت شمس الضحى به انكشفت للخلق في قبّة من السَّبَجِ

فهو عندما يوضع فيه الفحم الأسود الذي يشبه ظلمة الليل ، وأشعل فيه الشرر ، فأشعل وكان السراج ، فكأن اللهب في الفحم مثل الصباغة التي تصبغ الثوب ، فهو صبغ بلون أحمر يشبه لون شقائق النعمان ، وبالغ في الوصف فقال أنه ظن أن شمس الضحى أخذت نورها من نور هذا الكانون فظهرت للخلق كأنها قبة من الذهب الأصفر.

وفي موضوع ثالث يصف فيه الكانون ، فيقول: (٢)

وذي أربعٍ لا يُطيقُ التُّهْوُوزَ ولا يَأْلِفُ السَّيْرَ فَيَمْنُ سَرَى
تُحْمَلُهُ سَبْجاً أَسْوِداً فيجعلُهُ ذهباً أَحْمَراً

فيصفه بأنه ذو أربع قوائم ، لا يمكنه القيام إلا في الليل ، وهذا دليل على أن النيران لا تشتعل إلا في ظلمة الليل ، فإذا وضعت فيه الفحم الأسود وأشعلت فيه اللهب ، تحول هذا الفحم إلى اللون الأحمر وهو لون الذهب .

(د) وصف تمثال سبع :

(٢) الديوان: ٨٩.

ومن وصف كانون النار وأن كان جماداً ، إلا أن النار بداخله وهي تتحرك تبعث فيه الحياة ، لكنه هنا يصف لنا جماداً صرفاً وأن كان لحيوان فيه الروح بيد أنه أصبح جماداً، فيقول: (١)

وضـيغـم في ذابـيل يـلـو
مـسـاورٍ تـسـيلُ مـنـه الـروـح
جـسـمٌ وـلـكـن لـيـس فـيـه رـوـح

فهو يصفه لنا ذاكراً أنه في جسد من حجر يظهر وكأنه واثب يقفز وكأن به الروح ، فهو جسم سبع لكن ليس به روح السبع .

وبذلك يتضح لنا أن العامل الأساسي في عناية البيغاء بوصف الطبيعة هو ما تمتاز به البيئة التي عاش فيها من مناظر جميلة متنوعة حيث فتن بها شاعرنا فتغنى بجمالها شعراً ورسم منها صوراً شتى جعلت لهذا الغرض مكانة بارزة في شعره .

بالإضافة إلى ما قدمته الحضارة الفنية من صور وتمائيل للطبيعة مما ساعد على نمو هذا الفن (وصف الطبيعة) .

يقول الدكتور درويش الجندي " فمن ذلك ما كان للحضارة الفنية التي نمت في العصر العباسي من أثر في تطور فن الطبيعة . ذلك بأنها قدمت من الصور والتماثيل للطبيعة ما زاد الشعور بجمالها ، ووضعت أمام الشعراء نماذج فنية تساعد على التجويد والإيقان" (٢) .

(١) الديوان: ٦٢ .

(٢) الشعر في ظل سيف الدولة: ٢١٧ .

(١) الديوان: ٤٢ .

(٢) العثير : بتسكين التاء ، الغبار وما قلبت من الطين بأطراف رجله ، ينظر القاموس المحيط ، (مادة : عثر) .

ثالثاً : وصف الحيوانات والطيور :

لم يقتصر البيغاء في وصفه على الطبيعة الساكنة من الأمطار والأنهار والرياض والأزهار والبرك فقط ، وإنما امتد بوصفه إلى الطبيعة المتحركة ونقصد بذلك عالم الحيوان والطيور .

١- وصف الحيوانات :

(أ) وصف الخيل :

نظراً لما تتمتع به الخيل من جمال المنظر واللون والحركة ، والقوة والأصالة ، ولما تتمتع به من شهرة في الحروب في العصور التاريخية ، خاصة العصر الإسلامي ، ولما كان فيه أبو الفرج البيغاء من رغد العيش بقربه من سيف الدولة ، فقد كانت الخيل دائماً أمامه ، فأخذ يصفها في حلها وترحالها وحروبها، فيقول (١):

وكلُّ بعيدٍ قَرَّبَ الحَيْنَ نَحْوَهُ سلاهِبُك الجُرْدُ الجِيَادُ قَرِيبُ
تباشِرُ أقطارَ البلادِ كأنها رياحٌ لها في الخافقين هبوبُ
تماشى بفتيانٍ كأنَّ جِسامَهُم لَحْفَتِهَا فوقَ السروجِ قلوبُ
وتملاً ما بين الفضائينِ عثيراً مُثَاراً بوجهِ الشمسِ منه شحوبُ (٢)
وما يدركُ العلياءَ إلا مهذبٌ يصاب على مفداره ويصيبُ

فيصفها بالسرعة الفائقة حتى أنها تساعد راكبها على إدراك العدو البعيد وتجعل هلاكه قريباً، فتجوب أقطاراً مثل الرياح التي تتحرك في جنبات الكون الفسيح بين السماء والأرض،

تتحرك وعلى ظهرها فتیان من خفتهم على السرج والخیل تسرع بهم كأنهم في حجم القلب لا تكاد تشعر بهم على ظهرها ، إذا سارت تثير أقدامها التراب وتحجب ضوء الشمس حتى تبدو وكأنها شاحبة .

ويعود يصفها ويصف حركتها في الحرب فيقول :^(١)

مرن على لدع القنا فكأنما عليهن من صبغ الدماء مجاسدُ
نَسَجْنَ ملاءَ النقعِ ثم حرقنه بكر لها منه إلى النصر قائدُ
عليهن من نسج الغبار غائلُ رفاقٌ ومن نضج الدماء قلائدُ

فهي معتادة على الحروب فقد تمرنت على وخزات الحراب التي جعلت في جسدها ندبات من الدماء التي تسيل بسبب ضربات الرماح ، وفي الحرب تثير الغبار ، وتملأ به جو المعركة، ثم تنفضه عن جسدها عندما يعتلي ظهورها قائد يحقق النصر في المعارك ، فقد لبسن من هذا الغبار ما يشبه الشعار أو الثوب الرقيق الذي اختلط بالدماء التي سالت من أجسادها بسبب ضربات الرماح والسيوف ، فأصبحت هذه الدماء قلائد على جسدها تدل على بلائها في الحرب .

ويستمر في وصفه للخیل في الجيش فيقول :^(٢)

في خميسٍ كأنما السُمُرُ والأبـ طأل فيه غيلٌ حمته أسودُ
سلبِ الشمسِ ضوءها بشموس طالعَات أفلاكهن حديدُ
عارضٌ كلما جلته بروقُ الـ بيضٍ حشته بالصهيل الرعودُ

^(١) الديوان : ٦٦ .

^(٢) المصدر السابق : ٦٨ .

فالجيش مكون من خمس فرق ، الخيل فيها والفرسان فوقها في أيديهم الرماح مثل غابة من الأشجار تحميها الأسود الضواري ، حتى أن كثرة الخيل حجبت بظهرها ضوء الشمس وكأنها شمس لها أفلاك من حديد ، فأصبحت كالسحب التي تعترض الشمس في الأفق كلما حاولت السيوف إظهارها أعادته الخيل بصهيلها الذي يشبه صوت الرعد .

ويقول أيضاً: (١)

وَالطَّعْنُ يَعْتَصِبُ الْجِيَادَ شِيَاثَهَا وَالضَّرْبُ يَقْدَحُ فِي التَّرِيكِ وَقُودَا
فَضْرَبَ الْجِيَادَ فِي الْحَرْبِ بِالرَّمَاكِ وَالسِّيُوفِ يَقْتُلُ فِيهَا شِيَاثَهَا فَيَجْعَلُهَا سَرِيعَةَ الْكُرِّ وَالْفَرِّ،
وَإِذَا كَانَتْ فِي سَبَاقٍ فَأَنْ ضَرَبَ الْفَارِسُ لَهَا يَجْعَلُ حَوَافِرَهَا مِنْ سَرْعَتِهَا تَقْدَحُ نَاراً وَيَقُولُ أَيْضاً :
(٢)

وَأَجَلٌ مَا عِنْدَ الْفَوَارِسِ حَثُّهَا فِي طَاعَةِ الْهَرَبِ الْجِيَادَ الْقُودَا
فَهِيَ فِي الْحَرْبِ أَكْثَرُ مَا يَأْمُرُهَا بِهِ فَرَسَانُهَا حَثُّهَا عَلَى الْهَرَبِ فَتَطِيعُ أَمْرَ الْقَائِدِ لِأَنَّهَا مَقُودَةٌ
بَأْمُرِهِ ، فَتَسْرِعُ بِالْهَرَبِ مِنْهُ لِإِبْعَادِهِ عَنِ الْهَلَاكِ ، أَوْ الْوُقُوعِ فِي أَسْرِ الْأَعْدَاءِ ، وَلَا يَسْعَى أَنْ
تُحَارِبَ مَعَهُ ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ غَيْرُ مَبَالِغٍ فِيهَا عَرَضَهَا أَبُو الْفَرَجِ فِي لَطْفِ وَرَقَةٍ .

(ب) وصف الفرس :

بعد وصف الخيل عموماً وسط ميدان الحرب يقول أبو الفرج البيهقي في وصف فرس

(١) الديوان : ٧١ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

عرض له : (١)

إن لآح قُلَّتْ أَدْمِيَّةٌ أَمْ هَيْكَلُ أَوْ عَنَّنَّ قَلَّتْ أُسَابِحٌ أَمْ أَجْدَلُ
تتخاذل الأَحْطَاظُ فِي إِدْرَاكِهِ وَيَحَارُ فِيهِ النَّاطِرُ الْمُتَأَمِّلُ
فكَأَنَّهُ فِي اللَّطْفِ فَهْمٌ ثَاقِبٌ وَكَأَنَّهُ فِي الْحُسْنِ حِظٌ مُقْبِلُ

فهو يقول أن الفرس إن ظهر أمامه تحير بماذا يصفه ، أيقول أنه دُمِيَّةٌ ، أم أنه فرس طويل
ضخم ، فإن عرض عليه في جريانه تحير أهو يسبح في الهواء لسرعته ، أم أنه صقر يطير في
السماء ، فهو لطيف جميل ، وحسن المنظر مثل الحظ الحسن المريح .

(ج) وصف بغله :

بعدهما أبدع أبو الفرج في وصف الخيل وهي أعلى وأشرف رتبة بين الحيوانات ، توجه
إلى وصف بغلة أهداها إليه بعض إخوانه ، ويتوجه بالشكر إليهم فيقول : (٢)
قد جاءت البغلةُ السفواءُ (٣) يجلب مند ها البرق غيث ندى ينهل ماطره

عريقةٌ ناسبتُ أحوالها فلها بالعتق من كرم الجنسین فاخره
ملء الحزام وملء اللبد مجفرة يريك عائبها في الحسن حاضره
ليست بأول حملان شريت به حمدي ولا هي ياذا المجد آخره
كم قد تقدمها من سابح بيدي عنانه وعلى الجوزاء حافره

(١) الديوان : ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٠٠ .

(٣) السفواء : السرعة التي تسف التراب خلفها كما تسف الريح التراب ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : سفا) .

فيصفها بأنها سريعة تخلف الغبار خلفها مثلما تفعل الرياح في الرمال ، وهي في سرعتها تقطر عرقاً مثلما يفعل البرق في السماء فيسقط المطر قطرات مثل قطرات الندى ، فهي عريقة النسب يمتد إلى الخيل مما يجعلها تفتخر ، ويواصل الوصف بأنها مملوءة الجسم حيث يضيق حزامها المضروب على وسطها رغم أن ذلك قد يعيبها لكنه يظهر محاسن أخرى ، ثم يواصل وصفها بأنها سريعة كأنها تسبح في الهواء عنانها بيد قائدها وموضع حافرها عند نجم الجوزاء وهو نجم بعيد في السماء ، ويتوجه بالشكر لمن أهداها له ، ويقول أنها ليست أولى الحملان في سرعتها ورشاقتها التي تهدى إليه ، ولن تكون هي آخر شيء يوصل به من الأحبة والأصدقاء الأوفياء له.

(د) وصف الثعلب :

هنا توجه أبو الفرج إلى وصف حيوان له طبيعة مغايرة عن الخيل والبغلة من حيث المكان الذي يعيش فيه ، ومن حيث طبيعته ، وفائدته ، وهو الثعلب الذي دائماً يستوطن الصحراء ، ومعروف بالمكر والدهاء ، فيقول فيه :^(١)

وأعفر المسك تلقاه فتحسبه
كان أذنيه في حسن انتصاهما
يسري ويتبعه من خلفه ذنب
فلا يشك الذي بالبعد يبصره
من أدكن الحز مخبوء بحيفان
إذا هما انتصبا للجس زجان
كأنه حين يبدو ثعلب ثاني
فرداً بأنهما في الخلقه اثنان

^(١) الديوان : ١٦١ .

يقول أنه مثل لون المسك ، داكن بين الحمرة والسواد ، مختبئ بين حشيش الجبل الذي ليس له ورق طويل ، ويظهر من بين هذا الحشيش بأذنيه المنتصبين بصورة حسنة إذا شعر بأن هناك صوت خفي يشبه صوت مؤخرة الرمح عندما يركز بها على الأرض ، فهنا يتحرك، ويسير خلفه ذنبه أي ذيله ، وهو من طوله يتخيله الناظر وكأنه ثعلب آخر ، فمن ينظر إليه من بعيد لا يتسرب الشك إلى قلبه إلا أنهما اثنان في الخلقة .

(هـ) وصف فأرة مصورة :

وهنا وصف لكائن أصغر من الخيل والبغلة ، فهنا يصف فأرة يقول فيها :^(١)

أنظر إلى صورة لو أنها علمت بمن تشبّه لم تظهر لباينها
ترى الملوك وقوفاً حول مالکها وعدة الدولة المأمول يعليها

فهو يصفها وهي في صورة موضوعة في قاعة مجلس عدة الدولة ، لو أنها حية ما رآها

أحد ، لأنّها في هذه الصورة ترى الملوك وهم يقفون بين يدي مالکها ويقبلون الأرض

بين يديه وهي في مرتبه عالية لم يحظ بها أحد من بنات جنسها إلا هي ، فهي عالية في موضع صورتها

على الجدار مرتفعة ، وعالية كذلك في وضعها داخل قاعة مجلس عدة الدولة .

(و) وصف السنجاب :

ويذهب أبو الفرج إلى حيوان تميز بالذكاء، وخفة الحركة مع صغر الجسم ، فيقول :^(١)

^(١) الديوان: ١٦٦.

قد بلوننا الذكاء في كل ناب
فوجدناه صنعة السنجاب
حركات تأبي السكون وألحا
ظَّ حِدادُ كالنار في الالتهاب
خفَّ جدًّا على النفوس فلو شا
ء ترامى مجاوراً للتصابي

فيقول أنه اختبر وجرب الذكاء في كل حيوان صاحب ناب ، لكنه لم يجد هذا الذكاء إلا في السنجاب ، ذكاؤه حاد ، وحركاته دائبة مستمرة لا تسكن أبداً ، شديد الملاحظة ، مثل سرعة التهاب النيران ، فمن يراه يحبه ، فحركاته تحبها النفس مثلما يحب الناس حركات الصبي الصغير في شقاوته الجمالية المحبوبة .

ويقول فيه : (٢)

واشْتَهَتْ قُرْبَهُ الْعَيْونُ إِلَى أَنْ
خَلَّتْهُ عِنْدَهَا أَخَا لِلشَّبَابِ
لَابَسُّ جِلْدَةً إِذَا لَاحَ خَلْنَا
هَ بِهَا فِي مُزْرَّةٍ مِنْ سَحَابِ
لَوْ غَدَا كُلُّ ذِي ذِكَاٍ نَطَوْقًا
رَدَّ فِي سَاعَةِ الخَطَابِ جَوَابِي

فتمنى العيون النظر إليه ، ودوام هذا النظر ، فهو يتمتع بصفات الشباب النشط صاحب المهمة والشجاعة والإقدام ، عليه فروة يتخيلها الناظر إليها وكأنها حلة ذات أزرار ، وهو معجب بذكائه الشديد ، فيقول : لو أصبح كل كائن يتميز بالذكاء ناطقاً متحدثاً لكان سريع الرد والجواب على من يخاطبه يقصد السنجاب ، فهو لسرعة ذكائه ، سريع الاستجابة لحركات الآخرين .

(ز) وصف صورة أفعى :

(١) الديوان : ٥٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

ينتقل أبو الفرج إلى وصف الزواحف ، بعدما تناول وصف ذوات الأرجل، فهو يتناول أفعى

في صورة يقول فيها: ^(١)

ومـَـارِقٍ مَعْتَدِلِ الكَعْبِـوِبِ
يَقْلُ أَفْعَى مَعْدَةَ التَّرْكِيبِ
تَدْبُؤُ فِي الجَوِّ بـِـلا دِيـبِ

نظر هو وأصحابه على الجدار فوجد صورة أفعى صاغتها يد صانع ماهر ، تخيلها أبو الفرج وكأنها تتحرك في الجو أي في المكان المعلقة فيه ، ولكن دون حركة فهي صورة جامدة، من روعة تصويرها يخالها الناظر إليها تتحرك في الجو .

٢- وصف الطيور :

بعد أن وصف أبو الفرج الحيوانات التي تسير على الأرض ، توجه إلى وصف الطيور التي تسبح بجناحيها في الهواء، وتحط بقدميها على الأرض ، ومن هذا الوصف :

(أ) وصف يؤيؤ:

وهو نوع من الصقور ، ويقول في وصفه: ^(١)

ويؤيؤُ أَوْحَى مَن الفِضَاءِ
مُتَمِّع الصَّوْرَةَ والأَعْضَاءِ
دِي سُدِّ فَعَةٍ فِي خَدِّهِ بِيضَاءِ
مُخْبِرَةٌ عَن هَمِّهِ بِيضَاءِ
وَمَقْلَةٍ صَفْتٍ مِّن الأَقْدَاءِ
تَشْفُ عَن ياقوتة صَفراءِ

^(١) الديوان : ٥١ .

^(١) الديوان : ٣٨ .

تخبر في الأرض عن السماء
ألطف في الجو من الهواء
مباينا بالطبع للمكاء
تباين الغدر من الوفاء

فهو عندما نظر إليه وجدته جميل المنظر في الفضاء ، يتمتع بجمال الصورة والأعضاء ، له علامة بيضاء في خده تخبر عن همة وعزيمة قوية ، وله مقلة وهي حدقة العين صافية من القذى وهو ما يخالط العين ويعكر صفوها ، هذه الحدقة تشف بداخلها عن ولد العين الذي صوره أبو الفرج وكأنه ياقوتة صفراء من جمال المنظر واللمعان البراق ، تتحرك في العين ، مثلما يتحرك الماء في الغدير، في انسيابية، ومن صفائه، أي صفاء ماء الغدير ترى فيه صورة السماء منطبعة على صفحة الماء كذلك في عين اليؤيؤ ، جميل لطيف في حركته في السماء ، بل ألطف من الهواء ، وهو يختلف عن المكاء الذي هو نوع آخر من الصقور ، فشتان بين الاثنين ، الفرق بينهما مثل الفرق بين الغدر والوفاء .

(ب) وصف العقاب :

يقول الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه "من الشعراء الحمدانيين الذين أولعوا بطيور

الطرد البغاء وكان ولعه بالجوارج العنيفة العنيدة كالعقاب والزمج" (١) والعقاب من فصيلة

الطيور الجوارح يقول فيه: (٢)

مَا كَلُّ ذَاتِ مِخْلَبٍ وَنَابٍ
مَنْ سَائِرِ الْجَارِحِ وَالْكَلَابِ
بُـدْرِكٍ فِي الْجَدِّ وَالطُّـلَابِ

فليس هناك ما يشابه العقاب من بين ذوات المخلب والناب من سائر الجوارح والكلاب

في إدراكه الجذ والمطلب الذي يرمي إليه ، فهو يدرك مطلبه بسهولة ويسر ، ولا يمكن أن تفلت

منه فريسته لسرعته فهو أسرع الجوارح في الطيران لذا قيل : " أطيّر من عقاب " (٣) .

ويواصل القول

شَرِيفَةُ الصَّبْغَةِ وَالْأَنْسَابِ
تَطِيرُ مَنْ جَنَاحِهَا فِي غَابِ
فهي شريفة والأصل الأرض من فصيلة الجوارح ، تتحرك بجناحيها في كل الغابات،
وتنشر جناحيها في وتحجب الشمس بلا حجاب في طيراتها فتستتر الأرض عن السحب المعلقة في السماء وتحجب بجناحيها
ضوء الشمس، وهذا دليل على اتساع هذين الجناحين عندما تنشرهما العقاب ، ويقول فيه

أيضاً:

يَظَلُّ مِنْهَا الْجَوُّ فِي اغْتِرَابِ
مُسْتَوْحِشاً لِلطَّيْرِ كَالْمُرْتَابِ

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ٤٧٧ .

(٢) الديوان: ٥٣ .

(٣) الصيد والطرده عند العرب : ٣٨ .

فيصف شجاعته ، فإذا ظهرت في السماء شعر الجو أنه غريب بسبب عدم وجود طيور
خوفاً من العقاب ، لأنه مشهور بالشجاعة والقنص .

(ج) وصف الزمَج :

هو صنف من أصناف العقاب كما عدّه الدميري في حياة الحيوان^(١) والملاحظ في
الحيوان^(٢) والقلقشندي في صبح الأعشى^(٣) ويعد من خفاف الجوارح، سريع الحركة، شديد
الوثبة، يوصف بالصدر، وهو يتلقف الطائر كما يتلقفه البازي، ويصيد على وجه الأرض
مثلما يصيد العقاب ، فيقول فيه :^(٤)

يَا رَبِّ سِرْبِ آمِنٍ لَمْ يُزْعَجِ)
غَادِيئُهُ قَبْلَ الصَّبَاحِ الْأَبْلَجِ
بِزُجِّ أَدْلَقِ حُوشِ أَهْـوَجِ
مُضَبَّرِ الْمِنْكَبِ صُلْبِ الْمُنْسَجِ (١)
ذِي قَضَبِ عَبَلِ أَصَمِّ مُدْمَجِ (٢)
وَجُؤُجِ وَكَالْجُوشِ الْمَدْرَجِ

(١) حياة الحيوان ، الدميري : ٨/٢ .

(٢) الحيوان ، الملاحظ : ١٨٢/٣ .

(٣) صبح الأعشى ، القلقشندي : ٥٥/٢ .

(٤) الديوان : ٥٩ .

(١) التضبير : الجمع وشدة تلزيم العظام واكتناز اللحم ، أنظر القاموس المحيط ، (مادة ضبر)

(٢) العبل : الضخم من كل شيء ، نفسه ، (مادة عبل) .

يصفه بأنه سرب في السماء آمن لم يزعج حتى ظهر الزمج قبل ظهور الصباح بسرعه
وشدة هجومه ، وقوته ، هذا الزمج مكتنز لحم العظام ، قوي تنسيق هذه العظام ، له قوائم
غلاظ، قوي صلب ، صدره عظيم مثل الجو شن ، ويواصل في إيضاح صفاته فيقول :-

وعنق سمام طويل أعوج
ومنسرٍ أفتى فسيح مُسْرَج
ومُنْحَرِقِ المُدْخَلِ رَحْبِ المَخْرَجِ
ومقلّةٍ تَشِفّ عن فَيْرُوجِ
ناظرةٍ من لِهَبٍ مُؤَجِّجِ
وهامةٍ كالحجر المَدْمَلَجِ
ومِخْلَبِ كالمِعْوَلِ المُعْوَجِ

يقول أن عنقه طويل معتدل ، له منقار معكوف عريض ، وله عين بداخلها إنسان
العين الذي يشبه الجواهر الأزرق، عينه شديدة اللحظ مثل اللهب المشتعل ، وله رأس مثل
الحجر الأملس ، وله مخلب كالمعول المعوج.

رابعاً : وصف أدوات الحرب :

لقد كثرت الحروب في عهد سيف الدولة ، وصاحبه أبو الفرج في كثير من هذه الحروب،
وهناك تناول أدوات الحروب بالوصف ومن هذا :

(أ) وصف اللواء:

فيقول في وصف بارع يكاد ينفرد به ويرسم لوحة فنية ساحرة الجمال^(١)

وملأك رِقَّ القَنَا مُسْتَخْرِجٍ بِاللِّطْفِ أَسْرَارَ الرِّيحِ الرَّكَّادِ
خُرْسٌ يِنَاجِيهَا فَتَفْهَمُ نُطْقَهُ وَتُجِيئُهُ أَنْفَاسُهَا بِتَصْعَدِ
قَلْبُكَ كَأَنَّ الْجَوَّ ضَاقَ بِهِ فَمَا يَنْفَكُ بَيْنَ تَوْتُبٍ وَتَهَادُدِ

فاللواء ينجي الرياح الركد، وتجيئه أنفاسها بتصعد، وهو قلق دائم الحركة لا يستقر له قرار، إذ ألف التنقل من مكان إلى آخر، ومن موقعة إلى أخرى ، والجو لكثرة تنقله وسرعة حركته كاد أن يضيق به.

(ب) وصف الرايات:

ودائما ما تلاحق الألوية والرايات الحروب ، فيقول: ^(٢)

والريخُ من عَذَبِ الرَايَاتِ نَاطِقَةٌ وَالشَّمْسُ تَلْعَبُ فِي بَحْرِ مِنَ الزَّرْدِ

فيصور الرياح وهي تحرك الرايات بحركتها، والشمس وهي تداعب سطح هذه الرايات

بأشعتها مثل بحر ساطع من الجوهر تتراقص عليه أشعة الشمس.

(١) الديوان: ٧٤.

(٢) المصدر السابق: ٨٠.

خامساً : - وصف أدوات الصيد:

كثرة رحلات الأمير الحمداني إلى الصيد، وبسبب قرب البيغاء منه كان يصاحبه في هذه الرحلات، فتناول أدوات الصيد المستخدمة في وصفه، وهذا دليل على حياة النعيم التي عاشها في كنف سيف الدولة.

(أ) وصف السبطانة:

السبطانة إحدى آلات الصيد، وتتخذ من خشب، مستطيلة كالرمح، مجوفة من الداخل ، يضع الصائد بندقة من الطين صغيرة في فيه، ثم ينفخ بها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه ، وهي كثيرة الإصابة فيقول : (١)

وَجَوْفَاءَ حَامِلَةٍ تَهْتَدِي إِلَى كَلِّ قَلْبٍ بِمَقْرُوحِهِ
مُقَوْمَةَ الْقَدِّ مَشْوَقَةً مُهْفَهْفَةً الْجِسْمِ مَسْوُوحِهِ
مُتَقَفَةً فَمُهَا عَيْنُهَا تُبَشِّرُ قَلْبِي بِتَصْحِيحِهِ
فَإِنْ هِيَ وَالْجَارِحُ اسْتَنْهَضَا إِلَى الصَّيْدِ عَاقَتُهُ عَنِ رِيحِهِ

فهي مجوفة ، في داخلها بندقة هي بالنسبة لها القلب ، تصيب بها الفريسة ، قوامها مشوق ، رقيقة الجسم مستطيلة ، فمها هو عينها ، إذا تسابقت هي وجوارح الطيور على الصيد ، كانت هي السبابة ، ويقول عنها في نفس القصيدة السابقة:

مَوَاتٌ تَعِيشُ إِذَا مَا أَعَادَ لَهَا النِّافِخُ الرُّوحَ مِنْ رُوحِهِ
هِيَ السَّبَطَانَةُ فِي شَكْلِهَا فِي الْقَلْبِ جَدُّ تَبَارِيحِهِ
حَطَّ ^(١) ^{الديوان ٦٠٦} أَبَا الْفَرَّخِ عَنْ وَكْرِهِ وَتَسْتَنْزِلُ الطَّيْرَ مِنْ لُوحِهِ

فهي تحيا بالموت لغيرها إذا أعاد النافخ شحنها مرة أخرى ، إذا تم توجيهها إلى الفرخ في
عشه تسقطه صريعاً ، بل أكثر من ذلك إذا توجهت إلى الطير وهو بين السماء والأرض نزل
صريعاً ، دليل على دقة الإصابة والتصويب .

(ب) وصف الجلاهق :

هي أداة من أدوات الصيد ، وهي قوس تتخذ من القنا وفي وسط وترها قطعة دائرة
تسمى الجوزة توضع فيها البندقة ، فإذا شد الوتر عند الرمي قذف بالبندقة وأصاب الهدف^(١) ،
"وقد أكثر شعراء الطرد في العصر العباسي من وصف الصيد بالجلاهق كثرة
تلفت النظر"^(٢) فيقول البيغاء في وصفها :^(٣)

ودايية تُرَضُّعُ عـبـرَ دَرَّهـا
وَقَصَّاءُ يعلـيها الخنـاء ظهـرها
مقلَّـثـها شاخصـةٌ في صـدرها
نجـلاءٌ لا يطـرفُ هـدبُ شـفرها
طـائرةٌ مقيمـةٌ في وكرها
باطشـةٌ لـكنْ بغير ظُفرها

(١) نهاية الأرب : ١٠٠/٣٢٤ .

(٢) الصيد عند العرب : ٨٧ .

(٣) الديوان : ١٠١ .

يصورها وكأنها مرضعة أو قابلة ترضع من لبنها ، مقوسة عالية بسبب انحناء ظهرها ،
 عينيها - ويقصد فتحة القوس - ناظرة بدقة في صدرها ، واسعة لا يحرك أهدابها إلا عندما
 توجه نحو طائر مقيم في وكره ، عندما تبطش به ولكن بدون أخطار لكن عن طريق البندقة.
 وفي موضع آخر يصف الجلاهق قائلاً: (١)

تطيرُ مع البُرَاةِ بلا جَنَاحٍ فَتَسْبُحُهَا إِلَى قَصَبِ الرَّهَانِ
 وتُدْرِكُ ما تشاءُ بغيرِ رِجْلِ ولا بِبَاعٍ يَطْوُلُ ولا بَنَانِ
 وتلحظُ ما يَكِلُ الطرفُ عنه بلا نَظَرٍ يَصْحُحُ ولا عِيَانِ

فهي عندما يرى الصياد أحد طيور الصيد تطير معه وليس لها جناح وإنما تنطلق من
 القوس ، وتسبق هذه الطيور في نيل صيدها ومرادها ، وتدرك ما وجهت إليه وليس لها أقدام
 ولا أذرع ولا حتى أطراف أصابع ، وترى مالا يراه الطرف (العين) وليس لها نظر ولا رؤية .

(ج) وصف الفخ :

هو آلة حديدية مقوسة لها دفتان تفتحان قسراً وتعاقان عند الانغلاق يطرق شظاة أو
 نحوها فإذا مر بها الحيوان وأصابها انطبقت عليه (١).

واستمراراً في وصف أدوات الصيد ، يصف هنا الفخ ، فيقول: (٢)

ذو قصر احـدب من غير كبر

محتقـر المنظر جار الخبز

مُستنصر لـكن إذا ضم انتصر

مستأنس فـإن مسسـناه نـفر

وإن جـنى جنـايـةً لم يعتـذر

(١) الديوان: ١٥٩.

(٢) صبح الأعشى: ١٤٥/٢، وينظر لسان العرب ، ابرع منظور: (مادة: فخخ).

(٢) الديوان: ٩٧.

فهو قصير أحدب ، أي مقوس الظهر من غير كبير الحجم ، منظره حقير لكنه يجلب الخير عندما يقع الصيد فيه ، ملقى بمفرده يطلب من ينصره ، لكن إذا اقترب منه الصيد وقع فيه فكان ذلك نصراً له ، أليف ساكن الحركة ، وإن لمسه أحد نفر وثار وغضب ، وإن ارتكب جريمة لا يعتذر عن فعلها فهذه وظيفة ، ويواصل وصفه للفخ في هذه القصيدة

قائلاً:

لما رأى العصفور حَبّاً قد بَدَرَ
ارتباب بالحنطة ما بين المِـدَرِ
ولم يزل بين الرجاء والحدَرِ
يبعثه الحرصُ ويعيبه الخَطَرُ

ثم هوى مستيقناً لما افتكر
إن بني الدنيا جميعاً في غَرَرِ
وأمل النفع ولم يخشَ الضررُ
فشدّه الفخ بإشراك الغيرِ
ولم يطق دفع القضاء والقَدَرِ

ما أجمل هذا الحوار بين العصفور ، وبين الحب المنتور فوق الفخ ، فهو خائف من غدر بني البشر لأن الحب منتور بين الحصى ، و ظل بين الرجاء والحدَر ، يشجعه الحرص ، ويتعبه

الخطر، ثم انقض على الحب مؤملاً النفع دون خوف من الضرر ، وفجأة شده الفخ مثلما
تفعل أحداث الدهر، ولم يستطع أن يمنع القضاء والقدر ، ووقع فريسة بين برائن الفخ.

(د) وصف شبكة العصافير :

ومن شرك الصيد ، إلى شبكة العصافير ، فيقول :^(١)

رَفْرَاقَةٌ فِي السَّرَابِ تَحْسَبُهَا عَلَى الثَّرَى حُلَّةً مِنَ الزَّرْدِ
كَالدَّرْعِ لَكِنِهَا مَعِ وَضَةٌ عَنِ الْمَسَامِيرِ كَثْرَةَ الْعُقَدِ
سَائِرُهَا أَعْيُنٌ مُفْتَحَةٌ لَا تَرْتَضِي نِسْبَةً إِلَى جَسَدِ
كَأَنَّهَا فِي غُرُورِهَا زَحْرَفِ الدِّ نِيَا الْمَشُوبِ السَّرُورِ بِالنَّكَدِ

فهي من بعيد عندما ترى السراب صافية رقاقة ، تظنها على التراب حلة من حرير

الزرد ، وهي كالدرع لكن لا يوجد لها مسامير ، وعوض عن المسامير بكثرة العقد ، أغلبها
أعين مفتوحة ، لا يجمعها جسد واحد ، ويصورها في غرورها بأنها مثل زينة الدنيا يختلط
فيها الفرح والحزن ، فهي تعجبك ، لكنها وسيلة لإيقاع الفريسة بداخلها ، وهذا هو فرحها
أو همومها .

سادساً : وصف أدوات أخرى :

^(١) الديوان : ٧٦ .

كثُر في عصر الأمير الحمداني الاهتمام بالعلم ، ونتائجه ، فكانت هناك أدوات أنتجها العلم ، وأخرى موجودة في مجال غير العلم ، ومن هذه الأدوات ، والتي وصفها البيهقي ما يلي :

(أ) وصف معصرة :

لما كثر شرب الخمر بسبب مجالس اللهو ، كثر كذلك صناعتها من العجم والعرب ، فكانت تستخدم المعصرة في ذلك فقال فيها :^(١)

ومعصرةٍ أنحُتْ بها وَقَرْنُ الشَّمْسِ لم يَغِبِ
فخِلْتُ قِرَازَهَا بِالرَّا ح بعضَ معادنِ الذهبِ
وقد ذرَفْتُ لفقْدِ الكرِّ م فيها أعيُرُ العِنَبِ
وجاشَ عُبابُ واديها بِمُنْهَلٍ و مُنْسَكِبِ

وياقوتُ العَصِيرِ بها يلاعِبُ لؤلؤَ الحَبَبِ

فهو يقول أنه ذهب إلى المعصرة ، قبل غروب الشمس فتخيل قروراتها بالأيدي وكأنها جزء من معدن الذهب ، ويصف كيفية عصر العنب فيها في صورة جميلة ، فهو يخالها عندما تخلو من الكرم أنها تجعل العين تبكي وقطرات الدمع في عينيه هي الكرم، فامتألاً واديها بانسكاب

(١) الديوان : ٥٥ .

عصير العنب ، واللون الساحر وهو لون عصير وصفه كأنه ياقوت يلاعب حبات العنب التي صورها باللؤلؤ .

(ب) وصف الاضطراب :

وهو أداة لدراسة النجوم والأفلاك ، فيصفه قائلاً: (١)

وَمُسْتَدِيرٍ مَعْجَمِ التَّقْسِيمِ
مُنْتَسِبِ الْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ
دَبَّرَهُ فِكْرُ امْرِئٍ حَكِيمِ
فَصَاغَهُ فِي صِغَرِ التَّجْسِيمِ

فهو مستدير الشكل ، قسماته مختلفة غير منتظمة ، متعدد الأشكال والرسوم ، صنعه عقل إنسان حكيم قوي التفكير، صاغه وصنعه في حجم صغير، لكنه يستطيع أن يكشف لك الفلك العظيم بكامل هيئته، ويستطلع كل النجوم في السماء رغم صغر الحجم ، يستخدمه علماء الفلك في دراسة الأفلاك ، ومعرفة مدارات النجوم والأبراج ، وحسابات الأيام والشهور ، ورصد الأهلة .

(ج) وصف البوق :

والبوق كان يتخذ قديماً من قرون الحيوانات الضخمة كالفيلة ، يستخدم في أغلب الأحيان

في الحروب ، فيصفها أبو الفرج البيهقي ، قائلاً: (١)

(١) الديوان: ١٥١ .

وَمُسْمِعٍ لِّمَن يَسْمَعُ
مَحْكَمٍ فِي صَمِّ الْأَذَانِ
سَرٌّ يُؤَدِّيهِ إِلَى إَغْلَانِ

فهو يُسمع الناس الخبر، لكن ليس له لسان، لأن النافخ فيه هو المتحدث ، وهو يقوم بتضخيم الصوت ، صوته المرتفع يؤدي إلى صمم الأذان من شدته ، يذيع السر ويجعله علن، هذه وظيفة البوق في نشر الخبر .

سابعاً : وصف المباني :

ومما تعرض له أبو الفرج البيهقي في وصفه ، وصف بعض المباني بعدما تناول أدوات الصيد ، وأدوات العلم ، وأدوات الحرب .

وصف دير عمر الزعفران :

وهو دير على رأس جبل مطل على نصيبين وديار ربيعة من جانب ، وعلى طور عبيد بن وقردي وبعض ديار بكر من جانب آخر ، وبه كثير من الزعفران ، وهو عجيب البناء ، كثير الرهبان ، وفيه جنات حسنة نضرة مملوءة بشجر البندق والفسق واللوذ والفرك والزيتون ، وماؤه

(١) الديوان: ١٦٢.

من صهاريج يجمع فيها ماء السماء والصحاريح منقورة في صخور والثلج به ممكن ، فيقول في وصفه: (١)

وَعَدَدْتُ يَوْمَ الدَّيْرِ مِنْ حَسَنَاتِهِ صَفَحْتُ لِهَذَا الدُّهْرِ عَنْ سَيِّئَاتِهِ
أَعَاشَتْ سُرُورَ الْقَلْبِ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَصَبَحْتُ عُمَرَ الزَّعْفَرَانِ بِضَجَّةٍ
وَأَلْفَتْ شَمْلَ الْأُنْسِ بَعْدَ شَتَاتِهِ عَمَرْتُ مَحَلَّضَ اللّهُوِّ بَعْدَ دُثُورِهِ
تَجَاوَزَ لِي عَنْ صَوْمِهِ وَصَلَاتِهِ وَعَاشَرْتُ مِنْ رَهْبَانِهِ كُلِّ مَا جَنَ

فهو قد تجاوز عن سيئات دهره وما ناله من مصائب فيه ، واعتبر زمن دير عمر الزعفران إحدى حسنات هذا الدهر الذي أساء إليه فكان يذهب إلى الدير ينعم بما فيه من ألوان الجمال الذي بعث السرور إلى قلبه فأحياه بعد مماته ، أما بعد زوال واندثار الدير توجه إلى مجال اللهو والمجون ، وتعود على مجموعة يؤنسونه بعدما تشتت أمر الدير ، فقد عاش كثيراً من رهبانه ممن عرفوا بالمجون وترك العبادات كالصوم والصلاة ، ويواصل قوله واصفاً ما به من روض :

جلا الأقبوان الغض نواز ثغره ومال بغصن البان عن حركاته
وأسكرني بالعذب من خمر ريقه وأمتعني بالورد من وجناته
فلما دجا الليل استعاد سنا الضحى براح نأت بالليل عن ظلماته
نُصَبِيَّةٌ عُمَرِيَّةٌ كَادَ كَرْمُهَا بجوهرها ينهل قبل نباته

(١) الديوان: ٥٧ .

فيصف زهر الأفيون الغض النضر ، وحركته عندما يتمايل بأغصانه مع الريح ، ويصف ريقه العذب مثل الخمر أسكره برائحته الجميلة ، وسعد فيه بالورد جميل المنظر المنسق على جوانب الدير وكأنه على وجنات فتاة جميلة ، وإذا جن الليل عليهم وهم يضحكون ويمرحون حتى كشف نور الضحى ظلمة الليل ، وهم يتناولون كؤوس الخمر المعتقة المأخوذة من كرم الدير الذي أخذ من عنب كالجوهر يتدلى من أغصانه إلى أن قال :

إلى أن تهادى بين نخري ونخره صليب يضوُّع المسك من نفحاته
وخوِّفني منه فخلتُ صليبه لشدة ما نخشا بعضَ وشاته

فهو يصف جمال الدير بوروده التي أصبحت في وصفه و كأنها ساقى خمر يسقيه من وجناته، وفي النهاية يصف أن هناك صليب بين هذا الجمال تنتشر منه الروائح العطرية ، فخاف من هذا الصليب ومن شدة خشيته حسب أن هذا الصليب سوف يشي به ، ويخبر الناس عن المجون وشربه الخمر .

ثامناً : وصف الخمر :

بجالس اللهو كانت كثيرة في ذلك العصر ، وكثر فيها تناول الخمر ، من هنا تناول وصف الخمر وما يتعلق بها .

(أ) وصف لونها وطعمها :

في تصوير مبدع ، وعبارات سهلة ، يقول :^(١)

وَمُدَامٍ كَأَنَّهَا حَشَا الدِّ نَّ صَبَاحٍ مَقَارِنَ بِمَسَاءِ
فَهِىَ نَفْسٌ لَهَا مِنَ الطِّينِ جِسْمٌ لَمْ تُتَمَّعْ فِيهِ بِطُولِ البَقَاءِ
مَا تَوَهَّمْتُ قَبْلَهَا أَنْ فِي العَا لَمْ نَاراً تُذَكِّي بِقَرَعِ المَاءِ

فيصف كؤوس الخمر والخمر بداخلها مثل الصباح والمساء ، فالدن يصورها بالنفس ،
جسمها من طين ولم تدم الخمر فيه طويلاً ، ويقول في تصوير رائع أنه لم يعتقد قبلها أنه يوجد
في العالم ناراً تشتعل بإضافة الماء إليها ، وهذا كناية عن لمعانها ولونها البراق الذي يشبه
اشتعال النار.

ويواصل وصفه لها موضحاً شفافيتها وصفاتها فهي مثل الشمس في الظلمة ، ويصفها

داخل إناء الزجاج وكأنها شعاع يخترق الهواء ، ثم يقول :^(٢)

كَمَ لِلصَّبَابَةِ وَالصَّبَا مِنْ مَنْزِلِ مَا بَيْنَ كَلْوَادِي إِلَى قَطْرِيٍّ لَـ
جَادَتْهُ مِنْ دِيمِ المُدَامِ سَحَابٌ أَعْنَتُهُ مِنْ صَوْبِ الحَيَا المَتَهَلِّلِ
غَيْثٌ إِذَا مَا الرَّاحُ أَوْمَضَ بَرْقُهُ فَرَعُودَهُ حَاثَ الثَّقِيلِ الأَوَّلِ
لَطَّفَتْ مَوَاقِعَ صَوْبِهِ فِسْجَالَهُ تَهْمَى عَلَى كُرْبِ النَفُوسِ فَتَنْجَلِي
يقول أن لرقعة الشوق ومرارته وعذاباته ، ونشاط الشباب ونزواته حكايات ومنازل بين)

كلواذي) وهي إحدى قرى العراق جنوب بغداد ، و(قطربل) وهي قرية شمال بغداد ينسب
إليها الخمر ، ومكان للخمارين ، أمطروا في هذين المكانين بكؤوس الخمر التي أعنته عن نزول
المطر كي يخضب الأرض ويخرج النبات ، فالخمر مطر إذا ظهر برقه جاءت رعوده تحت المطر

(١) الديوان : ٣٦ .

(٢) المصدر السابق : ١٣٦ .

الثقيل على النزول ، فملأت الأواني وشربها المهمومين لتقضي على كرب نفوسهم وضوائقهم ،
التي نزول نتيجة شربهم لها .

(ب) وصف عتق الخمر :

وبعدما تناول مجلسها ودناها ، يتوجه إلى وصف عتقها ، فيقول :^(١)

وعريقة الأنساب والشيم مَوْجُودَةٌ وَالْحَلْقُ فِي الْعَدَمِ
قَدَمْتُ فَلَا تُعْزَى إِلَى حَدِّهِ إِلَّا إِذَا عُنِزَتْ إِلَى الْهَرَمِ

هل آدم الكرم المولّد في الدنيا وَحَوًّا الْخَمْرُ فِي الْقِدَمِ
كُمَلْتُ فضائلها وقصّر عن أَوْصَافِهَا الْإِغْرَاقُ فِي الْكَلَمِ
ظهرت ونور الشمس في فلك مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الصُّبْحِ وَالظُّلَمِ
فانهلّ جوهرها بمنسك لَمْ يُعْتَصَرَ بِيَدٍ وَلَا قَدَمِ
وأشتق معنى اسم السلاف^(٢) لها مِنْ كَوْنِهَا فِي سَالِفِ الْأَمَمِ
فكأنها في صفوفها خلقي وَكَأَنَّهَا فِي عَتَقِهَا كَرَمِي

فالخمر كما يقول أبو الفرج البغاء قديمة عريقة النسب والشيم موجودة قبل خلق

خلق الخلق، فأبوها العنب في الدنيا ، وأمها الخمر قديمة في الدهر ، أوصافها كاملة لا يمكن
للكلام أن يعبر عن هذه الأوصاف ، ظهورها كان مع ظهور نور الشمس قبل خلق الصباح
والظلام ، فهي صنعت من العنب الذي يشبه الجوهر ، فيسكب منه الخمر انسكاباً ، ولم
تعصر بيد ولا بقدم ، وسميت السلاف ، وهو ما نزل من عصير العنب قبل أن يعصر ، لأن

(١) الديوان : (١٥٢) .

(٢) السلاف : ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر ، وهو الخمر ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : سلف) ..

وجودها في سالف الأمم ، وفي صفوها ونقائها تشبه خلق الشاعر ، وكأنها في قدمها وأصالتها
مثل كرم الشاعر ، وأرى أن هناك مبالغة في وصف عتق الخمر وقدمها ، فوجودها مع الشمس
، وقبل الصبح والظلام إنما هو من قبيل المبالغة في نقائها فقط .

تاسعاً : وصف البشر :

بعد أن وصف أبي الفرج البيغاء بعض مظاهر الطبيعة على اختلاف أشكالها ، نجده
يصف البشر ومن هذا الوصف :

(أ) وصف لص :

قال في وصف لص على رأسه عمامة طوق بها :^(١)

وُبدِّلَ من تاجِ العمامةِ بُرْناً يُيَالَعُ في تَقْوِيمِهِ وهو مَائِلٌ
أمالٌ به طويلاً سوى الجسم وهو من زيادته في طولهِ متضائلٌ

فيقول أن هذا اللص كان يضع عمامة على رأسه دائماً يقومها محولاً ضبطها فوق

رأسه وهي مائلة ، ويلبس برنساً ، أي ثوب طويل دائم الحركة فيه يصلح به من وضعه، ولكن
جسمه ضئيل وهذا يسبب عدم ضبط البرنس عليه ، فتحوّلت بذلك العمامة إلى قيد قُيد به .

(ب) وصف منافرة بين سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة :

^(١) الديوان : ١٣٠ .

معلوم القرب ما بين أبي الفرج وسيف الدولة ، حتى أنه يحضر مجالس سيف الدولة الخاصة

، ويرى منافرة بينه وبين أخيه ، فيصفها لنا قائلاً : (١)

في الحلم ما ينهى ذوي الأرحام عما يخالف عادل الأحكام
يا ناظري ويعزُّ أن أقذى ويا قلبي وكيف أروعهُ بملام
لأُعَاتِبَنَّكَ مُبْتِغِيًّا مُسْتَصْلِحًا قبل الظبا بعبارة الأعلام
أسخِطتَ عمداً في عقوبي دولةً ثَبَّتْهَا نَصْرًا بِحَسَنِ قِيَامِي
إن كنتَ ناصرها فأني سيئُها والقتل لا يرضى بغير حُسام
وبكفِّكَ الصمصام (٢) مني فارعه حفظاً ولا تُخدع عن الصمصام
لك في الأبعاد من عُداك شاغلٌ عما تُعقُّ به ذوي الأرحام

فيقول البغاء على لسان سيف الدولة : أن الحلم وسيلة قوية لمنع ذوي الأرحام من أن

يخالفوا الحكم بالعدل وعدم الجور وظلم الآخرين بعضهم . ويعز عليه أن يعكر صفو العلاقة

بينه وبين أخيه مثلما يعز عليه أن يعكر صفو عينيه القذى ، ولا يمكنه أن يروع ويلوم ذوي

الأرحام ، فإنما هو عتاب من أجل البقاء على المودة بين الأخوين فيقول له أن حاول استعداد

شعبه عليه ، وهو الذي حقق الانتصارات بحسن تدبيره وسياسته وحكمته ، فإن كان لك

النصر في دولتي فأنا سيف ، والقتل لا يكون إلا به ، فأنا في يدك سيف بتار مرفوع في

وجه الأعداء فأحفظ هذا السيف ولا تحاول خداعه لأنه عندها سوف يخدعك، وأن كنت

(١) الديوان : ١٤٨ .

(٢) الصمصام : السيف لا يثنى ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : صمم) .

تريد العداء فنهاك أناس أحق بهذا العداء مني ، وهم أعداء دولتنا ، ولا توجه عدائك لي فإن ذلك من عقوق ذوي الأرحام .

وفي النهاية نستطيع أن نقول أن تحضّر العرب وتأثرهم بمناظر الطبيعة الخلابة الساحرة ، من أهم العوامل التي أدت إلى تطور فن الوصف حتى أصبح الشاعر يصف كل ما يحيط بهذه البيئة .

وقد أفرد البيغاء لهذا الغرض قصائد متعددة ، كما أننا نجد متداخلاً مع الموضوعات الأخرى من رثاء وغزل وغيره، لذلك قال ابن الرشيقي القيرواني "الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف" (١).

*

*

*

(١) العمدة ، ابن رشيقي القيرواني : ٩٦/٢ .

المبحث الثاني

الشعر السياسي والاجتماعي

الشعر السياسي والاجتماعي

أولاً : الشعر السياسي :-

أبو الفرج البغراء أحد شعراء الندوة السيفية، إذ عاش في بلاط سيف الدولة طوال حكمه. وشهد حربه الضروس ضد الدولة البيزنطية التي استعمر لظاها أكثر من عشرين عاماً،

فلقد لقي الأمير الحمداني الروم فيما يزيد عن أربعين غزوة^(١). كتب له النصر في معظمها وهزم في بعضها^(٢)، وذاد عن حمى الإسلام وحرمته، وناصح عن البلاد العربية، وقف سداً منيعاً أمام الخطر الرومي، فغل جيوشهم وألحق الهزيمة بصفوفهم، وجاس خلال ديارهم، ووصل إلى بُعد سبعة أميال من عاصمتهم.

ولقد وقف حياته وعمل بكل طاقته على إعداد الجيوش وتهيئتها لمجابهة الخطر الداهم. وكان من الطبيعي أن تترك هذه الحرب الطاحنة والمعارك المتأججة أثرها في شعر الندوة السيفية، فألهمت الشعراء غرر القصائد وأوحت إليهم دُرر المعاني^(٣).

تناول أبو الفرج في خضم هذه الأحداث كثيراً من القضايا السياسية التي طرحت في الندوة السيفية، فوصف الجيش أثناء حربه مع الروم، وبلاء سيف الدولة الحمداني في هذه الحروب، وإصراره على مجابتهم، وحفظ حرمة الإسلام، ثم تناول سيف الدولة في خضم معاركه، ومدح كثيراً من رجالات الدولة الحمدانية. ومن الشعر السياسي الذي أبدع فيه أبو الفرج ما يأتي:

أ- وصف الحرب

تغنى الشعراء في القرن الرابع الهجري ببطولة سيف الدولة، ووصفوا كذلك حروبه ومعاركه مع الروم وغيرهم، ونظموا دُرر القصائد التي يصفون فيها بطولة سيف الدولة وشجاعته في خضم معاركه.

(١) يتيمة الدهر: ١/٥٠.

(٢) شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي: ٢/٣٨٤.

(٣) الديوان: ١٨-١٩.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة : " فإذا ما انتصر الأمير مدحه الشعراء ووصفوا المواقع والتحام الجيوش واقتحام الصفوف واجتياز السهول واستدلال القلل وتخريب المدن وأسر السبايا. وإذا ما انهزم الأمير حاول الشعراء أن يخففوا من وطأة الهزيمة، وأن يتلمسوا له الأعذار ويهونوا من شأن الانكسار... هذه الحياة الحربية العنيفة أوحت إلى الشعراء قصائدهم المستمدة من طبيعة الحروب الكثيرة فأنجحت لنا شعراً من نوع جديد يمجّد البطولة ويباركها ويصف الوقائع ودقائقها. وهو ما اصطالحنا على تسميته (بشعر الحرب)^(١).

ولم يقتصر هذا النوع من الشعر في بلاط سيف الدولة على فئة معينة دون الأخرى بل أخذ الشعراء يتسابقون في هذا المجال.

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن هذا الفن قد حمل لواءه أبو الطيب المتنبي ثم سار على منواله الشاعر أبو فراس ثم يقول : " أما بقية الشعراء أنهم لم يرتفعوا إلى مصاف كل من المتنبي وأبي فراس، على أن ذلك كله لا يمنعنا من أن نذكر أن الشعر العربي قد اكتسب بشعر هؤلاء جميعاً فناً مستحدثاً لمع سنه فترة من الزمان ثم ما لبث بعدهم أن اعتوره الفتور وغلب عليه القصور"^(١).

والواقع أن صورة الجيش في الشعر العربي بصورة عامة جيدة، فقد صور معظم الشعراء كثافته، وكثرة عدده وعتاده، وقوة جنده، فهم يتسابقون من أجل تحقيق النصر أو نيل الشهادة لأن الإيمان القوي بالدين هو الذي يدفعهم لذلك. يقول أومان : "إن المسلم كان يريد أن

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : ٥٦٨-٥٦٩.

(١) المصدر السابق : ٦١٢.

يموت حتى يستطيع أن يجني ثمار الشهادة من العالم الآخر، ولم يكن يعنيه كيف مات، إذ كان قد قتل عدواً قبل موته" (٢).

فها هو البغاء يصف لنا الحرب والخيل ويصورها في حركة دائبة ما بين كر وفر فيقول: (٣)

ومَوْشِيَّةٍ بِالْبَيْضِ وَالرُّغْفِ وَالْقَنَا مُحْبَرَةَ الْأَعْطَافِ بِالضُّمْرِ الْقُبِّ
بعيدة ما بين الجناحين في السرى قريبة ما بين الكمين بالضرب
من السالبات الشمس ثوب ضيائها بثوب تولى نسجه عثير الثرب
يُعَاتِبُ نَشْوَانَ الْقَنَا صَادِحَ الظُّبَا إِذَا التَّقِيَا فِيهَا عَلَى قِلَّةِ الشَّرْبِ
أَعَادَتْ عَلَيْنَا اللَّيْلَ بِالنَّقْعِ فِي الضُّحَى وَرَدَّتْ إِلَيْنَا الصَّبْحَ فِي اللَّيْلِ بِالشَّهْبِ

يصف ميدان الحرب وبه الجنود حاملة السيوف والدروع اللينة الواسعة ، والقنا فوق

الخيل الضوامر التي تتحرك يمينا ويسارا كأنها طائر يرفرف بجناحيه، وفوقه الجنود الشجعان المدججون بأسلحتهم، والخيل وفوقها الجنود في الجيش اللجب يسلبون الشمس ثوب ضيائها عن طرق الغبار المثار تحت أقدام الخيل.. فكل عاشق في الجيش للرمح يتعانق برمحه مع حامل السيف كل منهما يدفع صاحبه عن اللقاء، فحولت الحرب الضحى إلى ليل، وحول لمعان السيوف الليل إلى صباح مشرق، لأن الشمس تعكس أشعتها على لوها اللامع البراق فتصدر أشعتها المعكوسة عليها فيخيل للرائي أنها نهار مشرق بهذه السيوف.

كما أنه يعرض لنا لوحة عن إحدى المعارك، فيقول: (١)

واليوم من غسق العجاجة ليلة والكُرُّ يخرق سَجَفَهَا الممدودا

(١) الإمبراطورية البيزنطية، أومان ١٢٦، نقلًا عن الصراع مع الروم، د. نصرت عبد الرحمن : ١٠١.

(٢) الديوان : ٤٨.

(٣) الديوان : ٧١.

وعلى الصّفاح من الكِفاحِ وصدّقه
والطّعنُ يَغتصِبُ الجيادَ شيائِها
وعلى النفوسِ من الحِمَامِ طلائعُ
وقد استحال البرُّ بحرًا والضحى
رَوْعُ أحالَ بياضَها توريدا
والضربُ يقدحُ في التريكِ وقودا
والخوفُ يَنشُدُ صَبْرَها المفقودا
ليلا ومنحرقُ الفضاءِ حديدا

فهذا اليوم واحد من أيام الحروب التي تحول الجو بسبب حركة الخيول ودورانها حول جنود العدو إلى ليلة مظلمة بسبب التراب المثار تحت أقدام الخيول، وهي تهجم على العدو مختزقة أستار ظلمة الغبار المثار، وسالت على حد سيوفهم دماء الأعداء عندما جد القتال والطعن، وتحول لونها الأبيض إلى لون الورد الأحمر بسبب الدماء، والضرب من جنود سيف الدولة يحث الجياد على التقدم والهجوم خلف جنود الأعداء، والضرب يقدح شراراً في مضمار القتال، كي يشعل نار الحرب والهمة بين الجيش.

ويعود ليوضح صورة الخوف المرسوم على وجوه الأعداء من الموت الذي يلاحق الجنود من جنود سيف الدولة، وتحول البر في خضم المعركة إلى بحر من كثرة تدافع الجنود والخيل والضرب والطعن، وتحول الضحى المشرق إلى ليل مظلم بسبب غبار المعركة، وتحول الفضاء من حولهم إلى درع من الحديد يحمي جنود سيف الدولة، ويحاصر جنود العدو.

وفي صورة أخرى للجيش، يصفه بأنه جند الله المخول له الدفاع عن الإسلام، والقضاء

على أعدائه، فيقول: ^(١)

جيشٌ يفوتُ الطرف حتى لا يرى
ما غاب من أطرافه محدودا

^(١) الديوان: ٧٢ .

ويجيش حتى لا ينطق عديده أحد لكثرة جمعه معدودا
يقضي على الأعداء خيفة بأسه قبل اللقاء تهديداً ووعيدا
وترى وتسمع لمعه وخفوقه فتخال فيه بوارقاً وعودا

فهو جيش كبير لا يعده النظر، من كثرة جنوده وعتاده وعدده، وهو كثير كثرة لا يمكن
عدها وحصرها ، فكأنما جعل الله كل الرايات المرتفعة أعلاماً له والرايات دليل على انتصاره في
كثير من حروبه ضد أعداء الإسلام.

فهو جيش بمجرد تحركه وتوجهه إلى العدو يقضي عليه من خوف اللقاء لأنهم يعلمون أنهم
مطحونون تحت سنابك خيل جنوده، وعلى حد سيوفهم، فترى وتسمع لمعان السيوف ،
وصوت حركاتها ، وحركة أعلامه والهواء يداعبها ، فيخيل للسامع أن هناك
رعداً وبرقاً في السماء .

ويقول في وصف الجيش أيضاً :^(١)

في عارضٍ ضاقت الأرضُ الفسيحةُ عن سُرَّاهِ إذ سألَ فيها سَيْلَةَ العرْمِ
كأنَّه الليلُ لا قربُ ولا بُعْدُ يَخْفَى عليه ولا فَجٌّ ولا علمُ
يهدى الغبارُ إليه الشمسُ كاسفةً كأنَّها فيه سِرٌّ ليس يَنْكَبُ
شقَّ الغضنفرُ آجامَ الرماحِ به والموتُ يُسْفِرُ أحياناً ويلتئمُ
فراسل الدهرِ في الأعداءِ عزمته وكاتب النصرَ عنه السيفُ لا القلمُ

يقول : أن جيش سيف الدولة مثل السحاب في كثرتة حتى ضاقت الأرض الفسيحة عن
جموعه وهو سائر نحو العدو، فهو يسد الأفق بأعداده، ويشبه الليل لا يخفى عليه شيء قريب

^(١) المصدر السابق : ١٤٤ .

أو بعيد، كما أنه يعرف جميع الأماكن فقد سار في الطريق الواسع، والضيق، والجبل، والهضاب، وسيره في طريقه يثير التراب حتى أنه يسد قرص الشمس وكأنها قد كسفت وأصبحت سر في هذا الخضم لكنه غير خفي ويصف سيف الدولة وسط جيشه وكأنه أسد شق غابته عندما اخترق صفوف الأعداء، يرسل إليهم الموت مرة، ويصيبهم بالجراح العميقة أخرى، فاشترك مع الدهر على الأعداء وحملوا عليهم، فحقق النصر بالسيف الذي أجاد جنوده استخدامه، لا بالأقلام التي توجد في يد الأدباء والعلماء.

في مكان آخر يصف الجيش بقوله:^(٢)

في سالبٍ للشمسِ ثوبَ ضيائها بعجاجةٍ ملء الفضاءِ لهامٍ
كالليلِ إلا أنّ ثوبَ ظلامِهِ من عثيرٍ ونجومُهُ من لامٍ
يلقى الدُجى من بيضه بضحي كما يلقي الضحى من نعه بظلام

وصف الجيش بأنه من كثرة عدد جنوده قد سد الأفق وحجب أشعة الشمس كمن سلبها ثوب ضيائها، وهو في هذه الكثرة مثل الليل، لكن ظلامه هو الغبار المثار تحت سنابك الخيل، ونجومه هم الجنود والأشخاص فيتحول الظلام من لمعان سيوف جنوده إلى الضحى المشرق، ويتحول الضحى من كثرة الغبار خلفه إلى ظلام.

لقد كان للحياة السياسية الحربية فضل كبير في توجيه أذهان الشعراء إلى نوع جديد من الشعر يصف لنا تلك الجيوش وصفاً دقيقاً. فلم يقتصر البغاء في هذا النوع من الشعر على تمجيد بطولة سيف الدولة الذي يقود تلك الجيوش ويحقق لهم النصر على الأعداء، وإنما أفرد

(٢) الديوان: ١٥٠.

قصائد لوصف دقائق المعركة والتحام الجيشين وكثرة عدد جند سيف الدولة الذي سد الأفق، وأخذ يفتك بالأعداء، ويطحنهم تحت سنايك خيل جنوده. وقد تردد ذلك المعنى كثيراً عنده وعند معظم شعراء عصره.

ب . المدح

المدح ليس إلا إظهاراً لمحاسن الممدوح وفضائله الشريفة، ونشرها، وهو لا يختلف في طبيعته عن الفخر ، إذا هو لا يخرج من مدح الشاعر لنفسه والتغني بمآثر أهله والاعتزاز بأمجاد قومه : يقول ابن رشيق القيرواني : " والافتخار هو المدح نفسه"^(١).

" كانت المدحة في العصرين الجاهلي والإسلامي تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمه خلقية ودينية لتربية الشباب، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربية. وكل ذلك اضطرماً اضطراراً في المدحة عند شعراء العصر العباسي الأول، مع محاولاتهم الجادة في التطور بمعاني المديح عمقاً وسعة وتنوعاً، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم في هذه الإضافة تزداد خصباً في هذا العصر، وهم في ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة، فإذا مدحوا خليفةً أو والياً أو قائداً تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة، وكذلك الفضائل الإسلامية وتمثلوا أيضاً العدل الذي يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من العبث والفساد.^(١)

والمدح من الأغراض الشعرية التي لا يخلو منها عصر من العصور الأدبية، حيث أنه غلب على سائر هذه الأغراض، وأصبح أهمها عند الشعراء في بلاط سيف الدولة، وذلك لعدة دوافع

(١) العمدة، ابن رشيق القيرواني: ٨٢٤/٢.

(١) العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف: ٢٠٣-٢٠٤ .

منها التقرب للحكام حتى يجزلوا لهم العطاء وينعموا بالحياة الهانئة السعيدة، ويطمئنوا كذلك على توفير مطالب حياتهم وملذاتهم. أو لينالوا الحظوة عند هؤلاء الحكام والوزراء أو بدافع تصوير مشاعر الحب الكامنة وإظهار الأحاسيس الصادقة التي ليس من ورائها أي هدف سوى إظهار هذه المحبة وذلك قليل بسبب ظروف الحياة السياسية والاقتصادية في هذا العصر.

ومدائح البيغاء في سيف الدولة كثيرة حيث تشكل الجزء الأعظم من أشعاره، فمعظم قصائده تظهر ملامح صورة سيف الدولة في عين شاعره البيغاء، فهو لا يخرج عن مدحه له بالشجاعة والرياسة وبالعقل والصدق والكرم والجود والعدل، كما أنه يستمد من شخصيته معظم أفكاره، ويعتمد عليه مادياً بعد الله في تحقيق مطالبه وملذاته، وتوفير الحياة الهانئة السعيدة له.

١. مدح سيف الدولة:

وسط خضم اللقاءات بين سيف الدولة وأعدائه من الروم، وانتصاراته المتعددة عليهم، تناول أبو الفرج البيغاء سيف الدولة بالمدح، لإظهار مفاخره ودوره في محاربة أعداء الله، ونصرة دينه، فيقول: ^(١)

ما المال إلا ما أفادَ ثناءً ما العزُّ إلا ما نَنَى الأعداء
شَحَّتْ على الدنيا الملوکُ وعافها مَنْ لم يُطِغْ في حفظها الأهواء
باع الذي يَفْنَى بما أبقى له ذِكْرًا إذا دَجَّتِ الحُطُوبُ أضواء

^(١) الديوان: ٣٤

^(٢) المصدر السابق نفسه

فهو يقرر حقيقة ثابتة وهي أن المال إن لم يحقق للفرد الثناء والشكر فلا فائدة منه، ولا يدعي الإنسان العز إن لم يحقق هذا العز دفع الأعداء عن الدين والبلاد، فالمملوك أصحاب المروءة والعزة في الدنيا قلائل لأنهم لم يسيروا خلف رغباتهم وأهوائهم الشخصية فسيف الدولة من هؤلاء الذين باعوا ما يفنى وهو المال، بما يبقى وهو العز والمنعة بافتدائه الأسرى من يد الروم بأمواله في حروبه معهم، فهو في الأحداث الجسام والظلمة الحالكة نور.

وفي مدح خلقه، وحكمه يقول: (٢)

وطهارة الخلق الذي لو لم يكن عرضاً من الأعراس كان الماء
ورجاحة الحلم الذي لو حلّ بال هضبات من رضوى نناه هباء
بدرٌ تحققت البدور بأنها ليست وإن كملت له أكفاء

فهو صاحب خلق طاهر لو أنه صور بشيء من عرض الدنيا لكان في طهر الماء، ورجاحة عقله وحكمته لو أنها حملت على هضاب جبل رضى لحوته هباء، فهو بدر تأكدت البدور أنها ليست في كفاءته حتى وإن كان البدر كاملاً في ليلة التمام.

وفي مكان آخر يمدحه أبو الفرج البيهقي يقول: (١)

أن تعلم الأيام موضع عبده من عزّه ومكانه من رائه بشواهد الخلع (٢) التي
يغدو بها متطاولاً شرفاً على نظراته
فمن العجائب حبس توقيع له وموقع التوقيع من شفعائه

(١) المصدر السابق : ٤٠ .

(٢) الخلعة: بالكسر ما يُخلع على الإنسان ، وخيار المال ، ينظر القاموس المحيط ، (مادة : خلع) .

(٣) الديوان : ٦٧ .

فالأيام تعرف مواضع كرمه، ودلائل عزته ومكانته من خلعه وعطاياه التي يغدقها على من حوله فائقاً بها في شرف وعزه على نظرائه، فمن العجائب أن ينكر فضله أحد ممن منحهم العطايا، وكان قبل ذلك ممن قد شفع فيهم وافتداهم بأمواله.

وتمدحه في موضع آخر قائلاً:^(٣)

وإن رأى المتناهى من سيادته إلى المحل الذي لم يرقه أحد
يقتضي لي حظاً من مكارمه يُعري على العدى من أجله الحسد
فالشمسُ تدنو ضياءً وهي نازحةً والسحبُ تروى ومن أوطانها البعدُ

فهو يقول أن سيادته عالية بعيدة المنال، لا يمكن لأحد أن يصل عطاياه في شرفه وكرمه وعزته ومنعته، فعندما يمنحه إحدى عطاياه فإن ذلك يشجع أعدائه عليه ويجعلهم يجسدونه ويحقدون عليه، فكرمه مثل ضوء الشمس حتى وهي تغرب تمد الكون بالضوء، وهي بعيدة يصل ضوءها إلى الأرض، والسحب تسقط أمطارها فتروي المكان الذي تنزل فيه من بين الوطن بكامله الذي قد لا يسقط فيه المطر.

ويواصل مدحه لسيف الدولة قائلاً:^(١)

سَقَتِ الْعِهَادُ^(٢) خَلِيطَ ذَاكَ الْمَعْهَدِ رِيًّا وَحِيًّا الْبَرْقَ بَرْقَةً تُهَمِّدِ
قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الْجِيَادِ عَوَابِسَا شُغْنًا وَلَوْلَا بِأَسِهِ لَمْ تَنْقَدِ
فِي جَحْفَلٍ كَالسَّيْلِ أَوْ كَاللَّيْلِ أَوْ كَالْقَطْرِ صَافِحِ مَوْجِ بَحْرِ مُزِيدِ
مَتَوَقِدِ الْجَنَابَاتِ يَعْتَنُقُ الْقَنَا فِيهِ اعْتِنَاقٌ تَوَاصِلٍ وَتَوَدُّدِ
مَتَعَنَجِرِ بَطْبَا الصَّوَارِمِ مُبْرِقِ تَحْتَ الْغَبَارِ وَبِالصَّوَاهِلِ مُرْعِدِ

(١) الديوان: ٧٣.

(٢) العهد: مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله، ينظر القاموس المحيط، (مادة: عهد).

لقد سقت المطر المعهودة الأرض المعهود نزول المطر فيها، وقدم البرق التحية إلى (برقة) و(تهمد) وهما مكانان، وهذا وقف على الأطلال مقلداً بذلك القدماء في بداية مدحه، ثم يتوجه إلى مدح سيف الدولة بأنه قاد جيشه في همة وجد مكشراً عن أنيابه إلى أجياد العدو، ولو لا قوته وبأسه لم تتقدم هذا الجحافل إلى قتال العدو. و يتقدم جيشه الكبير الذي يشبه السيل العارم، أو الليل الذي سد الأفق، أو كالمطر المنهمر الذي ينزل في بحر يعلوه الزبد، مشتعل الحماس مدجج بأسلحته وكأنه يعتنقها في تودد وتواصل وحب، ومسلح بالسيف الصارم القاطع اللامع مثل البرق تحت غبار أقدام الخيل المرعبة بصهيلها لقلوب الأعداء.

ويواصل أبو الفرج البغاء وصفه لسيف الدولة في حروبه مع الروم فيقول: ^(١)

وهل يترك التأييد خدمةً عسكراً	وإقدام سيف الدولة العَضْبِ قائده؟
عفت عن سَمْدُو ^(٢) خيله وتنجرت	بخرشنة ما قدمته مواعده
وزارت به في مواطن الكُفر حيث لا	يشاهد إلا بالرماح مشاهد

فهو يستبعد أن يتخلى التأييد والتوفيق عن عسكر يتقدمهم سيف الدولة ، لأنه موقن بالنصر له، فها هي جنوده استطاعت أن تحقق النصر على الروم في (سمندو) وهي بلد وسط الروم غزاها سيف الدولة سنة ٣٣٩هـ، وهرب منه الدمستق، واستولى على (خرشنة) وهي إحدى بلاد الروم قرب ملطية، وتقدم في بلاد الكفر بهذا الجيش الضخم ولا يشاهد إلا والرماح في يده يحصد الأعداء حصداً ، ويحقق النصر في مواقع ومشاهد عديدة.

ويستمر في مدحه لسيف الدولة فيقول: ^(٣)

^(١) الديوان : ٨١ .

^(٢) سمندو : قلعة بالروم غزاها سيف الدولة ، ينظر القاموس المحيط: مادة سمند .

يقابلنا البدر من بُرِّده ويشملنا السعد في سعده
ولو فخرَ المجد لم تلقه فخوراً بشيء سوى مجده

فبعيداً عن ساحة الحرب، يقول أبو الفرج أن طلعة سيف الدولة على مجلسه مثل البدر
يلبس حلته، وعندما يخرج عليهم يغمرهم بالسعد الذي هو جزء من سعده وعطائه. ولو أنه
تفاخر بمجد لم تجده يتفاخر إلا بما حقق من مجد وانتصار فعلي، وهو هنا يصف تواضعه مع
كرمه وحسن أخلاقه.

ويعود ليصف سيف الدولة وسط جنوده، فيقول: ^(١)

يسعى إلى الموت والقنا قِصْدٌ وخيلُهُ بالرؤوس تَنْتَعِلُ
كأنه واثقٌ بأن له عُمراً مُقيماً وماله أجلٌ

فهو في شجاعته وإقدامه يسعى مع جيشه إلى الموت في قتاله أعدائه، ويدوس بخيله على
رؤوس أعدائه، وكأنها تتخذها نعلاً وأحذية، وهو في تقدمه في صفوف الأعداء كأنه واثق أنه
لن يموت وكان عمره خالد مقيم وليس له نهاية، وهذه مبالغة ممقوتة في مدح سيف الدولة، لأن
الخلود لا يكون إلا لله وحده.

ومدحه أيضاً بقوله: ^(٢)

وكيف يُقْهَرُ مَنْ لَهِ يَنْصُرُ مِنْ
إِنْ سَارَ سَارَ لَوَاءُ الْحَمْدِ يَاقِدُهُ
دُونَ الْوَرَى وَبَعَزَّ اللَّهُ يَعْتَصِمُ
أَوْ حَلَّ بِهِ الْإِقْبَالُ وَالْكَرْمُ
كُثْرُ الْعَسَاكِرِ إِلَّا أَنَّهَا هِمَمُ
يَلْقَى الْعِدَى بِجِيوشٍ لَا يَقَاومُهَا

^(٢) الديوان : ٨٣ .

^(١) الديوان : ١٢٦ .

^(٢) المصدر السابق : ١٤١ .

لَمَّا سَقَى الْبَيْضَ رِيًّا وَهِيَ ظَامِئَةٌ مِنْ الدَّمَاءِ وَحُكْمُ الْمَوْتِ يَحْتَكُمُ
سَقَّتْ سَحَابُ كَفِّهِ بِضِيْبِهَا دِيَارَ بَكْرِ فَهَانَتْ عِنْدَهَا الدِّيمُ

يستبعد أبو الفرج أن يتخلى الله عن نصرته من ينصره وينصر دينه ويعتصم بعزة الله، كما فعل قبل ذلك، فهو أن تقدم إلى قتال الأعداء انتشر خبر سيره قبل ذهابه، وإذ سار في طريق سبقت عطاياه وكرمه، يواجه الأعداء بجيوش لا قبل لهم بها، عسكره كثر ولديهم همم وعزائم قوية مقبلة على قتال العدو بشجاعة غير خائفين من الموت، أو لقاء العدو والظعن والضرب، فهو وجنوده يسقون سيوفهم الظامئة بدماء العدو وينفذون فيهم حكم الموت، فهو بكرمه يشبه يديه بالسحب التي تنشر الخير على الأرض، حتى شملت ديار بكر التي غزاها.

ويستمر في مدحه لسيف الدولة ومدح كرمه وشجاعته فيقول: ^(١)

نَدَاكَ إِذَا ضَنَّ الْغَمَامُ غَمَامُ وَعَزْمُكَ إِنْ قُلَّ الْحُسَامُ حُسَامُ
فهذا ينيلُ الرزقَ وهو مُمَنَّعٌ وذاك يردُّ الجيشَ وهو هُتَامُ ^(٢)
ومن طلب الأعداء بالمال والظُّبَا وبالسعد لم يبعد عليه مرَامُ

فهو كريم وكرمه لا ينقطع حتى إذا انقطع الغمام الذي هو سبب في نزول المطر، وعزمه قوي لا يضعف حتى وإن ضعف الحسام، فهو حسام بتار، فكرمه يعطي الرزق في وقت امتناعه، وعزمه وسيفه يرد الجيش وإن كان كثيراً يلتهم كل شيء، ويوضح أن من طلب جهاد الأعداء وقتالهم بالمال والسيف والسعد والعزة لم يبعد عليه هدف أو غرض أو أمنية، كذلك سيف الدولة يستخدم كل ما لديه من مال وسلاح لتحقيق النصر المؤزر، والمجد الرفيع.

^(١) الديوان: ١٤٣.

^(٢) اللهم: الجيش العظيم الكثير، الذي يلهم كل شيء، ينظر القاموس المحيط، (مادة: لهم).

وتمدحه في موضع جديد، وهو أن سيف الدولة كان قد أمر بضرب دنانير خاصة
للصلاط في كل دينار منها عشرة مثاقيل، وعليه اسمه وصورته، فأمر لأبي الفرج منها بعشرة
دنانير، فقال الأبيات الآتية التي زاده عليها عشرة أخرى.^(٣)

نحن بـجُودِ الأميرِ في حَرَمٍ نَرْتَعُ بين السَّعودِ والنَّعمِ
أبدعُ من هذه الدنانير لَمْ يَجْرُ قديماً في خاطرِ الكَرَمِ
فقد غَدَتْ باسمه وصورته في دهرِنا عُوذَةٌ من العَدَمِ

فيقول أنه وأصحابه بكرم الأمير سيف الدولة في حرم ومنعة وقوة، ينعمون ويلهون
في نعمه وسعده، لقد أبدع في صنع هذه الدنانير التي تعد سبق لم يفعله أحد قبله ممن عرفوا
بالكرم فهي دنانير أصبحت بسبب صورته عليها واسمه في زمان الشاعر حصن من الفقر
والعدم، وقيمة من نوازل الدهر.

٢. مدح عدة الدولة:^(١)

وبعد تناوله في مدحه لسيف الدولة الحمداني، والذي يلاحظ أنه أكثر في مدحه، وهذا
طبيعي جداً لأنه صاحب نعمة وفضل وجود وكرم عليه وعلى علماء وأدباء عصره، يتوجه إلى
مدح كثير من رجالات الدولة الحمدانية، فهما هو يمدح عدة الدولة أبي تغلب بن ناصر الدولة
في رسالة وجهها إليه بعد وفاة سيف الدولة يذكر فيها رغبته في قصده وإيثاره الانتطاع إليه
وذلك في سنة ٣٥٨هـ، فيقول:^(٢)

^(٣) الديوان: ١٤٩.

^(١) عدة الدولة: أبو تغلب بن ناصر الدولة الحمداني أمير الموصل، توفي سنة ٣٦٧هـ.

^(٢) الديوان: ٣٩.

وأنا الذي عُلِّمْتُ من طَلَبِ الْغِنَى كيف الطريقُ إلى الْغِنَى برجائه
فظللتُ مخصوماً بحمدِ عُفَاتِهِ وغدوتُ ممدوحاً بشُكْرِ عَطَائِهِ
وأفدتُ قدماً مُعْجَزَاتِ فضائلي من نورِ فطنتِهِ وناهِ ذكائِهِ
فإذا نطقتُ نطقتُ من ألفاظِهِ وإذا وهبتُ وهبتُ من نُعمَائِهِ

فهو قد تعلم كيف يطلب الغنى، وما الطرق المتبعة إلى تحقيق ذلك من خلال رجائه في
عطاء عدة الدولة، فقد كان قبل عدة الدولة بعيداً عن عطائه وهذا يعتبر عيباً أن لا يمدح
عدة الدولة، وأصبح بعد ذلك يحمّد ويمدح بأنه يشكر عطاء عدة الدولة، فقد أفاد من قربه
لعدة الدولة. كثير من الفضائل بسبب ذكائه وفطنته الشديدة، ولذلك فهو قد تأثر به فإذا
تحدث كان كلامه مأخوذاً من كلام عدة الدولة، وإذا أعطى فإنما يعطي من نعم عدة الدولة
وعطائه عليه ومنحه.

ويواصل في رسالته مدحه لعدة الدولة، فيقول: (١)

فما يقدحُ الفقرُ في حالهِ ولا يطمعُ الدهرُ في قَصْدِهِ
وكيف وقد صارَ ضيفَ الغمام وهو قريبٌ على بُعْدِهِ ؟
ومن علقْتُ بأبي تغلب يداهِ احْتَدَى البدرِ مِنْ سَعْدِهِ
هماًمٌ قضى اللهُ من عَرْشِهِ له بالإمارةِ في مَهْدِهِ
فطود السيادةِ في دستهِ وشمس الرياسةِ في بُرْدِهِ

فلا يقربه الفقر لكثرة نعمه، ولا يصيبه الدهر بمصائبه ونكباته وكأنه محصن من هذين، فهو
ضيف على الغمام رغم بعده في السماء لكنه أصبح قريباً، ولعله يكتفي بالغمام عن خيراته

(١) الديوان: ٨٢.

(٢) المصدر السابق: ١١٩.

وغناه وماله الوفير، فمن قُرب من عدة الدولة أصبح سعيداً لدرجة أن البدر يقتدى به ويريد القرب منه، شجاع همّام قدر الله له أن يكون صاحب رياسة وإمارة وهو ما زال في المهد طفلاً وهذا دليل على حسب ونسب عدة الدولة الممتدة في الإمارة والملك، فلا سيادة إلا في مجلسه وعرشه، ولا إمارة إلا في برده وثوبه، فهو جدير بهم لأنه سليل الإمارة والسيادة. ويقول أيضاً (٢):

فمن نظرٍ سارع في صلاحه ومن وصفٍ يحثُ على نفاقي
فإنعام أسرُّ من التداني على عدم أفضَّ من الفراق

فهو يرغب في الوصل مع عدة الدولة وينظر في مجلسه، وينعم بعطائه وإن التداني إليه لهُو أشد من نيران الفراق، فهو لا يريد أن ينافق في وصفه ولا يريد التداني في طلبه للعطايا، ويفضل الفراق رغم مرارته على القرب المخلوط بالذل والتدني والنفاق.

٣. مدح بهاء الدولة: (١)

واستمراراً لمدح رجال الدولة، يمدح بهاء الدولة، فيقول: (٢)

أعدتْ سعودَ بهاءِ الدولةِ الفلكُ الأعلى فما فيه نجمٌ غيرُ مسعودٍ
وقابلَ العيدَ منه حينَ قابله من ملكه كل يومٍ منه في عيدٍ
وليس يرضى مساعيك التي بهرتُ بأن يهنأ موجودٌ بمفؤودٍ

(١) بهاء الدولة: هو أبو نصر فيروز بن عضد الدولة بن بويه جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بني بويه، توفي سنة ٤٢٣هـ، ينظر السيف المهند في سيرة الملك المؤيد: ١٧٠.

(٢) الديوان: ٧٥.

فالاختصار على ذا الحكم أبلغ في صفات فضلك من إغراق تجويد

الشاعر أخذ يعدد منحه وعطاياه التي وصلت إلى الفلك الأعلى، ويعدد حظه السعيد في نجوم فلكه فما وجد في فلكه واحد غير سعيد، والعيد في ملكه لا يأتي مرتين أو ثلاث، بل إن كل يوم من أيامه عيد، ولا يمكن أن يرضي فضله وعطاؤه ووصاله التي فاقت الوصف والعقل أن تكون السعادة بالموجود وعلى حساب المفقود، والاكتفاء بهذا الكلام أبلغ وأفصح في وصف فضله على الإفراط والمبالغة في المدح والوصف لهذه الخصال.

وأيضاً في مدح الوزير أبي نصر، الملقب ببهاء الدولة، يقول في أبيات له حكى عنها القاضي أبو علي التنوخي قال: دخل أبو الفرج عبد الواحد البيغاء على الوزير أبي نصر سابور بن أردشير^(١) وقد نثرت عليه دنانير وجواهر فأنشدها قائلاً: (٢)

نثروا الجواهرَ واللجينَ وليس لي شيءٌ عليه سوى المدائح أنثُرُ
بقصائدٍ كالدُّرِّ أن هي أنشِدتْ وثناً إذا ما فاح فهو العنبرُ

وأبو نصر سابور رجل من رجال الدولة البويهية، استوزر في (٣٨٠هـ) والشاعر يمدح الوزير بأنه نثرت عليه حبات الجوهر والفضة، وليس مع البيغاء سوى قصائد الشعر فهو ينثرها عليه في مدحه، هذه القصائد كالدُّرِّ لو أن وثناً سمعها، وكان له رائحة تخرج منه لكان عنبراً في جمال الرائحة وسحرها، وهذا من ثقته بشعره وجودته وحسن سبكه وصياغته.

٤. مدح الوزير المهلبي:

(١) أبو نصر سابور بن أردشير: هو وزير بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة بن بويه الديلمي؛ كان من أكابر الوزراء، ولد بشيراز ٣٣٦هـ وتوفي ببغداد ٤١٠هـ. ينظر وفيات الأعيان: ٣٥٩/١.
(٢) الديوان: ٨٥.

هو الوزير المهلبي الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون، من ولد المهلب بن أبي صفرة الأردني أبو محمد من كبار الوزراء الأدباء الشعراء، أتصل بمعز الدولة بين يديه فكان كاتباً في ديوانه ثم استوزره، وقربه المطيع العباسي الخليفة واستوزره، فجمع بين وزارة الخليفة ووزارة السلطان، ولقب بذي الوزارتين، وكان ذا حزم ودهاء وكرم وشهامة، ولد في البصرة

(٢٩١هـ)، وتوفي في واسط (٣٥٢هـ)^(٣)، فمدحه أبو الفرج قائلاً:^(٤)

وفي الحقيقة لولا أن مُعْتَقِلِي عن السُّرَى جودُ سيفِ الدولةِ الملكِ
لما اقتصرْتُ على غيرِ المسيرِ إلى من حظه في المعالي غيرِ مشتركِ
لكنه فلكُ الفُضْلِ المحيطِ وما من عادةِ الشمسِ أن تنأى عن الفلكِ

فهو يدين بالفضل لسيف الدولة ويوضح أنه أسير فضله ونعمته ولولا ذلك لما قصر في مدح وتفخيم صاحب المعالي والرفعة دون منازع، لكنه فلك يدور في الكون من فضل وعطاء وخير حولنا، فهو دائم مستمر على الكرم والجود فليس من عادة الشمس أن تبتعد عن فلكها أو مجرتها المحددة لها.

٥. مدح سعد الدولة:

وهو ابن سيف الدولة، لما لأبيه من أياد على أبي الفرج البيغاء فهو يقول:^(١)

لا غيثٌ نُعمَاهُ في الورى خُلِبَ الـ بَرَقَ ولا وِرْدُ جوده وَشَلُّ
جَادَ إلى أن لم يُبَقْ نائِلةً مَالاً ولم يَبَقْ للورى أَمَلُ

^(٣) أنظر وفيات الأعيان: ٢٥٣/١.

^(٤) الديوان: ١٢٣.

^(١) الديوان: ١٢٥.

إن كرم عطائه وفضله على الخلق من حوله لا ينضب أبداً، فهذا مثل الغيث المنهمر الذي يخالطه البرق فيزيده، وليس كرمه ينقطع مهما حدث، فهو لا يشبه البئر قليلة الماء، فهو يفيض دائماً، ويعطي ويمنح ويجود حتى لا يترك سبباً من أسباب الجود لم يطرقه، وبذلك قطع كل أسباب المنح والعطاء على الخلق فهم لا يعطون عطائه، ولا يجدون أبواباً للعطاء هم لم يطرقوها.

٦. مدح أبي العشائر:

من الأسرة الحمدانية أيضاً مدح أبو الفرج الببغاء أبي العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان، وقد ضرب بسيف في يده هامة جمل ففصلها، فقال فيه: ^(١)

ما الفعل للسيف إذ هُزَّت مضاربه فمرّ محتكماً في هامة الجمل
لكن كَفَّكَ أَعْدَتُهُ بجرأتها وفتكها فمضى يهوى على عجل
ولو سوى كفك المعروف صالاً به نبا ولو كان مطبوعاً من الأجل

فهو يمدح قوته، وخاصة قوة يده وهي ممسكة بالسيف وهوت به على هامة الجمل فكانت الضربة القاضية، دليل على جراءة هذه اليد وفتكها، ولو أن كفاً غير كفك أمسكت بالسيف وحاولت فعل ما فعلته يدك لفشلت ولو كانت دائمة الإمساك به ، ودائماً تقتل وتفتك .

٧. مدح أبي محمد جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني: ^(٢)

^(١) المصدر السابق: ١٣٤.

^(٢) ابن ورقاء : هو جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني ، ولد بسامراء سنة ٢٩٢ هـ ، تقلد عدة ولايات ، توفي سنة ٣٥٢ هـ ، ينظر فوات الوفيات ، محمد بن شاکر الکتبي : ٢٩٥/١ ، وينظر الأعلام : ١٢٨/٢ .

وهو شاعر كاتب جيد البديهة و الروية من الولاة ، اتصل بالمقتدر العباسي فكان يجريه
بجرى بني حمدان ، وتقلد عدة ولايات ، وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر ،
قال فيه أبو الفرج: (٣)

جَادَ رُبْعًا حَلَلْتَهُ يَا هِمَامُ من ندى كَفَّكَ العزير رهامُ
فَقْبِيحٌ إِنْ أَسْتَزِدْتَ لَهُ صَوُّ بَ غَمَامٍ وَأَنْتَ فِيهِ غَمَامُ
مَا بَأَرْضٍ لَمْ تَبْدُ فِيهَا صَبَاحُ ما بدارٍ حَلَلْتَ فِيهَا ظِلَامُ
وَإِذَا مَا حَلَلْتَ فِي بَلَدٍ فَه و جَمِيعُ الدُّنْيَا وَأَنْتَ الْأَنَامُ
سَوْدُودٌ عِنْدَهُ التَّفَاخُرُ ذُلُّ وندى عنده الكرامُ لئامُ
وَسَجَايَا كَأَنَّهَا الرُّوضُ إِلَّا إنها للعدوِّ موتٌ زؤامُ

فيصف كرمه بأنه أينما حل هذا الهمام الشجاع، وأي مكان أو وادٍ نزل فيه، نزل المطر
العزير بشير الخير من كفه، مطر كرمه لا ينقطع أبداً، فهو في هذا المكان الموجود فيه غمام
يحمل المطر، ولا احد يشابهه في وجوده، وأي أرض أنت لم تطأها بقدمك فليس لها صباح،
وكل دار نزلت بها لا يقربها الظلام، وأي أرض نزلت فيها فهذه الأرض وهذا البلد هو الدنيا
كلها، وأنت فيه جميع البشر.

فهو سيد صاحب عز وسيادة التفاخر في حضرته بأي وجه من أوجه الكرم والعطاء ذل؛
لأنها لا تصل إلى ما عنده من الجود، وإعطاء وكرم الكرام في حضرته لئوم وسوء خلق، فهو

(٣) الديوان : ١٤٥ .

سيدهم. وله طباع وخلق ومزايا مثل الروض اليانع على أحبائه، لكنها على أعدائه موت محقق لا مفر منه، ويقول: ^(١)

أنتم أنفُسُ العُلا يا بني ورُ
قاء والناسُ كلُّهم أجسامُ

فهذا تصوير جميل، فقد جعل بني ورقاء نفوس، والناس جميعهم أجساد، هذه الأجساد لا تحيا بلا نفوسهم، فهم سر حياة الناس، وبغيرهم يموتون.

وكما لاحظنا من قبل فإن أبا الفرج لم يخرج في مدحه عن الموضوعات التقليدية المعروفة كما أنه نهج في بعض قصائد المديح نهجاً تقليدياً، حيث استهل بعض قصائده بذكر الأطلال والغزل، ويقول الدكتور سعود عبد الجابر: " ولقد سلك في بعض قصائد المديح مسلكاً تقليدياً من ذكر الأطلال في المقدمة إلا أنه لم يستهل كل قصائد المديح بذكر الأطلال أو الغزل، إذ أنه في كثير من قصائده يدخل إلى المدح مباشرة دون مقدمات " ^(١)

٨. رثاء سيف الدولة :

كان سيف الدولة ذا نعم وعطايا وسخاء على شعراء عصره مما جعلهم يمدحونه في حياته، ويبيكون ويتفجعون عليه بعد موته، ومنهم أبو الفرج البغاء الذي يتفجع عليه أصدق التفجع بل يتميز قلبه عليه من الأعماق عندما يمر بمغانيه بعد وفاته فهاهو يقول: ^(٢)

عجباً لي وقد مررتُ بأبياتك كيف اهتديتُ سُبُلَ الطريق
أتراني نسيتُ عهدك فيها صدقُوا! ما لميتٍ من صديق

^(١) الديوان: ١٤٥.

^(٢) مقدمة الديوان: ٢٣.

^(٣) الديوان: ١٢٠.

فعندما زار البيغاء دور الأمير الحمداني سيف الدولة بعد وفاته أخذ يتفجع على رحيله، فهو يتعجب كيف اهتدي إلى الطريق وقد مر بأبياته، فهو يعاتب نفسه، ويخشى أن يكون قد نسي عهد سيف الدولة في هذه الدور، ويؤكد أن من ادعى نسيانه هذا العهد فقد صدق لأنه ليس لميت صديق فقد رحل، فعلام صداقته.

ومن قوله بعد وفاة سيف الدولة: (٣)

خلف المدائح بعدك التائبين عن أي حادثةٍ يُعزّي الدينُ
ما كان في الدنيا كيومك مشهداً بهرّ العقول ولا نراه يكونُ
لم يبق محذوراً فكلُّ مصيبةٍ جَلَلٌ لديه وكلُّ خطبٍ دُونُ

فيقول أنه ليس هناك شيء نفعله بعد مدحك في حياتك، والآن قد رحلت فما لنا إلا البكاء والثناء عليك، فأنت برحيلك قد خسرت الدين رجلاً كان يدافع عنه، والآن يعزى الدين فيك، فليس في الدنيا يوم كان مثل مشهدك قد بهر العقول، ولا يمكن أن يتكرر مرة أخرى، فلم يعد شيء ممنوعاً في الحزن عليك، فكل مصيبة عظيمة في الدهر وكل حدث جليل لا يصل إلى قسوة وشدة مصيبة فقدك ورحيلك عن الدنيا.

٩. رثاء أبي المكارم :

وهو ابن سيف الدولة الذي توفي سنة ٣٥٤ هـ، فيقول: (١)

سرورنا بك فوق الهمم بالنُوب فما يغالبنا حزن على طرب

(٣) المصدر السابق: ١٥٥.

(١) الديوان: ٤٩.

إذا تجاوزت الأقدارُ عنك فهل من واجب الشكرِ أن يُرتاع من سبِّ
حَتَمَ تخدعنا الدنيا بزخرفها ولا تحصّلنا منها على أربِ
نُسّرُ منها بما تُجنى عواقبه همّاً ونهربُ والآجالُ في الطلبِ

فهو يصف سروره بأبي المكارم الذي بلغ درجة تفوق درجة الحزن على ما أصابه من نوائب الدهر، فلا يزيد الحزن عليه ، على السعادة به، فلو أن الأقدار تجاوزت عنه وتركته، فعلياً أن نقدم واجب الشكر ولا يمنعمهم من ذلك مانع، لكن الدنيا حتماً تخدع الجميع بزخرفها ولا يحصل منها الإنسان على هدفه ، فنحن نفرح بها عندما ننجى من همومها ونغالب مشكلاتها وأحزانها ، ولكن إذا جاءت الآجال إلى نهايتها نريد أن نفر منها لكن الفرار يكون من الدنيا إلى الآخرة ويعلق الدكتور مصطفى الشكعة على هذه الأبيات فيقول: " وإن استفتاح قصائد الرثاء والعزاء بذكر السرور والطرب أمر بجانب للذوق كل المجانبه مهما كان الدافع إلى ذكرهما "(1)

١٠. رثاء أبي اليقظان عمار بن نصر :

ومن رثاء رجال الدولة رثاء أبي اليقظان ، فقال فيه : (2)

أمر بدار عمار بن نصّر فأمنحها التحيةَ والدموعا
وأستحي رباها أن يراني بها حياً وقد أودى صريعا
وكنت بها أروُد العيشَ غضاً بلبلبة وأنتجع الربيعا
فغمرني في سحابتها انسكاباً وتوسعي أهلتها طلوعا
فليت كما بها عشنا جميعاً وحمّ جمأمه متنا جميعاً

(1) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : ٢٩٤ .

(2) الديوان : ١١٢ .

فهو عندما يمر على دار عمار بن نصر يقدم لها التحية ويسكب عليها الدموع حزناً على من كانوا يسكنون فيها ، ومن شدة حزنه على من كانوا فيها ، فهو يستحي من رباها أن تراه حياً وأصحابها قد أصبحوا صرعى ، فقد كان ينعم في هذه الدور ، وتلك الروابي برفه العيش ، ورغد الحياة ، فتغمره بسحبها أمطاراً غزيرة تنسكب انسكاباً ، وتتولى عليه الأهله في طلوعها عليه وهو في تلك الروابي اليانعة ، وبعد هذه الحياة السعيدة التي عاشها في هذه الديار مع أصحابه وأحبابه وأصحاب النعمة عليه يتمنى أن يأتيه الموت ، فيموتوا معاً ، لكن الموت فرقهم ، ذهب بهم وأبقاه هو .

ومما لا شك فيه أن رثاء البيغاء رغم ندرته وقصر مقطوعاته ، إلا أنه يعكس لنا أحاسيسه ومشاعره التي تفيض حسرة ولوعة على محبة الذي فقده ، وهذا الغرض في نظر النقاد يعد من أصدق أغراض الشعر العربي ، لأن الشاعر يندفع فيه إلى الرثاء اندفاعاً ذاتياً يجعله يعبر عما يجول في نفسه من انفعالات تجاه الميت .

*

*

*

ثانياً: الشعر الاجتماعي .:

وبعد استعراضنا للشعر السياسي الخاص بكل شؤون الإمارة والأمراء والحرب والجيش عند البيغاء، نعرض هنا نماذج من شعره الاجتماعي البعيد عن السياسة ومجالس الملوك والأمراء،
ومنه :-

١- المدح :-

(أ) مدح الفضائل :-

انتشر في عصر البيغاء شعراء - وهو واحد منهم - مدحوا الصفات الشريفة كالشجاعة،

والجود، والكرم، وحسن الأخلاق، والفضائل، فقال في الأخيرة: (١)

(١) الديوان: ٧٠٠ .

وما شرفُ الإنسانِ إلا بنفسه وإن خصه جدُّ شريفٍ ووالدُ
كان كلَّ الناسِ أبناءُ آدمٍ فأفضَلُهُم من فضَلته المحامِدُ إذا

فليس هنا شرف يفخر به الإنسان إلا إذا حققه هو حتى لو كان ذا جدٍ شريف أصيل
ووالد كريم الأصل فنحن جميعاً نعلم أن كل الناس أبناء آدم ولا تمييز بينهم سوى ما فعل الفرد
بنفسه من محامد ومكارم وأفضال .

(ب) مدح غلام :-

توجه الشاعر بمدحه إلى غلام خرج غازياً ، فقال :^(٢)

يا غازياً أتت الأحزانُ غازيةً إلى فؤادي والأحشاء حين غزا
إن بارزتك كماه الروم فارمهم بسهم عينيك تقتل كل من برزا

فهو مشفق على هذا الغلام الذي خرج غازياً في صفوف الجيش الذاهب لملاقاة الروم ،
فعندما خرج غزت الأحزان قلب الشاعر وأحشائه حزناً على المصير الذي سوف يلقاه في
القتال . فيقدم له النصيحة ، فإذا بارزته جنود الروم المدججة بالسلاح يكفيه أن يرميهم بسهم
عينيه، فيقتل كل من ظهر منهم له يريدون قتاله ، وإنما يدل ذلك على براءة هذا الغلام وتلك
البراءة مساندة من الله .

(ج) مدح الكتاب وأصحاب الأقالام :-

وبعد مدحه لغلام خرج غازياً، توجه بمدح فئة هامة في المجتمع وهم فئة الكتاب، فيقول:^(١)

^(٢) المصدر السابق: ١٠٣ .

^(١) الديوان: ١٢٧ .

ذو يراعٍ تَرْتَاغُ منه القنا السُّمُرُ وتقضي بما ارتضاه النَّضَالُ
سمهري تبث في سائر العا لم منه الأرزاق والآجيا
دقَّ جسماً وجلَّ قدراً فما أعطي ذَيْن الوصفين إلا الهلال
ما وثقنا بحمْلِهِ لجسيم الخطبِ إلا مُدبِّ فيه الهزلُ

فصاحب القلم تمتاز تحت أقدام كلماته الرماح السمر وتحكم بحكم السيوف في الأعداء،
فهو ذو قوام متناسق - أي القلم - يُسطر بسنة في جميع العالم الأرزاق والأعمار، فجسمه
نخيف، ومكانته عظيمة ولم ينل هذين الوصفين إلا الهلال في السماء في أول الشهر، وما
تأكدنا أنه قادر على حمل مسئولية المهام والمسئوليات الضخمة والخطيرة إلا عندما رأيناه قد
سرى فيه الهزال والضعف، وهو يقصد بكثرة كتابته، الدفاع عن الحقوق، وصد الهجوم ومنع
الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(د) مدح ذوي الأخلاق :-

فهو رجل يحب الفضائل ويفخر بها ، ويمدح أصحابها ، فيقول : (١)

من كلِّ مُتَسِعِ الأخلاقِ مبتسمٍ للخطبِ إن ضاقت الأخلاقُ والحيلُ يسعى به
البرقُ إلا أنه فَرَسٌ في صورة الموتِ إلا أنه رَجُلٌ يلقى الرماحَ بصدرٍ منه ليس له
ظَهْرٌ وهادي جواد ماله كَفَلٌ ما كلُّ متسع الأخلاقِ مبتسمٌ للخطبِ
إن ضاقت الأخلاقُ والحيلُ

ومن بين أصحاب الأخلاق الفاضلة تجد منهم مبتسم في الإقبال على الأحداث الجسام
حتى وأن ضاقت ونفذت الأخلاق والحيل والخطط، فهذا الرجل يسعى بسرعة البرق ، لكنه

(١) الديوان : ١٢٨

(٢) المصدر السابق : ٩١ .

فرس جاء في صورة الموت لأعدائه وهو في النهاية رجل آدمي امتلك من الجرأة والإقدام والشجاعة ما جعله يواجه رماح الأعداء بصدرة وليس هناك حماية تحمي ظهره أثناء المواجهة، وبقدر ما يراه حقيقة لأصحاب الأخلاق ، فليس كل أصحاب الأخلاق يتسمون في مواجهة الخطوب وقت الضيقة ، وتفلت الحيل ، وعجز العقل عن التدبير .

(هـ) الفخر بصبره :-

والشاعر يقوم هنا بالفخر بنفسه التي اتسمت بالصبر على المصائب فيقول: (٢)

صبرت ولم احمد على الصبرِ شيمتي لأن مآلي لو جزعتُ إلى الصبرِ والله في أثناء كلِّ
مُلمّةٍ وإن آلمت لطفٌ يحضُّ على الشكرِ وكل فرجٍ و اليأسُ يحجبُ دونه
أتاك به المقدورُ من حيث لا تدري

فهو يفاخر بصبره على الشدائد، ولم يثن على أن الصبر صفتة، لأن مآله ونهايته حتى لو
جزع وقنط إلى الصبر، والله يلطف ويخفف كل نازلة ونائبة أصابته مما يدفعه إلى شكر الله على
لطفه به في شدائده، والله بتوفيقه يأتيك بالفرج بعد الضيق حتى وأن أصابك اليأس، فإن قدر
الله يأتيك من حيث لا علم لك به، فهو صاحب القدرة المطلقة التي لا تحدد بمكان، ولا
بزمان، ولا بمقدار.

(و) مدح الشجاعة والإقدام :

فقال في مدح رجل ناصره وأيده: (١)

فإن رأى لا أراه الله نائبةً من الزمان ورعاه من الغير
أن يجعل النُجْحَ لي باباً إليه وأنَّ يَخْصَّ حسن رجائي فيه الظفر

فهو يوجه إليه دعاءه، بأن لا يريه الله أي مصيبة أو نازلة من نوازل الزمان، وأن يرعاه
من غدر الأعداء لأنه جعل التوفيق والفلاح ملك يمين الشاعر عندما يناصره ويؤيده، وأنه
يحقق له أمانيه وآماله في النصر والفوز على خصومه. وفي المدح أيضاً يقول: (٢)

جُزيتَ أفضل ما يُجزاه ذو كَرَمٍ أخلاقه في دياجي دهره شُعْلُ حماه وهو
غلامٌ غيرٌ مكْتَهَلٍ عن المطامع فضلٌ فيه مُكْتَهَلٌ

فيدعو لممدوحه بأن يجزيه الله أفضل جزاء يناله أصحاب الأخلاق الكريمة وأصحاب الجود
والعطاء، فأخلاق ممدوحه في جبين الزمان المظلم شعل مضيئة بالخصال الحسنة، فالله حماه
وهو مازال صبيماً لم يصل إلى درجة اليافعين عن المطامع بفضله وكرمه الذي يضرب له فيه
القدم، فهو صاحب كرم وجود كما أنه رجل تاريخه طويل في العطاء، لكن سنه مازالت صغيرة

لقد دارت مدائحه البعيدة عن السياسة ومجالس الملوك والأمراء كذلك حول الصفات
الفاضلة في ذلك العصر وهي الشجاعة والإقدام وشرف الأصل والعفة والمجد والصبر والجود
والكرم وغيرها.

٢- الرثاء:-

(١) الديوان : ٩١ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٧ .

ويتوجه أبو الفرج الببغاء برثائه إلى شخصيات عامة ، بعدما رأينا رثاءه إلى رجالات الدولة

الحمدانية وعلى رأسهم سيف الدولة الحمداني ، والعديد غيره ، فيقول: ^(١)

ولو قُبِلَ الفدا لكان يُفدى
وإن جَلَّ المصائبُ عن التفادي
ولكنَّ المنونَ لها عيونٌ
تكدُّ لحاظها في الابتعادِ
فقلْ للدهرِ أنتِ أصبتِ فألب
س برغمك دوننا ثوبِي حَدادِ إذا قدمت خاتمة
الرزايا فقد عَرَضتَ سوقك للكسادِ

فيتمنى أن يقدم الفدا لافتداء من يرثيه رغم أن المصاب يعظم على الفداء والتضحية ، فالمنون لها عيون تراقب البشر وتجتهد في ملاحظة من تقصده ، فإذا جاءت حوادث الدهر ومصائبه فهو صائب وحاول أنت أن تحمي نفسك إذ استطعت بلبس أثواباً من الحديد ، فإذا جاءت نهاية المصائب وهي الموت فاعلم أن سوقك قد كسد وتجارتك قد بارت، ولا مفر من النهاية المحتومة وهي نهاية الأجل، أي الموت.

ويقول أيضاً: ^(١)

ما بأل دارك حين تُدخِلُ جَنَّةً
وبباب دارك مُنكَرٌ ونكير

فهو يتعجب وقد خلت ديار من يبكي عليه من أصحابها بعدما كانت جنة وأرفة ناعمة عندما يدخلونها يتجاذبون الأحاديث، والمدارس الأدبية والعلمية، والآن تبدلت الدار

^(١) الديوان: ٧٦.

^(١) الديوان: ٨٩.

الدينيوية، إلى دار أخروية وهو القبر الذي ضم جثمانه وضيوفه هما منكر ونكير، يجالسونه للحساب بعد الموت.

ويواصل رثاءه فيقول باكياً على أصحاب النعمة عليه: (٢)

يا سادتي هذه نفسي تُودِّعُكُمْ إذ كان لا الصَّبْرُ يُسْلِيها ولا الجَزْعُ
قد كنتُ أَطْمَعُ في رَوْحِ الحِياة لها فالآن إذ بنِمْ لِمَ يبقَ لي طَمَعُ
لا عَذَّبَ اللهُ رُوحِي بالبقاء فما أَظنني بعدكم بالعيش انتفعُ

فهو يتوجه إليهم في حسرة يودعهم، فلا الصبر ينسيها أيامكم ولا الجزع يردكم إلينا مرة أخرى، فأنا في حياتكم قد كنت أطمع في زخرف الحياة ومباهجها وترفها ونعيمها، أما الآن وقد فارقتمونا، وفرق بيننا الموت، فلا حاجة لي في العيش بعدكم، فإن بقاء روعي بعدكم معذبه، أتمنى من الله أن يريحها باللاحق بكم، فأنا لا أقبل العيش ولا أنتفع به مادمتم فارقتم الحياة.

وهذا دليل على شدة تعلقه بمن يرثيه، لدرجة أنه لا يقبل الحياة بعدهم، ولا يلذ بها، ويتمنى اللحاق بهم.

وقال في رثاء آخر: (١)

لا عَذَّبَ اللهُ مِيتاً كان يُنْغِشُنِي فقد لقيتُ بُضْرِي منه مالاقي
طَواهُ مَوتٌ طَوى عن مَكارِمِهِ فَدُقْتُ من بعده بالموت ما ذاقا

(١) المصدر السابق: ١١١.

(٢) الديوان: ١٢٠.

يدعو له بألا يعذبه الله لأنه كان يسعده في حياته ، فهو من بعد موته قد أصيب بمصائب
ورزايا الدهر مثلما لاقاه من يرثيه ، بموته فقد اخذه موت حرم عنه مكارمه وفضله عنه ، فذاق
الشاعر من بعد موت من يرثيه ما ذاقه من آلام الموت وانقطاعه عن الدنيا وعن مباحجها.
ومن رثاه ما أثار فيه الحزن الشديد عندما أتى العيد عليه ولم يجدهم حوله، فقال: ^(١)

من سرَّه العيدُ فما سريني بل زاد في همي وأشجاني
لأنه ذكّرني ما مضى من عهدِ أحبّابي وإخواني

لقد أسعد العيد أناس، لكنه لم يسعدني، بل زاد في همي وأحزانه لأنه ذكره بما مضى من
عهد أحبّابه وإخوانه الذين كانوا حوله ينعم بينهم بالعيش.

٣- الإخانيات :-

هذا اللون من الشعر يهتم بتصوير ما بين الأفراد من عواطف ومشاعر وصلات خاصة
بين الشعراء وممدو حبيهم أو بينهم وبين الأصدقاء والأحباب، فهو يهدف إلى إظهار الود
والمحبة والشوق.

فمن الطبيعي جداً أن تكون هناك صداقات وعلاقات بين الناس لا تنتهي، وتسجل بأي
شكل، أهم هذه الأشكال هو صياغتها في قالب شعري خاصة إذا كان من ينشر حب الأخوة
شاعر ذكي قوي الصياغة، جيد العبارة.

^(١) المصدر السابق: ١٦٤.

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة : "كان لعلاقات الود والمحبة والصدقة بين الأدباء أثرها في ارتقاء الشعر الإخواني الذي كانت تتجلى فيه عادة آيات المودة والصفاء بين الأصدقاء والأحباء " ^(١). ومن أمثلة ذلك ما يلي :-

(أ) قصائد الود والشوق .:

كتب أبو محمد يحيى بن محمد بن سليمان الأزدي إلى أبي الفرج البغاء في الموصل يتشوقه بعد خروجه من بغداد ، فإجابة أبو الفرج فقال ^(٢):

بُقْرَبِكَ مِنْ بَعَادِكَ أَسْتَجِيرُ وَهَلْ فِي الدَّهْرِ غَيْرُكَ مِنْ يُجِيرُ
نَأَيْتَ فَمَا لَسَلَوَائِي دُنُوُّ وَغَبَيْتَ فَمَا لِلذَّاتِي حُضُورُ
وَقَدْ صَاحَبْتُ إِخْوَانًا وَلَكِنْ مَتَى تُغْنِي عَنِ الشَّمْسِ الْبُدُورُ
فِيَا مَنْ رُعْتَ مِنْهَا الدَّهْرَ قَدَمَا بِمَنْ تَسْمُو بِخَدْمَتِهِ الْأُمُورُ
وَمَنْ قَدَّرْتُ أَنَّ لَهُ نَظِيرًا فَحِينَ طَلَبْتُ أَعُوزِي النَّظِيرُ
إِذَا كُنْتَ السَّرُورَ وَغَبَيْتَ عَنِّي فَكَيْفَ يَتَمَّ بَعْدَكَ لِي سُرُورُ

فهو يستجير بصاحبه لأنه هو الذي يمكنه أن يجيره في هذا الدهر، ومما يستجير؟! يستجير من بعده عنه رغم قربه إلى نفسه وقلبه، فقد ابتعدت عني وليس من ينسيني ويسليني في بعادك، وعندما غبت عني فليس لي رغبة في أي لذة للحياة، ولست راغباً فيما كنت اشتهيه وأنت معي، فقد صاحب كثير من الإخوان والأصحاب ولكن ليس بينهم واحد يغنيني عنك، مثلما لا تغني البدور عن وجود الشمس، لأن الشمس هي التي تمد البدور بنورها فأنت من

^(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : ٤٠١ .

^(٢) الديوان : ٨٧ .

قدّرت أنه له نظيراً، لكنني حين طلبت النظر لم أجده، فأنت السرور بالنسبة لي، لكنك غبت عني، ولذلك فلا يتم لي سرور بعد بُعدك.

ومن الإخوانيات ما ذكره أبو الحسن التنوخي قال : كنت أزور أبا الفرج (البيغاء) دائماً

مع القاضي أبي محمد أخي رحمه الله ، فتأخرنا عنه لشغل عرض لنا ، فكتب إلينا ، فقال :^(١)

ذخرت أبي نصرٍ لحظّ أنالهُ فَبَلَّغني أقصى المنى ببني نصرٍ وجدتهم الذخرَ القديمَ ولم
أكنُ علمت بأن الذخر يُعزى إلى الدهرِ

فيقول: إنني ادخرت أبا نصر لحظ أريد نواله، فنلت أقصى الأمنيات في بني نصر، فلقد

وجدتهم الادخار القديم، ولم أكن أعلم أن الادخار يسند إلى الدهر، لوقت حاجة سوف تأتي

في يوم من الأيام، فقد بعدتم عني ولم أجداكم حين طلبتكم، فماذا أفاد ادخاري لكم.

(ب) قصائد في قيمة الأخوة الصادقة:-

يقول البيغاء :^(١)

رسائلُ إخوانِ الصفاءِ كثيرةٌ ولكنَّ إخوانِ الصِّفاءِ قليلٌ

فكثيرة تلك الرسائل التي ترسل بين الأخوان، ولكن الإخوان الأصفياء المخلصين قليلاً ما

تجدهم في إشارة منه إلى (رسائل إخوان الصفاء) الكتاب الشهير.

^(١) الديوان: ٩٣ .

^(١) الديوان: ١٢١ .

يقول صاحب الإمتاع والمؤانسة عنهم "إنهم جامعين لأصناف العلم، وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان البستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، والعوفي وغيرهم، وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصدافة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها، وسموها "رسائل

إخوان الصفاء" وكتبوا فيها أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ووهبوا الناس"^(١).

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: "كان بين كل من الشعارين الكاتبين أبي الفرج البغاء وأبي إسحاق الصابيء مودة ورحمة، يتكاتبان ويتراسلان، هذا من حلب وذاك من بغداد، وكان كل منهما يتمنى لقاء صاحبه، فاتفق أن توجه البغاء إلى بغداد مرة وأبو إسحاق معتقل، فلم يصبر عنه، فزاره في محبسه، ثم انصرف عنه، ولم يعاوده فكتب إليه قصيدة"^(٢) ورد عليه أبو الفرج فقال: ^(٣)

يا ماجداً مذيماً المجْدَ ما نكصُ وبَدَرَ تمام مُذ تكامل ما نُقِّصُ

^(١) الإمتاع والمؤانسة، ابن حيان التوحيدي، نقلا عن ظهر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، ط: ١٤٢/٢.

^(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ٤٠٦.

^(٣) الديوان: ١٠٧، ١٠٨.

سَتَخْلُصُ من هذا السَّرارِ ^(٤) وأيما هَلالٌ تواری بالسَّرارِ فما خَلَصُ
برأفةِ تاجِ المَلَّةِ الملكِ الذي لسؤدده في خطة المشتري خِصَصُ
تقنَصَتْ بالألطفِ شكري ولم أكنُ علمت بأن الحرَّ بالبر يقتنصُ
أتني القوافي الباهرات تحمل الب مدائع من مستحسن الجد والرخصُ

هذه القصيدة قيلت في الرد على الصابئ الذي فرقت الأيام بينه وبين الببغاء ، فقد سجن
عضد الدولة (فنا خسروا) أبا إسحاق الصابئ، واستصفى أمواله وذلك في حين قتله عز
الدولة (بختيار بن أحمد بن بوية الديلمي) وكان الصابئ كاتب (بختيار) على ديوان الإنشاء،
فزاره الببغاء في السجن ثم قطعه ، فكتب إليه قصيده، فرد عليه أبو الفرج بقصيدته السابقة.
يناديه بالمجد الذي تقدم وتوجه لنيله، وهو من ساعتها صاحب مجد لم يتراجع عنه،
وهو أيضاً مثل البدر ليله التمام، ومنذ أن اكتمل مجده لم يتجه إلى النقص، وبقي على تمامه.

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة : " لا شك أن هذا اللون من المساجلات الإخوانية
والمداعبات الشعرية بين الأصدقاء من الشعراء يعد شيئاً جديداً بالنسبة للفنون الشعرية في ذلك
العصر وخاصة إذا اعتمد على ناحية خاصة وصفة بعينها بين الشاعرين بحيث يجعل منها مادة
للتجديد في المعاني وتوليد الصور وإرسال المداعبات، فقد جعل أبو إسحاق الصابئ من صفة
أبي الفرج الببغاء مادة سخية للمداعبات والإطراف، وكان كل من الصابئ والببغاء موصفين

^(٤) السرار : مستهل الشهر أو آخره أو وسطه ، انظر القاموس المحيط ، (مادة : سر) .

بالظرف ولذلك اتسعت دائرة المساجلات الفكهة بينهما بحيث أضافت إلى الشعر لونا من
البدائع والطرائف زاد في لطافته وفكاهته أن الأديبين قد جمعا بين ناصيتي النظم والنثر"^(١).

وفي النهاية نستطيع أن نقول أن البغاء في معظم أشعاره الإخوانية لسيف الدولة يعبر عن
إخلاصه وولائه له، فحبه له لا يتغير بتغير الزمان والمكان بل هو مستمر في كل حين، وهدفه
من وراء ذلك كسب وده حتى يستمر ينبوع العطاء في تدفقه لينعم بالحياة الهانئة السعيدة التي
ارتضاها لنفسه.

كما أن هذا اللون من الشعر لم يقتصر على سيف الدولة وحده ، وإنما هناك مساجلات
إخوانية متعددة له مع الشاعر الصابئ وهي تحتل جانبا عظيماً من شعر البغاء الإخواني كما
سبق الحديث عنها ، وقد وصفها الدكتور مصطفى الشكعة بأنهما إمامين في شعر المودة
المرسوم بالفكاهة والظرف وحسن التعليل .

٤- الحكمة :-

كعادة العرب جميعاً وهم أصحاب خبرات وتجارب، لأنهم واجهوا معترك الحياة بكل
حسناتها وسيئاتها يوردون الحكمة في قصائدهم، وكأنها جزء لا يتجزأ من بناء القصيدة.

(أ) فقال أبو الفرج البغاء في الحكمة:^(١)

^(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ٤١١ .

^(١) الديوان: ٤٧ .

وصلاخُ الأجسام أسهلٌ ولكنْ في صلاحِ العقولِ يَعني الطيب

فإصلاح فساد الأجسام وأمراضها يسهل وفي الإمكان، ولكن أن تصلح عقل إنسان،
وتغير تفكيره، هذا ما يصعب على الطبيب ولا وسيلة إلى النجاح فيه.

ويقول أيضاً: (٢)

لا تَسْتَكُنْ لطوارقِ النُوبِ والِقِ الخطوبَ بوجه محتسب
فدنوّ ما تَرْجُوهُ من فَرَجٍ يأتي بحسب تكاثفِ الكُرب
كم خائف من هلكة سبباً نال النجاةً بذلك السبب

فهو يقف موقف الناصح الحكيم المحرب، ويتوجه إلى من يجزع من نوائب الدهر
مصائبه ويدعوه ألا يستسلم لها ويقابلها باحتساب الأجر عند الله، ويتسم حينها، فالفرج
الذي يرجوه عندما تشتد به الخطوب إنما يأتي على حسب كثرة الكرب والشدائد، وكثير من
الناس يخاف أن يهلك بسبب شيء معين، ويفاجأ بأن هذا السبب وراء نجاته لا هلاكه.

(ب) ويقول في ظلم الأقارب: (١)

للظلم ما بين الأقربين مَضَاضَةٌ والذُّ ما بين الأبعد أَرْوَحُ فإذا أتتكَ من الرجال قوارصُ
فسهائمُ ذي القُرْبى القريبة أَجْرَحُ

(١) المصدر السابق: ٥٠ .

(٢) الديوان: ٦٢ .

فالظلم بين الأقرباء له أثر شديد من المقاطعة، وعدم الوصال والجفاء والبعد، إلا أن الذل على مرارته بين الغرباء أخف وطأة وأثراً، فإنك إن تصب من الرجال البعيدين عنك بجروح فهي أهون من سهام ذي القربى، لأنها أكثر إيلاماً، وأكثر أثراً.

(ج) ويقول في الندم على ما فات: (٢)

لا تأسَفَنَّ لأحد فاتٍ مطلبُهُ هياتَ ما فائتُ الدنيا بمرْدودِ
إذا اقتضته أخذتُ نقداً وإن سئلت فَبَدُّها بالأمانِ والمواعيدِ

لا تندم على ما فاتك من فرص، لأن ما فات ورحل لن يعود أبداً مرة أخرى، مثلما أنت إذا طلبت ديناً لك في عنق أحد أخذته كاملاً غير منقوص مرة واحدة، ولكنك إذا استدنت من احد وسألك دينه سوفته، وما طلت في سداد ما عليك، وأخلفت مواعيد السداد.

(٢) المصدر السابق: ٧٩.

(د) ويقول في حال الدهر مع الناس: (١)

لقد صحبتُ الدهرَ صحبةً عارِفٍ متعودٍ لصلاحه وفساده
وخبرته فرأيتُ ذنبي عنده فضلي وأعجزني دواء عناده
ومن البلية أن تُداوي حِقْدَ مَنْ نَعَمُ إلا له عليك من أحقادِه

فقد جرب شاعرنا الدهر وصاحبه على ما فيه من علّات وفساد أو صلاح وإحسان، وأختبر الدهر فوجد أن الفضل والإحسان فيه ذنب، ولا يمكن إصلاح عناد الدهر، فهو متقلب غير ثابت، ومن البلياء، والمصائب الكبرى أن تحاول علاج أحقاد من يتوجه إليك بحقدِه، رغم أنك تريد إصلاحه .

(هـ) ويقول في ضرورة أن يبني الإنسان مجده بنفسه: (٢)

إذا المرءُ لم يبين افتخاراً لنفسه تضايقُ عنه ما أبتنته جدوؤه
ولا خير في من لا يكونُ طريقُهُ دليلاً على ما شادَ قُدماً تَلِيدُهُ (٣)

فالإنسان إذا لم يحقق عملاً يفتخر به، فإن ما فعله أجداده لا يستحقه، ولا يحق له أن يفخر به، ولا يمكنه الاستفادة منه، ولا خير فيمن لا يتخذ طريق الأجداد دليلاً، ومرشداً يقوده إلى البناء والتجديد، وإكمال ما بدأه القدماء في العصور الغابرة، ولا يكتفي بمدح هذا القديم، فهذا عجز ونقص.

(و) ويقول في حال الدنيا: (٤)

(١) الديوان: ٨٣ .

(٢) المصدر السابق: ٨٤ .

(٣) التلاد، والتليد والمثلد: ما ولد عندك من مالك أو نتج وتلد المال يتلد ويتلد وتلوداً انظر القاموس المحيد (مادة : تلد).

(٤) الديوان: ١٢٤ .

هي الدنيا تقولُ بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
ولا يغرنكمُ حُسْنُ ابتسامي فقَوِي مُضْحِكُ والفعلُ مُبْكِي

فيقول : الدنيا كما تعرفوا غادرة، وهي تقول صراحة أحذروني أحذروني فإن بطشي
وفتكي شديد، فلا تغتروا بأني ابتسم في وجوهكم، إلا أن قولي مضحك، ولكن فعلي يؤدي
إلى البكاء، وهذا دليل على غدر الدنيا، فهي تظهر بزخارفها وزينتها، لكنها غادرة سرعان ما
تنقلب إلى مأسٍ وأحزان، فيجب عدم الاطمئنان لها، واتخاذ الحذر منها.

(ز) ويقول في أحوال الناس: (١)

وأكثر من تلقى يسُرُّك قَوْلُهُ ولكن قليلٌ مَنْ يسُرُّك فِعْلُهُ
وقد كان حَسْنُ الظنِّ بعضَ مذهبِي فأدَّبني هذا الزمانُ وأهْلُهُ

أوضاع الناس فيما بينهم ، غريبة ، فتلقى كثيراً من الناس كلامهم معسولاً حلواً ، ولكن
عندما ترى أفعالهم تجدها عكس الأقوال ، فلا صدق فيها إلا القليل ، وكان من خصالي
وأخلاقي إحسان الظن بالجميع ، لكن هذا الزمان ومن فيه من البشر جعلوني أتخلى عن
إحسان الظن بهما : أي الزمان وأهله ، فقد وجد منهما الغدر والخيانة .

(ح) وقال في الموقف من الأعداء: (٢)

ومن طلب الأعداء بالمال والظُّبَا وبالسعد لم يبعد عليه مرأٌ

فمن جاهد الأعداء بكل وسيلة يمتلكها سواء بالمال، أو بالحرب والقتال، فسوف

(١) الديوان: ١٣٨ .

(٢) المصدر السابق ١٤٣ .

يحقق ما يطلب، ولا يصعب عليه ذلك.

(ط) وله قول في ضرورة الحفاظ على عزة النفس، فقال: ^(١)

ما الدُّلُّ إلا تحمُّلُ المِنَنِ فُكُنْ عزيزاً إن شِئْتَ أو فَهِنِ
إذا اقتصرنا على اليسيرِ فما الـ علَّةُ في عَتَبِنَا على الزَّمَنِ

فالذل من وجهة نظره أن يقبل الإنسان نعمة من أحد، ودائماً يذكره بهذه النعمة، ويذكره أنه صاحب فضل عليه، فهو بذلك يَمُنُّ عليه بنعمته، وهنا ينصح الشاعر ويقول إما أن تعيش سعيداً عزيزاً فلا تقبل فضل وعطاء من لئيم يمن عليك فضله، وإما أن شئت فعش ذليلاً، صاغراً، فما الذي يضرنا لو أننا قنعنا باليسير، ولا نعاتب الزمن على قلة عطائه، وبذلك نحفظ لأنفسنا بماء وجوهنا، وعزة نفسنا.

(ك) وقال في حال الصبا، وحسن الجوار: ^(٢)

فليالي الصبا أسرُّ ليالٍ وزمانُ الهوى ألدُّ زمانٍ
وأسرُّ البلاد ما حمد السا كُنْ فيها خلائقَ الجيرانِ

فليالي الشباب هي أسعد وأسر ليال عاشها الإنسان لأن فيها المرح والنشاط، وزمان الهوى أطيب زمن نعم فيه الفرد بالراحة والسعادة الروحية، وأكثر البلاد سروراً وسعادة وطيب مقام هي البلاد التي تحسن فيها علاقات الجيران، فلا تطيب الحياة بجوار شقي، خارج عن الآداب والأخلاق الطيبة.

^(١) الديوان: ١٥٨.

^(٢) المصدر السابق: ١٦٤.

وإن دلت هذه الحكم على شيء فإنها تدل على كثرة تجارب البغاء وأنه إنسان عركته الحياة حتى أصبح حكيماً بها، والملاحظة الثانية أن البغاء لم يفرد قصائد كاملة لشعر الحكمة وإنما كانت تأتي مبعثرة بين أغراض شعره الأخرى.

٥. الشكوى:

ذاع هذا الغرض الشعري في القرن الرابع الهجري، خاصة بين فئة من الشعراء الذين عانوا شدة الفقر والعوز، وقاسوا من هموم الزمان، لأن معاناتهم في تلك الحياة القاسية كانت السبب الرئيسي في ازدهار هذا الفن، فهي أبو فراس الحمداني لا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من الشكوى التي تجسد معاناته في الأسر، لذلك قال عنه الدكتور مصطفى الشكعة: " إن أبا فراس كان إمام الشعر في الشكوى والعتاب" (١) .

يقول أبو فراس موضحاً معاناته في الأسر: (٢)

أقول وقد ناحتُ بقربي حمامةً أيا جارتا ، هل باتَ حالكِ حالي؟ معاذَ الهوى ما
ذقتِ طارقةَ النوى ولا حرتِ منكِ الهمومُ بيالي ! أتحمّلُ محزونَ الفؤادِ
قوادمُ على عُصنِ نأيِ المسافةِ عالٍ ؟ أيا جارتا، ما أنصفَ الدهرُ بيننا
تعالِيْ أفاستِ الهمومُ تعالي !

وبذلك نجد أن الحياة الاجتماعية القاسية قد ولدت هذا اللون من الشعر، الذي يعن فيه

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ٢٨٧ .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني: ٣٢٥/٢ .

الشعراء من آلام الفقر والعدم المسيطرة على أنفسهم ، فشكوا وذموا الزمان الذي أصابهم بذلك، واستمروا في تسجيل أشعارهم التي تصور تلك الحياة القاسية .

ولقد أشار البغاء في بعض أشعاره إلى معاناته في الحصول على العيش الطيب ، وتوفير وسائل المتعة التي يسعى للحصول عليها .

ومن موضوعات الشكوى التي تناولها البغاء ما يلي :

(أ) الشكوى من الفقر :-

فالبغاء يشير في بعض شعره إلى المحن والأزمات التي مرت به ومنها على سبيل المثال معاناته بعد وفاة سيف الدولة حيث أصبح لا يجد ما يأكله ، مما أضطره إلى بيع ثوبه وفراشه، فهاهو يقول مصوراً فقره الشديد: (١)

سألت زماني بمن استغيث فقال استغيث بعميد الجيوش نبث بي داري وفَرَ العبيد
دُ وأودت ثيابي وبعثت فروشي وكنت ألقب بالبغاء قديماً فقد مزق الدهر ريشي
وكان غذائي نقي الأرز فما أنا مُقتِع بالحشيش

(ب) التبرم والشكوى من أبناء الزمان وسوء طباعهم :-

أصبح البغاء يرى كل شيء في حياته معيماً فلا شيء بنظره يستوجب المدح والثناء ، فهاهو يشكوى سوء طباع أبناء زمانه ، ويسيء الظن بهم فيقول: (٢)

(١) الديوان: ١٠٦.

(٢) المصدر السابق: ٤٣.

أكلٌ وميضٌ بارقةٌ كذوبٌ أما في الدهر شيءٌ لا يريبُ تشابهتُ الطباغُ فلا
دنيءٌ يَحْنُ إلى الثناءِ ولا حسيبٌ وشاعَ البخلُ في الأشياءِ حتى يكادَ
يشخُّ بالريحِ الهبوبِ فكيفُ أخصُّ باسمِ العيبِ شيئاً وأكثرَ ما تشاهدُهُ معيبُ

(ج) شكوى الدهر :-

الجميع له أحوال في الدهر لا يجد فيها من يسانده ، فيتوجه بالشكوى إلى ما أهمه ،
ومنه قول أبي الفرج البغاء في الشكوى من الدهر ونكباته التي أحاطت به ، وليس هناك سبيل
للتخلص من ذلك إلا بالصبر والتحمل فيقول :^(١)

هي حالان شدةٌ ورخاءٌ ومجالان نعمةٌ وبلاءٌ والفتى الحازمُ اللبيبُ إذا ما
خانهُ الدهرُ لم يَحْنُهُ العزاءُ وإذا ما الرجاءُ أسقطَ بين الناسِ فالناسُ
كلُّهم أكفاءُ

فالدنيا لا تخرج في علاقتها مع البشر عن حالين ، فهي إما شدةٌ وعسرٌ وكربٌ ، وأما رخاءٌ
ويسرٌ وسهولةٌ ، وهي كذلك لا تخرج عن مجالين إما نعمةٌ وسعادةٌ ، وإما بلاءٌ ومصائبٌ ،
والفتى الذكي الحازم الحكيم إذا خانهُ الدهرُ وأصابه بالكرب والنكبات ، وجد من عزائه لنفسه
قوة يستعين بها على الدهر ونكباته ، وإذا الرجاء لم يجده بين الناس ولم يجد منهم مسانداً له
فالناس كلهم أعوان للدهر عليه ، فعليه أن يبحث عن عزمه وقدرته على التحمل لتخطي
شدائد الدهر .

(د) شكوى حظه :-

^(١) الديوان : ٣٣ .

ويتوجه بالشكوى إلى من يندب عنده حظه من أصحاب النعمة عليه ، فيقول : (١)

ما بال حظي أراه الآن مُنتَقِصاً وسائل الناس من جَدُّوك في نِعَم

فهو يشكو أن حظه أصبح الآن منتقصاً ، ضائعاً ، قليلاً عند أعوانه وإخوانه من

أصحاب الإمارة والسلطة ، وغيره من الناس ينعمون بنعم الأمير وفضله .

وبالنهاية نستطيع أن نقول أن البغاء لا يهتم بالشكوى كثيراً في شعره بالرغم من معاناته،

لذلك نجد شعر الشكوى عنده قليل وربما يرجع ذلك إلى طبيعته المرححة التي لا تهدف إلى

إشاعة أجواء الألم والحزن ، أو يرجع ذلك إلى شخصيته الفذة التي تتصف بالانزان والتعقل

والصبر والتجلد .

٦. العتاب .:

" وهذا الفن من الفنون التي تجيش بالعواطف الزاخرة التي يحملها الشاعر نحو صديق

كان بينهما مودة وحب ، ثم طرأ على علاقتهما ما شابها وعكر صفوها ، فيعمد الشاعر في

عتابه إلى لون من المؤاخذة الرقيقة التي يذكر فيها ماضي ودهما ، ويفصل فيها ما كان يربط

بينهما من علاقات طيبة في شيء من التقريع الذي يعنف حيناً ويرق أحياناً " (٢)

فالعتاب هو الوجه الآخر لعلاقة الصداقة وأواصر المحبة بين الأصدقاء ، فهو لا يقتصر

على الأصدقاء فقط وإنما يشمل كذلك الأمراء وذوي النقود والسلطات .

(١) الديوان: ١٥٣ .

(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ٣٨٤ .

والعتاب من الموضوعات الوجدانية العميقة عند بعض الشعراء لأن مع وجود الأصحاب والإخوان لابد من وجود العتاب بينهم على ما وقع من بعضهم : فقال أبو الفرج في العتاب أبياتاً يوجه عتابه فيها للأحياء والأخوة والأحبة .

(أ) عتاب حي من أحياء العرب فقال :^(١)

ما بال حيِّ بالأراك نزلتُهُ ضيفاً فَضَنَّ َ وشيمةُ العَرَبِ القرى

فهو يعاتب حي من أحياء العرب بمكان يسمى الأراك ، نزل فيه الشاعر على أهله ضيفاً ومن المفترض أن يقدم واجب الضيافة له ، ولكنه لم يجد من يفعل ذلك معه ، وبخلو عليه رغم أن إحدى الصفات المشهودة لدى العرب هي إكرام الضيف .

(ب) عتاب الأخوة :

وبعد عتاب حي بأكمله يعاتب الأخوة على جفاهم ، فيقول :^(٢)

أأخي وما أحلى دعائك يا أخي هذا وقد جرحت مُدَاك فؤادي أتضيمني وأبي أبوك
وإنما التفضيل بالآباء والأجداد وبلادك الدنيا ولم تجذب ولا استوبلتها
فلم انتجعت بلادي

فهو يتلذذ بذكر كلمة أخي لأنها أحلى كلمة تعبر عن عمق الرابطة بين أبناء الأمة، وبين أبناء الجنس البشري عامة ، ولكن برغم الأخوة وما فيها من روابط إلا أن

(١) الديوان : ٣٩ .

(٢) المصدر السابق : ٧٥ .

الأخوة يعادون بعضهم ويؤذون إخوانهم ، فهو يسأل في عجب ، أتؤذيني وتحقر من شأني وأبونا واحد وهو ما نتفاضل به ، وبلادنا هي الدنيا وما زلنا فيها لم نكره منها شيئاً فلماذا تعتدي وتسكن .

(ج) عتابه لبني نصر وقد هجروه فقال : (١)

بني عليّ بن نصرٍ دعاءً باسطٍ عُذْرٍ أسرفْتُمُ في وصالي وليس يحْسُنُ هجري

يناديه في عتاب ، وحيه ، ويدعوهم لإجابة دعاء رجل يقدم عذراً ويريد تفسيراً ، فهم قد وصلوه كثيراً لدرجة الإسراف ، ولكنهم هجروه وتركوه ، وهذا له أثر سيء على نفسه .

٧- الهجاء :-

وفي المقابل - بعد المدح - هناك شخصيات استحققت الهجاء والشتم والسب

والإنقاص فكان من أبي الفرج البغاء هذا القول : (٢)

تشابهت الطباعُ فلا دنيءٌ يَحْنُ إلى الثناءِ ولا حسيبٌ وشاعَ البخلُ في الأشياءِ حتى يكادَ يشحُّ بالريحِ الهبوبِ فكيف أحصُ باسمِ العيبِ شيئاً وأكثر ما تشاهدُهُ معيبُ

فهو يوجه هجاءه إلى الناس عموماً ، فيقول : قد تشابهت طباع البشر جميعاً ، فليس

(١) الديوان : ٩٣ .

(٢) المصدر السابق : ٤٣ .

فيهم واحد سواء أكان ذو حسب ونسب وأصل شريف ، أو كان خسيس ديني الأصل يريد المدح أو يبتغيه ، وهذا بدواعي البخل الذي انتشر وعم الأشياء جميعها ، حتى كادت الريح تبخل ببوبها ونسماتها ، ولذلك فهو لا يستطيع أن يخص بهجائه شيء معين لأن السبب بسيط في وجهة نظره ، وهو أن كل ما يشاهده أصبح معيياً ناقصاً لا يستحق الثناء .

ويقول أيضاً: (١)

إذا كان كلُّ الناس عندك جاهلاً فمن الذي يدري بأنك عاقل

فهو يهجو رجلاً بعينه ، ومن المعتقد أن هذا الرجل مغرور متكبر يتعالى على الناس بعلمه، فهو يقول أن هذا الرجل يرى كل الناس جهلاء لا يدركون حقائق الأمور وتصريفها، ولكن شاعرنا يسخر منه ، ويهزأ به ويقول إذا كان كل الناس سيئي الفهم فمن يدرينا لعلك أنت أيضاً تكون جاهلاً أحمقاً لا عقل لك .

ويتوجه في هجائه إلى رجل يدعى أبو الفضل ، فيقول فيه :

ما كلُّ مَنْ طَوَّلَ عُثُنُونَهُ يزدادُ فَضْلاً يا أبا الفَضْلِ طَوَّلْتَ عُثُنُونَكَ تبغى العُلا
أيِّ علا في ذَنبِ البَعْلِ ولستُ أحصي كم رأيتُ امرأً الحَيِّ ولكن كوسج (٢)
العَقْلِ قد ملأتُ لحيته صدره ورأسه أفرغُ مِنْ طَبْلِ

أبو الفضل رجل ذو لحية طويلة ، كانت هذه اللحية مدار هجاء أبي الفرج له ، فيقول أن ليس كل من أطال لحيته يزداد في الشرف والفضل والمكانة ، فأنت تريد العُلا

(١) الديوان : ١٣١ .

(٢) الوسج : سبز الأبل ويقال : أوسجته حملته على الوسج ، ينظر القاموس المحيط ، (مادة : وسج) .

بلحيتك الطويلة ، ولكن هذه اللحية مثل ذيل البغل ، فأى علا في ذلك ، وكثير من الناس رأيتهم ذوي لحى طويلة تشبه سرب الإبل في القافلة لا فائدة منها ، فاللحية قد ملأت صدره، لكن للأسف رأس صاحب هذه اللحية فارغة مثل الفراغ الذي يوجد داخل الطبل .

ويتوجه بهجائه إلى رجل ينافس الكبار وهو غير جدير بهذه المنافسة ، فيقول فيه :^(١)

ما بال ضبُعِ ظلٍ يَطْلُبُ دائباً بين الأسودِ فريسةً لضراغِمِ

فهو يتعجب من هذا الرجل ويشبهه بالضبع الذي يصر على أن ينال فريسة قد وقعت بين براثن الأسود الأقوياء ، ومعلوم أن الضبع لا يقبل له بالأسود الضراغم ، فهذا حمق وسوء تقدير.

وفي النهاية نستطيع أن نقول أن هجاء البيغاء لم يكن هجاءً فاحشاً ، ولا سباباً جارحاً بألفاظ قاسية ، بل جاء هجاؤه في قالب من التفكه والمداعبة فهو يسخر فيه من الأشخاص الذين يدعون العلم فحلا هجاءه من ألفاظ تحدش الحياء أو تتناول السوءات .

*

*

*

^(١) الديوان: ١٥٣.

المبحث الثالث

شعر الغزل

الغزل تيار شعري قديم لا تكاد تخلو منه قصيدة من قصائد الشعر القديم، فمعظم قصائد الشعر الجاهلي كانت مقصورة على الغزل نفسه، بحيث تكون القصيدة مستقلة في الغزل أو يكون هذا اللون من الغزل استهلالاً لقصائد قيلت في الأغراض الأخرى.

يقول الدكتور شكري فيصل في ذلك "إن الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين: نقش الجاهليون على صفحاتها الأولى عواطفهم التي ابتعثها فيهم الحب، وما يؤدي إليه هذا الحب من وصل أو هجر، ومن سعادة أو شقاء، ومن لذة أو غصة، وصوروا هذه العواطف وأفنوا في تصويرها ملكاتهم ومواهبهم أما الصفحة الأخرى فقد جمعوا عليها كل أغراضهم الأخرى، ونشروا في أطرافها كل الفنون والأغراض الثانية، كائنة ما كانت هذه الفنون والأغراض" (١).

صادف فن الغزل تطوراً لطيفاً وأصبح من أهم سماته في هذا العصر السهولة المطلقة، وخفة الروح مع عاطفة عذبة متوهجة الأحاسيس.

"والغزل من الأغراض الشعرية التي برع فيها أبو الفرج البغاء، وله في هذا المجال مقطعات كثيرة وصور ممتعة شيقة جميلة، وشعر وجداني يتسم بالانفعال القوي والعاطفة الجياشة، لذا كان شعره يغنى به، وكان من متع السامرين في الشام والعراق" (٢).

أغلب غزله مقطوعات صغيرة تعبر عن مشاعره وأحاسيسه المتوهجة، ومعظم هذه المقطوعات كانت تغنى في العصر العباسي، ولعل السبب في ذلك هو ازدهار الغناء في ذلك

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل: ٢٣.

(٢) مقدمة الديوان: ٢٧-٢٨.

العصر مما شجع الشاعر وغيره من الشعراء على الإكثار منها^(١)

يقول الدكتور شوقي ضيف في ذلك : "مهما يكن فقد شاع هذا الشعر الغنائي بضربيه

من الغزل المادي والنعيف، واستبق الشعراء فيه كل يحاول أن يأتي بالنادر الطريف" ^(٢).

وظل تيار الغزل متوهجاً في ذلك العصر، يصور لواعج الحب وعذابه، وظل الشعراء

ينظمون فيه غرر القصائد التي تمتاز برقة العاطفة مضيفين إليها كثيراً من الخواطر والمعاني العذبة

الجميلة.

فها هو البغاء يطبع غزله بطابع العفة والطهر فيقول:^(٣)

بأبي الغائب الذي لم يغب ع ني فأشكو إليه همّ المغيبِ
باشرتُه كفُّ الطيبِ فلو ند ت الأماي قبَلْتُ كفَّ الطيبِ
فعلتُ في ذراعِه ظبهُ المبد ضع أفعال لحظِه بالقلوبِ
فأسالتُ دماً كأنَّ جفوني عَصَفرتُه بدمعها المسكوبِ

فهو يتألم لغياب محبوبته عنه، الذي بدأت يد الطيب تباشر عملها فيه فيتمنى أن يتم

لمحبوبته الشفاء ، وعندها سوف يقبل كف الطيب، فقد عمل حد الموضع في ذراعِه عند

الفصد عملاً موازياً لما تفعله نظراته بالقلوب من سحرها الخاطف للوجدان والمشاعر، فأسال

الموضع دماً من ذراع محبوبه، فعندها بكى عليه وكأن بكاءه كان دماً صبغت

محبوبته لكثرة ما ذرف من الدمع على حبيبته.

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف : ٦٣ .

(٢) المصدر السابق : ٦٩ .

(٣) الديوان : ٥١ .

ويتسم غزله بركة اللفظ، وسهولة التعبير، وبراعة الكلمة، وجمال الموسيقى، ومن هذا القبيل

قوله في محبوب رمدت عيناه^(١) .

بنفسي ما يشكوه مَنْ راح طرفه ونَرْجسُهُ مما دَها حُسْنُهُ ورُدُّ
أراقتُ دمي ظُلماً محاسنُ وجهه فأضحى وفي عينيه آثارُهُ تبدو
غدت عينُهُ كالخَدِّ حتى كأما سقى عينُهُ من ماءٍ تَوْرده الخَدُّ
لئن أصبَحْتُ رمداءَ مقلَّةٍ مالكي لقد طالما استشَفْتُ بها مُقَلِّ^(٢) رُمْدُ

فهو يفدي حبيبه بنفسه مما يشكوه من آلام نظره، فأصبح ولد عينه الأبيض الذي كان يشبه النرجس من الرمد ورداً لونه أحمر وهو لون الرمد، فمحاسن وجهه أراقت دماء وجه الشاعر ظلماً من كثرة البكاء، فأصبح في عينيه أثر من هذه الدماء ظاهرة، فعينه الرمداء أصبح لونها كلون الخد احمراراً حتى اعتقد أن عينه قد شربت من ماء توريد خده احمراراً ، والآن أصبحت عينه مريضة بالرمد وهي التي كانت قبل ذلك تشفي عيوناً كثيرة رمداء.

وقوله يشكو بعاد المحبوب عنه:^(٣)

أيا راهي بُجْرانَ ما فَعَلتْ هِنْدُ أقامتْ على عَهْدي فإني لها عَبدُ
إذا بَعَدَ المِشْتاقُ رَثَّتْ حَبالُهُ وما كلُّ مُشْتاقٍ يُغَيِّرُهُ البُعْدُ

فهو كعادة العرب يناجي صاحبيه، ويسألهم ماذا فعلت هند بعد رحيله، وهند هذه هي محبوبته، أهي ما زالت على عهدها له؟! إن كانت كذلك فسوف يكون لها عبداً ، فهو يعلم أن بعاد المشتاق يؤدي إلى قطع الوصال أو ضعفه، ولكن ليس كل مشتاق يغيره البعد ويجعله

(١) الديوان: ٦٩.

(٢) المقلَّة: شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، ينظر القاموس المحيط، (مادة: مقل) .

(٣) الديوان: ٦٩.

يتحول عن محبوبه وينساه.

وفي رقة لفظ، وجمال عبارة، وعدوبة صياغة يقول: (١)

لقد عَزَّ العزاءُ عليّ لما تصدَّى لي لتقتلني الصُّدُوْدُ
إذا بُعِدَ الحبيبُ فكلُّ شيءٍ من الدنيا ولذاتها بعيدُ

لم أجد لي سلوى تسري عني ما وجدته من صدود الحبيب وبعاده عنه، فأنا أعلم أن
بعاد الحبيب يؤدي إلى أن يكون كل شيء في الدنيا مكروه، وغير مرغوب فيه.

ويقول في صورة جميلة لمنزلة الحبيب في قلبه: (٢)

أنتم بمنزلة الفؤادِ من الحشأ مني كما حَمَلَ البنانَ الساعِدُ

فالأحبة هم بمنزلة القلب لباقي الجسم، فهم بذلك أهم ما لديه مثلما يحمل الساعد
الأصابع وأطرافها، لا غناء لأحد هما عن الآخر .

ويقول في عذابات الحبيب: (٣)

يا مُسَقِّمي بحفون سقمها سبب إلى مواصلة الأَسْقَامِ في جسدي
وحق جفنيك لا استعفيت من كمدي دهري ولو مت من حمٍّ ومن كَمَدِ
غدرتُ من ظلِّ في حُبِّيكَ يَحْسُدُنِي لأنه فيك معذُورٌ علي حَسَدِي

فالحبيب قد أصابه بالسقم من نظرات جفونه، مما جعل هذا السقم يسري في جميع

(١) الديوان :٧٠٠.

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق :٧٨.

جسده من ذوبانه في حب محبوبه، ومن حق جفني الحبيب بجمالها أن لا يبرأ من هذا السقم طول عمره، حتى لو أدى هذا السقم إلى موته بالحمى والكمد، فأنا بعدما ذقت جمال حبك قد التمست الأعذار لمن كان يحسدني في حبك لأنه معذور فالحبيب قد سحره بجماله ورقته، ومن حقه أن يحسدني.

وما زال يشكو بعاد أحبابه وهجرهم له وما نتج عن ذلك من آلام أصابت شاعرنا الرقيق

فيقول: (١)

لمن أسائلُ لا رسمٌ ولا أثرُ رحلتُم وأقامَ الدَّمْعُ والسَّهْرُ
كنتُم لعيني صباحاً لا مساءً له فعاضها البينُ ليلاً ماله سحرٌ (٢)
وما أعبُ بشيءٍ بعدَ فُرقتكمُ إلا البقاءَ فإني منه اعتذِرُ

فهو يقاسي حيرة بعد رحيل الأحباب ، فهو أصبح صديق للدمع والسهر، فقد كان الأحبة لعين شاعرنا صباح لا مساء له أبداً ، ولكن فراق الأحبة أبدل عيني ليلاً ليس له صباح، فقد أظلمت عيناه بفراق محبوته، وليس هناك ما يعيب الشاعر بعد فراق محبوته إلا أنه ما زال على قيد الحياة، والأحبة قد رحلوا، فهو يتمنى اللحاق بهم ويأسف من البقاء بعدهم.

وفي وصفه لمحاسن محبوته يقول: (٣)

(١) الديوان: ٨٨.

(٢) السحر: قبيل الصبح والبياض يعلو السوداء وطرف كل شيء ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : سحر) .

(٣) الديوان ٩٩.

وَمُهْفَهْفٍ لِمَا اكْتَسَتْ وَجَنَاتُهُ حُلِّلَ الْمَلَاةَ طَرَزَتْ بَعْدَارِهِ
لَمَّا انْتَصَرْتُ عَلَى عَظِيمِ جَفَائِهِ بِالْقَلْبِ كَانَ الْقَلْبُ مِنْ أَنْصَارِهِ
كَمَلْتُ مُحَاسِنُ وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَق تَبَسَّ الْهَلَالُ النُّورَ مِنْ أَنْوَارِهِ
وَإِذَا أَلْحَ الْقَلْبُ فِي هِجْرَانِهِ قَالَ الْهَوَى لَا بُدَّ مِنْهُ فِدَارِهِ

ورب نحيف الخصر عندما زينت وجناته بالملاحة، تم تزيينها بذقن جميلة في وجه محبوبه، فلما انتصرت على بعباده وجفائه وهجره لي بالقلب والحب، أصبح القلب بعد ذلك واحد من أنصار الحبيب، فقد اكتملت محاسن وجه الحبيب وكأن هذا الوجه قد أخذ نوره وجماله من الهلال في السماء، ولو حاول القلب أن يهجر الحبيب، أصر الهوى والحب على البقاء على حبه فاحتفظ به، ودار عليه في قلبك ولا تخرجه منه.

وفي معرض حديثه عن صدود الحبيب وإعراضه يقول: (١)

صَدَدْتُ فَكُنْتُ مَلِيحَ الصَّدُودِ وَأَعْرَضْتُ أَفْدِيكَ مِنْ مُعْرَضِ
وَفِي حَالَةِ السُّخْطِ لَا فِي الرِّضَا يَبِينُ الْمَجِيبُ مِنَ الْمُبْغِضِ
وَمَنْ يَكُ فِي سُخْطِهِ مُحْسِنًا فَكَيْفَ يَكُونُ إِذَا مَا رَضِيَ

فحبيبه إذا صد في حبه كان صدوده جميل مليح، وأعرض فكان جميل الإعراض، ففي حالة السخط والصد، لا في حالة الرضا يتضح الحبيب من العدو، فمن كان في سخطه محسناً راضياً، فكيف إذن يكون حاله في وقت الرضى؟! لا بد أن يكون أكثر جمالاً وسحراً.

وفي صورة بديعة يصف عفته مع الحبيب، فيقول: (٢)

(١) الديوان : ١١٠

(٢) المصدر السابق : ١١٥

سلو الصبابة هل خلوث بمن أهوى مع الشوق إلا والعفاف معي
وحافظي من دواعي الحب معرفتي إنني من المجد في مرأى ومستمع
تأبي الدناءة لي نفس نفاثتها تسعى لغير الرضا بالري والشبع

فهو يفصح عن عفته مع الحبيب ويطلب منا أن نسأل صبابته وحبه الشديد للمحبوب
عندما يخلو به مع شوقه الشديد إليه، فيصحبها العفاف والعزة ، وحفظه لعفته من دواعي حبه
لمحبوبه ومن دواعي أنه يبتغي المجد والعلا ولا يجد نفسه إلا صاحب مجد كما يراه الناس جميعاً
ويسمعونه، وهو غير مستعد أن يضحى بهذا المجد ، فالدناءة لا يمكن أن ترضاها نفسه النفيسة
الغالية ، ولا يمكن أن ترضى تلك النفس أن تسعى لغير الرضا.

ويقول في لفظ دقيق: (١)

أشقتني فرضيت أن أشقى وملكتني فقتلتني عشقا
وزعمت أنك لا تكلمني عشراً فمن لك أنني أبقى
ليس الذي تبغيه من تُلقي متعذراً فاستعمل الرفقا

فهو يحاول استعطاف المحبوب بأن يخفف عنه آلام بعباده فهو لا يستطيع تحملها ، فقد
أشقاها الحبيب رغم ذلك رضي بالشقاء ، وملكه حتى قتله وذاب فيه عشقاً، وحاول المحبوب
عقابه بأن يجرمه من الكلام إليه عشرة أيام ، ولكنه يرد عليه أنه لا يمكنه تحمل ذلك ، فالحبيب
إن أراد تلفه وإحراق مهجته فهذا شيء غير متعذر ، فهو يحترق قلبه لبعاد حبيبه ، ويطلب منه
أن يستعمل الرفق واللين معه فهو لا يتحمل قسوته هذه .

(١) الديوان: ١١٦.

ويعرض لدرجة من الحب قد وصل لها فقال : (١)

حصلتُ من الهوى بك في محلِّ
يساوي بينَ قُرْبِكَ والفِراقِ
فلو واصلتَ ما نقصَ اشتياقي كما لو بِنْتٌ (٢) ما زادَ اشتياقي

فقد وصل من حبه لمحوبه إلى درجة يتساوى عندها القرب والفراق ، فإن استمر المحبوب في الوصال بقى الشوق شديداً كما هو ولم ينقص ، ولو أنه هجر وفارق ظل الشوق كما هو ولم يزد عما كان ، فقد وصل لدرجة الثبات في حبه في حالة الوصل والفراق ، في القرب والبعـد .

ووصلت درجة الحب إلى أقصاها فقال : (٣)

وقد رامَ هذا الحبُّ أن يسترقني فأنجدني صَبْرٌ عليه جميلٌ
فمن شدة حبه لمحوبته، وصل إلى درجة أن ذلك الحب أراد أن يجعله عبداً تحت إمرته،
ولكن أنقذه من ذلك صبر جميل تحلى به .

وفي صورة جديدة يقول : (٤)

خيالُكَ مِنْكَ أعرفُّ بالغمامِ وأرأفُّ بالمحبِّ المُستَهامِ
فلو يستطيع حينَ حَظِّرتَ نومي عليّ لزارَ في غيرِ المنامِ

فمن الشفافية العالية بين الأحبة الذين ذابوا حباً كل في الآخر أن يصبح خيال المحب

(١) الديوان: ١١٩ .

(٢) البين : يكون فرقة ووصلاً والمباينة ، المفارقة وبابنه هاجر ، ينظر القاموس المحيط ، (مادة : بين) .

(٣) المصدر السابق: ١٣١ .

(٤) المصدر السابق: ١٥٤ .

أكثر معرفة بالحب والغرام ، وأكثر رافة ورقة على الحبيب ، فإن خيال المحب لو يستطيع عند
عدم النوم أن يزور الحبيب لزاره في غير المنام .

ودارت الأيام ، وتغير الحبيب ، وقد كان من قبل هو جار القلب ، وحبيب العين ،
فقال: (١)

أستودعُ الله قوماً ما ذكرتهم إلا وضعت يدي لها على كبدي
تبدلوا وتبدلنا وأحسرنا من ابتغى سبباً يسلى فلم يجد
لححتُ ثم رأيتُ اليأس أجمل بي تنزهها فخصمتُ الشوقَ بالجلد

فهو يضعهم أمانه عند من لا تضيع عنده الودائع ، لأنهم ذو منزله خاصة لديه ، لا
يذكرهم إلا أحرق ذلك كبده شوقاً إليهم ، ودارت الأيام ، وكعادتها في التغير ، أصابتهم بالتغير
وأصابتنا بالتغير ، وكلاهما يبحث عن سبب للسلوى لكنه لم يحصل عليه ، وألح شاعرنا في
طلب السلوى لكن دون جدوى ، فما وجد ملاذاً إلا اليأس تنزهاً عن الأحبة ، فخاصم
الشوق بالصبر والتجلد .

وفي مشهد آخر نلاحظ اشتعال العاطفة عندما يقترب الحبيب بعد غياب طويل ،

فيقول البيغاء: (٢)

قد كان أحسن شيءٍ بعد بُعْدِهِمْ برُوحٍ مثلك أن تنأى عن الجسدِ
هُمُّ بالوصالِ أعادُوها إليك فلم ذخرتْها بعدَهُم للصبرِ والجلدِ؟
وَعَدتْ بالدمعِ تعليلاً كأنك قد أظهرتَ ما ليس موجوداً لدى أحدِ

(١) الديوان: ٧٧ .

(٢) المصدر السابق: ٧٩ .

فقد فضل شاعرنا صاحب الروح الشفافة الرقيقة - بعد بُعد الأحبة أن تبعد روحه عن جسده ، ويفارق الحياة ، فلا فائدة من الحياة دون الأحبة ، فهم عندما يصلوه ويعيدوا وداده سوف يعيدون روحه إلى جسده ، إذن فهم الحياة في قريهم وهم الموت في بعدهم ، ويتعجب كيف استطاع الصبر والجلد على بعدهم رغم أنهم هم الروح لجسده ، وعندما عادوا ذرف الدمع متعللاً به وكأنه أظهر شيئاً غير موجود عند أحد آخر غيره .

وفي مقطوعة جميلة يتعجب من المحبوب وحاله معه ، فهو قد بعد عنه وعندما يظهر يحاول القرب منه ولكنه لا يجد لديه استجابة ، فيقول : (١)

ما ضرَّ منْ بعد السرور ببعده لو كان يجمل في صيانة عبده
يبدو فأطرقُ هيبَةً ومخافة من أن يُؤثِّرَ ناظري في خدّه
قد صرْتُ أعجبُ أن على طرفه ليست تؤثر علةً في ودّه

فهو يعاتب نفسه ، فقد بعد المحبوب ، وتجلد وصبر على هذا البعد حتى وصل إلى درجة السرور بهذا البعد حتى يصون نفسه وكرامته ، ولكنه عندما يظهر لا يتوجه بناظره إليه هيبية ومخافة من أن يترك نظره أثراً في خده ، وهو علامات الخجل والحياء وهي عادة لون أحمر في الخد لأنه تركه ورحل عنه ، ولكن شاعرنا يعجب من عدم تأثير أي سبب على وصاله وحبه على عينيه ، ولم يظهر أنه يكن حباً له .

وفي نفس مشاعر الصدود يعرض لنا أبو الفرج مدى قسوة هذا المحبوب فيقول : (٢)

(١) الديوان : ٨٤

(٢) المصدر السابق : ٩٦ .

يا منْ رضىتُ من الخلق الكثير به أنت البعيدُ على قُرب من الدارِ
أعلمتُ فيك المنى حلاً ومُرتحلاً حتى رددتَ المنى أنهاء أسفارِ

فقد تحمل شاعرنا الكثير من الخلق بسبب هذا المحبوب ، ورغم ذلك فهو يبتعد عن قلبه وعن حبه ووصاله رغم أنه قريب الدار ، وقد كان المحبوب هو المنى لشاعرنا في الحل والترحال ، ولكن المحبوب خذله ورد هذه الأمنية وكأنها رحلة قصيرة ثم انتهت ، أو أن هذه الأمنية حلم تبدد عندما استيقظ النائم .

وبمشاعر رجل عفيف ، صادق في حبه يحدثنا عن حاله مع محبوبه وكيف أنه أحبه في

عفة وكرامة فيقول : (١)

جاورتُ بالحبِّ قلباً لم تذرْ فكري للحبِّ مستمتعاً فيه ولم تدعِ
مفرقاً بين همٍّ غير مُفترقٍ عنه وبين سلوٍ غير مُجتَمعٍ
يصبو و لكن يكفّ الحلم صبوتَه وأشرفُ الحبِّ أذناه من الورعِ
وي أمسّ غرام لو أنستُ إلى الـ شكوى ولكن أعدّ الصبرَ للجزعِ

فقد جاور بحبه قلباً دائماً التفكير فيه ، وهذا التفكير يمثل له متعة ، ولم يترك يوماً هذا التفكير في محبوبه ، وهو هنا يفرق بين همومه ومتاعبه التي تلازمه بسبب هذا المحبوب وبين محاولة نسيان ذلك ، ولكنهما لا يجتمعان ، والمحبوب قد تشتعل صبابته ، ولكن الحلم يكف عنه هذه الصبابة ، فأشرف أنواع الحب ما أقرب من الورع والتقوى ، ولكنه يعاني شوق الغرام ويتألم من صدود المحبوب ، ولكنه يمنع هذه الرغبة القوية في الشكوى من محبوبه بالصبر الذي يعتبره سلاماً إذا ما جزع وراح يطلب ذلك المحبوب .

(١) الديوان: ١١٣.

وفي مناجاة المحبوب يصف فيها شوقه ، وشدة وجده ، وما يفعله المحبوب فيه ،

فيقول: (١)

يا من تشابه منه الخُلُقُ والخُلُقُ فما تسافرُ إلا نحوه الحَدَقُ (٢)
توريدُ دمعي من خديك مختلسُ وسُقْمُ جمِي من جفنيك مُسْتَرَقُ
ولم يبق لي رَمَقُ أشكو هواكُ به وإنما يتشكى من به رمقُ

فهذا المحبوب قد تشابحت ملامح خلقتة ، وسحر جماله ، ورقة قده ، بحسن خلقه ،
وخفة روحه ، ولذلك فالعين دائماً تنظر إليه في شوق ولهفة ، وما احمرار عينيه ساعة نزول
دمعه إلا من لون خدي المحبوب الذي يشتعل احمراراً من جماله الباهر ، وما المرض الذي
أصاب جسده إلا من نظرات المحبوب القاتلة التي جعلته يعاني أسقام الحب ، ولواعجه ، ومن
شدة هذا الحب ، وجمال المحبوب الروحي والجسمي لم يعد لدى شاعرنا الرقيق قدرة على
شكوى هوى المحبوب ، فقد سقم الجسم ، وإنما يشكو من به رمق القدرة على ذلك .

غريب أبو الفرج في حبه ، فهو لا يحيا إلا بعد فراق المحبوب ، وهذا قد يكون له تفسير
منطقي ، فهو في وجود المحبوب يصاب بأسقام الحب من النظر إلى قسماته ، وتنسم هواه ،

فيقول: (٣)

أَوْ لَيْسَ مِنْ إِحْدَى الْعَجَائِبِ أَنْنِي فَارْقَتُهُ فَحِيثُ بَعْدَ فِرَاقِهِ
يَا مَنْ يُحَاكِي الْبَدْرَ عِنْدَ تَمَامِهِ أَرْحَمَ فَتِيَّ يَحْكِيهِ عِنْدَ مُحَاقِهِ

فما أعجب هذا الحب ، حبيب يعاني الأسقام في وجود المحبوب ، وإذا فارق محبوبه

(١) الديوان: ١١٦ .

(٢) الحدق: سواد العين والتحديق ، شدة النظر ، ينظر القاموس المحيط ، (مادة : حدق) .

(٣) الديوان: ١٢١ .

يجيا ويصح ذلك الجسد من الأسقام ، فله في ذلك كل الحق لأن محبوبه يشبه البدر ليلة التمام ، فيطلب ، من محبوبه أن يرحمه لأنه عندما يراه يصبح مثل القمر لكن عندما يكون محاقاً، أي عندما يكون أكثره مظلم ، وهذا دليل على رقة المشاعر ورهافة الحس في التأثر بجمال المحبوب في حال وجوده .

وفي مشهد عتاب للمحبيب يصف فيها عدم قدرة نفسه على تحمل الهوى ، فيقول :^(١)

لا تحسي أنّ نفسي كالنفوس إذا حَمَلْتُهَا فِي هَوَاكِ الضَّيْمِ تَحْتَمَلُ
وربما بعثَ التذكارُ نحوكم دمعي ، فتنكرُهُ الأَجْفَانُ والمقلُ
كوني ما شئتِ إن هجرًا وإن صِلَّةً فليس تنكرُ صبرِ البازلِ ^(٢) الإبلُ
كم ذُقْتُ للدهرِ خطباً أنت أيسرُهُ فما ثنى عِطْفَ حلمي الحادثُ الجَلَلُ

روعة في المزج بين قوة التحمل ورهافة الحس ، فهو رجل يمتلك نفساً تختلف عن نفوس الآخرين ، هي نفس لا تحتمل الضيم في هوى المحبوب ، فقد يبعث تذكراً لأحبة دموع عينه، ولكن أجفانه ومقلته لا تستجيب لذرف هذه الدموع في تجلد وصبر ، فأنت أيتها المحبوبة كوني كما تشائين ، إذا أردت اهجريني ، وإذا أردت كوني على وصالك لي ، فالإبل لا تنكر صبر البازل على فريسته ، مع أن الإبل أكثر الحيوانات صبراً ، فأنا أيتها المحبوبة تعرضت من الدهر لأخطار ومصائب ونكبات كثيرة ، وهجرانك لي أيسر هذه الخطوب ، فما زعزع ذلك حلمي أمام هذه الحوادث العظام ، وكنت أقابلها بالصبر والتجلد .

^(١) الديوان : ١٣٠ .

^(٢) البازل : السن تطلع في وقت البزول ، وناب البعير بزل بزولاً : أي طلع بشدة " (مادة : بزل) .

وشاعرنا مختلف عن باقي الأحبة ، لا تهزه المطامع ، ولا يذل بالحرص ، ولا يقبل الضيم

على نفسه ، فيقول : (١)

سواي الذي تُرْمِي المطامعُ نَبْلَهُ وغيري مَنْ بالحرصِ يَسْهَلُ دُلَّهُ
ولو كنتُ مِمَّنْ تقبلُ الضيمَ نفسُهُ لَتَجَنَّبْتُ هجري مَنْ مَنَى النفسِ وصلُهُ
هوى سُمْتُ قَلْبِي أن يُطَاوَعَ حُكْمُهُ فبادرني قبلَ العوازلِ عَدْلُهُ^(٤)
تَوَهَّمَنِي كالعاشقين يروغني تَحْنُبُهُ أو يَغْتَالُ جَدِّي هَزْلُهُ
وإني لألقاهُ بسلوّةٍ زاهدٍ وفي يده عَقْدُ الفؤادِ وحَلُّهُ
أصارفُ طَوْفِي في تأمُّلِ حُسْنِهِ وأسخطُ وما يُرضي سواي أَقْلُهُ
ولا خيرَ فيمَن يملكُ الحبُّ رأْيَهُ وإنْ مَلَكَ القلبَ المَيِّمَ حَبْلُهُ

فهو رجل نزيه لا تهزه المطامع وتلقى بنبالها على ما تريد ، ولا يرضى أن يذل بالحرص على أي متاع من متاع الدنيا ، فهذا ليس من السهل حدوثه ولو أنه رجل تقبل نفسه الذل والمهانة والهوان ، ما هجر محبوبه الذي هو منية النفس في وصاله وقربه . حبه هذا ساوم قلبه على أن يطاوع حكمه ويسير مع أحداثه ، لكنه . أي قلبه . أسرع به إلى هجره وعزله قبل هجر العوازل عن الأحبة فقد توهم الحبيب أنه مثل كل العاشقين يروعه ويفزعه تجنبه والابتعاد عنه وأن هزله ولعبه سوف ينال من جدي وتصميمي ، وهذا لا يكون ، فأنا ألقى المحبوب بسلوّة تشبه سلوّة رجل زهد الدنيا غير راغب فيها ، رغم أن في يده عقد الفؤاد بحبه ، وبيده حله وتركه وحرته .

وشاعرنا يقاسي المتاعب وصر وف الأيام في تأمل حسن محبوبه ، ولكنه يصد عنه في

(١) الديوان: ١٣٩ .

عزة وكبرياء، رغم أن سواه يطمع في وصال محبوبه والقرب منه رغم أي شيء ، وشاعرنا صاحب رأي حكيم حتى في الحب والهيام ، فهو يقرر أنه لا خير فيمن يسيطر الحب على رأيه ويحركه ويؤثر على اتجاهاته ، وقراراته ، حتى وأن سيطر هذا القلب المتيمم العاشق على نفسه وملك عليه أمره .

وفي مقطوعة أخرى يعرض لنا نتيجة هجره لمحبوبه ، الذي يكشف عن حب في القلب دفين ، فيقول : (١)

يدعي حبيبي إلى هجري فيعدلُ بي عن هجرِهِ مَرَضٌ في القلبِ مكتومٌ
لو كان ينصفني ما كانَ يَهْجُرُونِي لكنني الدهرُ في حُبِّيهِ مظلومٌ

فمحبوبه دائماً يصد عنه فيدعوه إلى هجره ، ولكنه يعدل عن الهجر بمرض يصيب القلب مكتوم لا يظهر عليه ، ولو أن هذا المحبوب ينصفه ، ويعدل في محبته ما كان يهجره ، ولكنه والدهر في حب هذا المحبوب مظلوم، لطول هجره وصدوده .

وفي صورة جميلة غاية في الإبداع والدقة والتعبير عن مدى الحب الذي يكنه ذلك الرجل لمحبوبته لدرجة أنه يغفو فيطرقة طيف محبوبه ، وإن استيقظ قاطعه ، في صورة تبين جفاء ذلك المحبوب ، فيقول أبو الفرج : (٢)

علّمت طَيْفَكَ أسعائي فما هَجَعْتُ عيناى إلا وطيفٌ منك يطرقتني
فكيف أشكرُ من إنْ نمتُ واصلني بالطفيفِ منه وإن لم اغف قاطعتني

فقد علّم الشاعر طيف محبوبه كيف يسعفه ، ويروي شوقه ، فهو لا تنام عيناه إلا

(١) الديوان : ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ١٦٥ .

وصورة ذلك المحبوب في عينيه وذهنه وعقله تلازمه في نومه ، وتخالط أحلامه ، وهو لذلك لا يعرف كيف يقدم الشكر إلى من إذا نام وصله وقرب منه ، واتصل وده بطيف يخالط أحلامه ، ولكنه إن لم ينم وظل مستيقظاً قاطعه طيف محبوبته .

وفي أروع صورة رأيتها في غزله ، أوضحت مدى شدة الحب والوجد للمحبوب ، والتي يناجي فيها طيف الحبيب الذي قدم له فضلاً ومعروفاً لا يدانيه معروف ولا شكر في تقريب صورة المحبوب ، فيقول : (١)

يا طيف من أنا عبده من أين لي شُكْرٌ يقومُ ببعض ما توليه
ينأى فُتْدْنِيهِ إِلَيَّ على النوى (٢) فأراه كالتحقيق في التشبيه
ما كان أحسنَ حالتي لو أن ما أوتيتَ من كرمٍ وعَطْفٍ فيه

فينادي شاعرنا الولهان طيف المحبوب الذي هو عبد له بحبه وعشقه له ، ويخبره كيف يمكن أن يقدم له الشكر على ما قدمه له من فضل ومعروف ، فحبيبه يتعد عنه ، ولكن طيفه يقربه منه رغم بعد الوجهة التي ذهب إليها ، فيرى المحبوب وكأنه حقيقة رغم أنه تشبيه وصورة ، ولكن الشاعر يتحسر ، فلو أن ما في الطيف من كرم من القرب منه كان محبوبه فسوف تكون حالته أفضل بقرب هذا المحبوب .

لقد انتشرت القصائد الغزلية في ظل إمارة سيف الدولة ، وكان الدافع الأول من انتشارها كثرت المجالس في هذا العهد فقد احتوت على أعداد غفيرة من القيان الحسان ، والغلمان

(١) الديوان : ١٦٦ .

(٢) النوى : الوجه الذي يذهب فيه المسافر ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : نوى) .

الذين فاق جمالهم أحياناً جمال النساء ، مما أوقد عاطفة الشعراء وحرك أحاسيسهم ومشاعرهم فنظموا القصائد الغزلية التي تعكس نظرهم لهذا الجمال الفاتن ، فمنهم من اتجه بغزله إلى العفة وتناوله بهذه النظرة فجاءت قصائدهم تعبيراً عن صفات الحسن والجمال التي وهبها الله لبعض خلقه ، ومنهم من تناوله بنظرة ماجنة فكان شعرهم تصويراً صريحاً للمفاتن والمحاسن .

فكان نتيجة هذه الحياة العابثة أن شاع الغزل بالغلما ن وشغل الشعراء به وتفننوا فيه . والبيغاء من الشعراء الذين وصفوا عناصر الجمال في الغلما ن وفي وصف جمال الغلام والفتى وحسن معاشرتهم وطيب أخلاقهم يقول : (١)

ما زلتُ أَلْتُمُ بَدْرًا بِهَا وَأشْرِبُ شَمْسًا

ومن قوله أيضاً : (٢)

جنينا جنى الورد في غير وقتيه وَزَهَرَ الرُّبَا من روض خديهِ والثغرِ
وأمتعنا من وجنتيه بمثل ما تمزج كقناه من الماء والخمرِ

هكذا كانت الحياة الاجتماعية في بغداد ، وهي تشبه الحياة الاجتماعية في حلب ، ويرى الدكتور درويش الجندي أن أسباب انتشار هذا الفن ترجع إلى عدة عوامل منها :

" ١ - الروح الفارسية : فقد تأثر الغزل بهذه الروح التي نعني بها في هذا المقام حب الغلما ن ، مما دعا إلى انتشار الغزل بالمذكر انتشاراً عظيماً ، ولقد انتقلت هذه الروح من الفرس إلى الأقطار الإسلامية بطريق العراق منذ القرن الثاني للهجرة ، حتى إذا جاء القرن الرابع

(١) الديوان : ١٠٣ .

(٢) المصدر السابق : ٩٥ .

شاعت تلك العادة ، بحيث أصبح حب الغلمان والتولع بهم شأن العامة والخاصة ، ولا سيما في فارس والعراق ، ومما ساعد على انتشار هذه الروح في الشام في عصر سيف الدول خاصة ما يأتي : -

أولاً : أن الحمدانيين قد وفدوا عليه وهم عراقيون .

ثانياً : أن معظم الشعراء الطائرين على حلب كانوا أيضاً من العراق .

ثالثاً : حروب سيف الدول التي كانت سبباً في كثرة الرقيق من الغلمان .

رابعاً: الخمر واحتفال الشعراء بها ، والتوسع في وصفها ووصف مجالسها وأوانيتها

وسقاتها من الغلمان جرياً على منهج من فعل ذلك من شعراء العصر العباسي الأول من أمثال

أبي نواس ، كل ذلك جعل حب الغلمان والتغزل بهم أمراً لا يستنكر ، ولا ينظر إليه نظرة

الأمر المريب في ظلال الحمدانيين في الشام" (١).

وكما قلت من قبل فإن غزل البغاء يتسم برقة اللفظ ، وسهولة التعبير ، وبراعة الكلمة

وجمال الموسيقى بالرغم من أن معظمه مقطعات صغيرة ، كما أن غزله يتسم أيضاً بالعفة

والطهر .

فحياة الأناج واللدنة والنعيم واللهو في ذلك القرن ساعدت كثيراً على انتشار فن الغزل

الذي يجسد لنا عاطفة الشاعر الجياشة تجاه محبوبته ، وقد عبر البغاء في غزله عن عاطفته

(١) الشعر في ظل سيف الدولة ، د. درويش الجندي : ٢٤١ .

المتأججة تجاه محبو بته التي ذكر اسمها في إحدى قصائده عندما قال : (١)

أيا راهبي بُجْرَانَ ما فَعَلْتِ هُنْدُ أَقَامْتِ عَلَي عَهْدِي فَإِنِّي لَهَا عَبْدُ

فهذا البيت يدل على أنه أحب فعلاً فتاة اسمها هند حيث وصل به هذا الحب إلى

درجة الهيام والعشق، ولكنه بالرغم من ذلك لا يستكن للذل والضيم في هوى المحبوب لأنه

يختلف عن الآخرين في حبه ، وقد أتضح ذلك فيما سبق لنا من شعره .

*

*

*

(١) الديوان : ٦٩ .

الفصل الثالث

الدراسة الفنية في شعر أبي الفرج البغاء

المبحث الأول : لغة الشاعر وأسلوبه .

المبحث الثاني : التصوير الفني .

المبحث الثالث : الموسيقى الشعرية .

المبحث الأول

لغة الشاعر وأسلوبه .

اللغة هي الوعاء الذي يستوعب التجربة الشعرية ونقصد هنا اللفظ الذي يستخدمه الشاعر في شعره، فالألفاظ هي المادة التي يصوغ منها الشاعر أبياته، وهي العنصر الرئيس في الأعمال الأدبية ، كما أنها الأعمدة التي يقوم عليها أي عمل أدبي سواء كان شعراً أو نثراً ، ولكن هل اللفظ المجرد يتفاضل بين أخوانه أم أن هناك عناصر أخرى لهذا التفاضل؟

يقول عبد القاهر الجرجاني: " إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإن الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر" (١) .

ومن العلماء الذين انتصروا للفظ على المعنى ابن خلدون إذ يقول : " إن العبرة بالألفاظ، وأن المعاني تبع لها، وهي أصل ، ولعله يقصد أن الألفاظ هي التي ترشدنا على المعاني، فهي الدليل عليها، وبدون الألفاظ لا يستطيع استجلاؤها . وهو بهذا يردد رأي الجاحظ، وأن كان قد ذهب إلى أبعد منه، إذ أن الجاحظ لم يقل بتبعية المعاني للألفاظ، فأبن خلدون يرى أن المعاني متيسرة لكل إنسان " وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى تكلف صناعة في تأليفها وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة" والألفاظ كالقوالب للمعاني ، كالأواني التي يغترف بها الماء تتفاوت فيما بينها من حيث نوعها: ما بين أوان ذهبية، أو فضية أو زجاجية، أو خزفية ، والماء واحد (٢) .

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : ٤٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون : ٦٧٧ .

أما ابن قتيبة فقد سَوَّى بين اللفظ والمعنى فقال: خير الشعر ما حسن لفظه وجاد معناه،
فإذ قصر اللفظ عن المعنى، أو حلا اللفظ، ولم يكن وراءه طائل كان الكلام معيباً ، ويضرب
لهذا الأخير مثلاً قول القائل:

ولمَّا قضينا من منى كلَّ حاجةٍ ومسَّحَ بالأركان من هوَ ماسحُ
وشدت على هذب المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ

فهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع، ومخارج فإذا نظرت إلى ما تحتها وجدته ولما قضينا أيام
منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء ومضى الناس لا ينظر من غدا الرائح، ابتدأنا في
الحديث وسارت المطي في الأبطح (١).

أما الأسلوب فلم يرد عن العرب القدماء معنى له إلا بمعناه اللغوي. فلقد ورد في تاج
العروس كلمة الأسلوب بمعناها السطر من النخيل، والطريق تأخذ فيه، وكل طريق ممتد فهو
أسلوب والأسلوب: الوجه والمذهب، يقال هم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب وقد
سلك أسلوبه: طريقه وكلامه على أساليب حسن، والأسلوب بالضم: الفن، يقال أخذ فلان
في أساليب القول أي أفانين منه. (٢)

أما الدكتور عبد العزيز عتيق فيعرف الأسلوب قائلاً: " بأنه المنهاج الذي ينهجه الأديب

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ١٣/١.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الـذبيدي: ٧١/٣.

في الإفصاح عن فكر يختلج بذهنه، أو عاطفة تعتمل في قلبه، وعلى هذا فهو جملة ما يتذرع به الأديب من الذرائع إلى تصوير فكره، أو تصوير عاطفته " (١) .

ويقول أحمد أبو حاقا: " الأسلوب هو الطريقة التي يعتمدها الأديب في تأليف كلامه للتعبير عن المعاني الدائرة في نفسه" (٢) .

وبالنظر في ألفاظ أبي الفرج وكيفية صياغته لها لاحظت عدة ظواهر لغوية:

أن ألفاظ اللغة في ديوانه جاءت موافقة لقواعد اللغة العربية المشهورة عند العرب إلا في حالات نادرة يسيرة اضطر الشاعر إليها مثل قوله في قصيدته التي يصف فيها الخمر والقدرح والتي مطلعها: (٣)

ومُدَامِ كَأَنَّهَا فِي حِشَا الدِّ ن صَبَاحٌ مَقَارِنُ بِمَسَاءِ ِ

نجد الشاعر هنا أنهى كل بيت من القصيدة بقافية مكسورة مثل ما فعل في كلمة مساء، إلا أن القصيدة بها بيتٌ ينتهي بقافية مفتوحة وهو البيت الحادي عشر من القصيدة حيث يقول: (٤)

وكأن المديِرَ في الحلّةِ ال بيضاء منها في حُلّةٍ صفراءِ ِ

(١) في النقد الأدبي ، عبد العزيز عتيق : ١٤٥ .

(٢) البلاغة والتحليل الأدبي ، أحمد أبو حاقا : ٢٠٩ .

(٣) الديوان : ٣٦ .

(٤) المصدر السابق : ٣٧ .

فلو لاحظنا كلمة (صفراء) لوجدناها كلمة ممنوعة من الصرف لأنها اسم ينتهي بألف تأنيث ممدودة والممنوع من الصرف يجر بالفتحة إلا إذا كان محلياً بأل أو كان مضافاً ففي هذه الحالة يجر بالكسرة وهنا كلمة (صفراء) ليست محلاة بأل أو مضافة، فالأصح أن تجر بالفتحة لأنها ممنوعة من الصرف ولكن الشاعر هنا أوردتها في هذا البيت مجرورة بالكسرة لأنها صفة للكلمة السابقة لها وهي (حلة صفراء)

ويقع أبو الفرج في قصيدة أخرى بنفس الخطأ السابق حيث يقول في قصيدته التي يصف فيها اليؤيؤ: (١)

ويؤيؤٍ أوحى من القضاءِ

فنجد أن القصيدة تنتهي بقافية مكسورة الهمزة ثم نجد في نفس القصيدة في البيت الرابع يقول:

مُخْبِرَةٌ عن همةٍ بيضاءِ

حيث جاء بكلمة بيضاء مكسورة الهمزة وهي ممنوعة من الصرف والممنوع من الصرف يجر بالفتحة حسب القواعد النحوية فمن المفترض أن يقول: (مخبر عن همة بيضاء) بالفتح ولكن أبا الفرج جاء بها مكسورة.

ولكننا نستطيع القول أنه تندر الأخطاء النحوية والصرفية عنده وهذا غير مستغرب لأنه من الشعراء والأدباء المعدودين في بلاط سيف الدولة الحمداني كما أنه

(١) الديوان : ٣٨ .

اشتهر بتنقيح شعره واختيار ألفاظه ولم تسلم ألفاظه من صفة الغرابة والوحشية وذلك عندما

قال:

(وَيُؤْيِئُ أَوْحَى مِنْ الْقَضَاءِ)

فلقد استخدم كلمة (اليؤيؤ) وهي صنف من أصناف الصقور ولكن لفظ اليؤيؤ غير مستخدم فهو لفظ (حوشي) وإن كان هذا اللفظ قد يكون غير حوشي في عصر الشاعر إلا أنها أسهمت في رداءة الصورة الفنية لكونها بعيدة عن استعمال الناس.

ويقول ابن سنان الخفاجي في معايير حسن اللفظ: " من حسن اللفظ تباعد مخارج الحروف، وذلك أن الأصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، والألوان المتباعدة إذا جمعت كانت من المنظر أحسن من الألوان المتقاربة وجل كلام العرب يبني على التأليف من الحروف المتباعدة ، ولحروف الحلق مزية من القبح إذا تقاربت، ومثال اللفظ القبيح لتقارب مخارج حروفه (المهعخع)، ومن هذه المعايير كذلك حسن الوقع في السمع فتسمية الغصن غصنا أو فنناً ، أحسن من تسميته عسلوجاً، ومنها ألا تكون الكلمة وحشية غريبة غير مألوفة الاستعمال" (١) .

ومن الألفاظ الحوشية أيضاً قوله في وصف الخيل (٢)

وكلُّ بعيدٍ قَرَّبَ الحَيْنِ نحوه سلاهَبُكُ الجُرْدُ والحيادُ قريبُ

(١) سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي : ٦٠ - ٦١ .

(٢) الديوان : ٤٢ .

فكلمة (سلاهبك) من سهلب والسهلب من الخيل الفرس الطويل على وجه الأرض،
ونلاحظ استخدامه لهذه الكلمة استخدام حوشي نافر اللفظ وإن كان كما قلنا سابقاً قد
يكون اللفظ غير حوشي في عصره إلا أن استخدامه الآن نادر. بل نستطيع القول أن هذه
اللفظة غريبة غير مستخدمة ووعرة المسلك.

ومن الألفاظ الغريبة الحوشية أيضاً قوله في وصف الحرب: (١)

من السالبات الشمس ثوب ضيائها بثوبٍ تَوَلَّى نَسَجَهُ عَثِيرُ الثُّرْبِ

ف نجد الشاعر استخدم كلمة (عثير) والعثير بتسكين التاء: الغبار، وهي كلمة غريبة حوشية
غير مستخدمة.

ومن الألفاظ الغريبة أيضاً قوله في وصف العقاب في البيت الثاني عشر: (٢)

ذاتُ جِرانٍ واسعِ الجَلْبَابِ

فلقد استخدم الشاعر كلمة حوشية ألا وهي كلمة (جران) بمعنى جران البعير : مقدمة
عنقه من مذبحه إلى منحره والجمع جرن . وهذه الكلمة غريبة غير مستخدمه .

ومن الألفاظ الحوشية الغريبة التي استخدمها أبو الفرج قوله في مدح سيف الدولة: (٣)

(١) الديوان: ٤٨ .

(٢) المصدر السابق : ٥٤ .

(٣) المصدر السابق : ٧٣ .

سَقَتِ الْعِهَادُ خَلِيطَ ذَاكَ الْمَعْهَدِ رِيًّا وَحَيًّا الْبَرْقُ بَرْقَةً تَهْمَدُ

فلقد استخدم الشاعر كلمة (العُهاد) بمعنى المطر وهي كلمة غريبة تحتاج إلى قواميس اللغة لشرحها .

والأسلوب الحوشي : وهو ما يغلب عليه الألفاظ الغريبة الحوشية أو الوحشية مما تخفي المعنى ، وتهوي في الغموض والإبهام ومعظم النقاد العرب القدامى استهجنوا الأسلوب الحوشي كالجاحظ إذ يقول: وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ، أو ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، فإن الحوشي في الكلام يفهمه الحوشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة الكلام السوقي^(١). ومن هذا الأسلوب قول تأبط شراً :

ولما سمعت العَوْضَ تدعو تنفرت
عصافير رأسي من نوى فعوائنا^(٢)
وحثت مشعوف الفؤاد فراعي
أناس بفيغان فمزت القرآنا^(٣)

أما إذا نظرنا إلى الألفاظ السهلة في ديوانه نجده قد أكثر منها فمعظم ألفاظه سهلة ميسورة وخاصة إذا كان الموقف الذي يتحدث فيه عاطفياً يتغزل فيه فنجد الألفاظ في باب غزله رقيقة بعيدة عن التكلف والصناعة، وبعيدة عن صرامة العقل فنجده مثلاً يقول

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ : ١ / ١٤٤ .

(٢) العوض: اسم قبيلة من العرب عوائن: مواضع

(٣) حثت مشعوف الفؤاد : حركت من ذهب الحب بقلبه . فيغان : موضع بالبادية . مزت القرآنا : جبال معروفة مقترنه .

متغزلاً: (١)

يا مُسْتَقِمِي بجنون سقمها سبب إلى مواصلة الأسقام في جسدي
وحق جفنيك لا استعفيت من كمدي دهري ولو مت من حمّ ومن كمدٍ
غدرتُ من ظلّ في حُبَيْك يَحْسُدُنِي لأنه فيك معذُورٌ على حَسَدِي

فإننا نلاحظ في الأبيات ألفاظاً سهلة ليس فيها غريب ولا حوشي فالأسقام - الجفون -

الكمدي - المواصلة - يحسدي ألفاظاً رقيقة سهلة المنال.

والأسلوب السهل : هو الأسلوب الذي يجمع بين جودة المعنى، ويسر الألفاظ، وعبر

عنه أبو هلال العسكري بأنه الحسن المعنى السهل اللفظ، القليل النظير، البعيد مع قرينه،

الصعب في سهولته ، وهذا ما نسميه بالأسلوب السهل، الممتنع وضرب مثلاً له بقول العباس

بن الأحنف:.

إليك أشكو ربّي ما حلّ بي من صدّ هذا التائه المعجّبِ
إذا قال لم يفعل وإن يسئل لم يبذل وإن عوتب لم يعتب^(٢)

ومن أسلوبه السهل قول أبي الفرج عندما يخاطب عدة الدولة أبي تغلب بن ناصر الدولة

يذكر فيها رغبته في قصده وإيثار الانقطاع إليه فيقول: (٣)

(١) الديوان: ٨٧.

(٢) الصناعتين ، أبو هلال العسكري : ٧٦.٧٥ .

(٣) الديوان : ٤٧ .

دعوته فأجابني مكارمه ولو دعوتُ سوى نُعماه لم تُجِبْ
وجدته الغيثَ مشغولاً بعبادته والروضُ يجنى بما في عادة السُحْبِ
لو فاته النسبُ الوضاحُ كان له من فضله نسبٌ يُغْنِي عن النسبِ
إذا دعتُه ملوكُ الأرضِ سيدها طُرّاً دعتُه المعالي سيدَ العربِ

فإذا تأملت الأبيات السابقة تجدها سهلة المتناول عذبة اللفظ، لا تكلف فيها ولا وعورة،

ومن أسلوبه السهل أيضاً قوله: (١)

وما شرفُ الإنسانِ إلا بنفسه وإن خَصَّه جدُّ شريفٍ ووالدُ
إذا كان كلُّ الناسِ ابناءَ آدمٍ فافضَلُهم من فضَلته المحامدُ

فالذي يتأمل البيتين السابقين يجد أنها سهلة التعبير واضحة المعنى لا غرابة فيها حيث

يذكر أن الإنسان يشرف بنفسه وليس بأجداده ولا بوالده فكل الناس لآدم ، وإن المحامد
وحدها هي التي تفضل الناس بعضها على بعض .

والمدقق في شعر البغاء يلحظ أيضاً أنه استخدم ألفاظاً علمية ومنها عندما وصف

الاصطرباب وهو أداة لرصد النجوم والأفلاك فنراه يقول: (٢)

وَمُسْتَدِيرٍ مَعْجَمِ التَّقْسِيمِ
مُنْتَسِبِ الْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ
دَبَّرَهُ فِكْرُ امْرِئٍ حَكِيمِ
فَصَاغَهُ فِي صِعْرِ التَّجْسِيمِ

(١) الديوان : ٧٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٥١ .

مُسَاوِيًا لِلْفَلَكِ الْعَظِيمِ
مَتَقَطْعًا لِسَائِرِ النُّجُومِ

ومن بدائع الببغاء استخدامه (كم) الخبرية الدالة على التكثير وهي قليلة الحروف سهلة النطق لكنها تمنح المخبر عنه تهويلاً وتكثيراً، وقد أفادت (كم) الخبرية أبا الفرج حيث أعانته على التهويل وتفخيم المعاني الواردة في الصور الفنية .

والملاحظ أن أسباب استعمال (كم) الخبرية هو دلالتها التكثرية لأن الشاعر يحتاج إلى ذكر أشياء كثيرة في عبارات موجزة تلائم روح الشعر وفي كل هذه الأحوال تقوم (كم) الخبرية بتأدية المعاني الكثيفة في أسلوب شديد الإيجاز ومن الأمثلة التي استخدمها فيها أبو الفرج قوله مخاطباً نفسه : (١)

كم خائف من هلكة سبباً نال النجاةً بذلك السبب
فبين أن هناك أسباب كثيرة قد تؤدي إلى هلاك الإنسان إلا أنها قد تكون سبباً في نجاته
منها .

ومن استخدامه (كم) الخبرية أيضاً قوله في وصف بغلة قد أهداها له بعض أصحابه فيقول: (٢)

كم قد تقدمها من سابحٍ بيدي عنانه وعلى الجوزاء حافره

ونراه أيضاً يستخدم (كم) في قوله مخاطباً نفسه: (١)

(١) الديوان : ٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٠٠ .

(١) الديوان : ١١٤ .

كَمْ كُرْبِيَّةٍ ضَاقَ صَدْرِي عَنْ تَحْمَلِهَا فَمَلَّتْ عَنْ جَلْدِي فِيهَا إِلَى الْجَزَعِ ۖ

نلاحظ هنا أن (كم) الخبرية تدل على كثرة ما أصابه من كرب ومصائب حتى أن صدره ضاق بها وتحول من الجلد والتحمل إلى الجزع والنفور لكثرة ما أصابه من هذا الهم والنصب. ونراه يستخدم أيضاً كم الخبرية عندما أراد وصف شراب في قدح أزرق فقال: (٢)

كَمْ مَنَّةٍ لِلظَّلَامِ فِي عُنُقِي بِحَمْعٍ شَمْلٍ وَضَمٍّ مُعْتَنِقِ

فكم في هذا البيت تدل على التكثر.

ونراه أيضاً يستخدمها عندما أراد ذم الهوى فيقول: (٣)

كَمْ دُقْتُ لِلدَّهْرِ خَطْباً أَنْتَ أَيْسَرُهُ فَمَا تَنَى عَطْفَ حَلْمِي الْحَادِثُ الْجَلُّ

فبين في هذا البيت أنه ذاق من الدهر خطوباً كثيرة وجاء بـ(كم) هنا للدلالة على كثرة ما أصابه من نوب الدهر ومصائبه.

ونراه أيضاً يستخدمها عندما وصف الخمر فقال: (١)

(٢) المصدر السابق: ١١٧.

(٣) المصدر السابق: ١٣٠.

(١) الديوان: ١٢٩.

(٢) المصدر السابق: ٣٣.

كم للصبابة والصبأ من منزل ما بين كُلوأذى إلى قَطْرُئِلِ

ولقد أكثر أبو الفرج من استخدام الألفاظ الجزلة وهي تلك الألفاظ التي تعرفها العامة إذا

سمعتها ولكن لا تستخدمها في كلامها العادي ومن هذه الألفاظ قوله: (٢)

والفتى الحازمُ اللبيبُ إذا ما خاناه الدهرُ لم يُخْنه العزأُ

نلاحظ أنه استخدم لفظة (اللييب) بمعنى العاقل ولم يستخدم كلمة العاقل بالرغم من أنها

كلمة فصيحة ولكن استخدم لفظة (اللييب) رغم عدم استخدام العامة لها ولكن عندما

تسمعا العامة تفهم معناها.

وكذلك استخدم لفظاً جزلاً عندما قال: (٣)

باع الذي يَفنى بما أبقى له ذِكراً إذا دَجَتِ الحُطُوبُ أضأء

فاستخدم لفظة (دجت) بدلاً من أظلمت.

والأسلوب الجزل: الجزل في اللغة القوي الكثير في كل شيء ورجل جزل الرأي، أي يجيده

وكلام جزل، أي قوي شديد، واللفظ الجزل خلاف الركيك.

يقول أبو هلال العسكري: "الكلام الجزل هو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله

في محاوراتها، ويقرر أن أجود الأساليب ما كان جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا تستبهم مغزاه

(٢) المصدر السابق: ٣٤.

والأسلوب الجزل عنده درجات يعلو بعضها بعضاً ، فهناك الأسلوب الجزل، والأسلوب الأجزل، والأسلوب الجزل الرديء ، وقد ضرب لذلك أمثلة شعرية ، منها قول مسلم بن الوليد الذي أعتبره من الجزل الجيد:-

بَكَفَّ أَبِي الْعَبَّاسِ يُسْتَمَطَّرُ الْغِنَى وَتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ النَّصْلُ
وَيُسْتَعَطَّفُ الْأَمْرُ الْأَبْيَّ بِحِزْمِهِ إِذَا الْأَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْصٌ وَلَا فِتْلٌ^(١)

ويرى ابن رشيق القيرواني: أن الجزالة لا تعني كلاماً حوشياً خشناً، ولا غريباً جافاً، ولكن حال بين حالين، وهو يرى أن الجزالة لا تتنافى مع رقة الأسلوب وحلاوته، لأن الألفاظ فيه ينبغي أن تكون سهلة النطق على اللسان عذبة الوقع على الأذن^(٢) .

ويشير ابن الأثير في كتابه إلى أن " الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة وريقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد، وفي استحلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك "^(٣) .

ومن الألفاظ الجزلة أيضاً قوله: ^(١)

ما بال حَيٍّ بالأراك نَزَلْتُهُ ضَيْفًا فَضَنَّ وَشَيْمَةً الْعَرَبِ الْقُرَى

(١) الصناعتين : ٨١-٨٠ .

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني : ١٤٢/١ .

(٣) الملل السائر ، ابن الأثير : ١٧٢/١ .

(١) الديوان : ٣٩ .

(٢) المصدر السابق : ٤٩ .

فكلمة (ضنّ) أي منع كلمة جزلة لا تستخدمها العامة كثيراً ، ومن الألفاظ الجزلة أيضاً

قوله : (٢)

سرورنا بك فوق الهمّ بالنُّوبِ فما يغالبنا حزن على طربِ

فاستخدم لفظة (النوب) بدلاً من المصائب استخداماً جزلاً ، وكذلك قوله : (٣)

إذا رمت بالشرارِ واضطَرمتْ على ذُرَاهَا مطارفُ اللّهبِ

فاستخدم لفظة (اضطرمت) أي اشتعلت ، وكذلك قوله : (٤)

فأسالتْ دماً كأنّ جفوني عَصْفَرْتُهُ بدمها المسكُوبِ

فكلمة (عصفرته) كلمة جزلة لا تستخدمها العامة، وكذلك قوله : (٥)

فلما دَجَا الليلُ استعادَ سنا الضُّحى براحٍ نأتُ الليل عن ظُلُمَاتِهِ

فكلمة (دجا) بمعنى اشتد سواده ، وفي نفس القصيدة يقول:

إلى أن تهادى بين نحري ونحره صليب يضوُّع المسكُ من نفحاته

(٢) المصدر السابق : ٥٠

(٤) المصدر السابق : ٥١

(٥) المصدر السابق : ٥٢

فكلمة (يצוע) بمعنى ينتشر وهي كلمة جزلة ، وكذلك قوله : (١)

ذِي قَضَبٍ عَيْبٍ أَصَمَّ مُدْمَجٍ

فكلمة (عبل) كلمة جزلة لا تستخدمها العامة كثيراً ، وقوله أيضاً: (٢)

تَنَكَّبَ مَذْهَبَ الْهَمَجِ وَعُذُّ بِالصَّبْرِ تَبْتَهَجِ

فكلمة (تنكب) كلمة جزلة ومعناها (عدل)

ومن الألفاظ الجزلة أيضاً قوله: (٣)

تَحَالُ أَفْحَافٌ لُجَيْنٍ حَوْتٌ مِنْ أَصْفَرِ الْعَسْجَدِ أَقْدَاخًا

فكلمة (لجين) بمعنى الفضة وكلمة (العسجد) بمعنى الذهب ، وكل من الكلمتين ألفاظ جزلة.

وفي نفس القصيدة يقول: (٤)

يُلهِي عَنِ الْوَرْدِ إِذَا مَارَنَا وَيُخْلِفُ الْمَسْكَ إِذَا فَاحَا

فكلمة (رنا) بمعنى نظر وهي كلمة جزلة ، والمتأمل في ديوانه يجد أن معظم ألفاظه جزلة.

(١) الديوان : ٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ٥٩ .

(٣) المصدر السابق : ٦١ .

(٤) المصدر السابق : ٦٣ .

ولقد استخدم أبو الفرج بعض الكلمات الفارسية في ديوانه مثل قوله في قصيدته التي يصف

فيها الخمر: (١)

عاطينها كالجلنار إذا ما كُلت من حبابها بالأقاح

فكلمة (الجلنار) هي زهر الرمان وهي كلمة فارسية الأصل وكذلك قوله في قصيدة يصف

فيها نفسه: (٢)

فهي كخودٍ في لباسٍ أخضر تأوى إلى حرّاهة لم تستر

فكلمة (خرّاهة) كلمة فارسية معناها السرادق أو الخيمة الكبيرة.

ومن الكلمات الأعجمية أيضاً التي استخدمها أبو الفرج قوله عندما يصف الخمر: (٣)

كم للصبابة والصبّاء من منزل ما بين كُلوادى إلى قطرُبل

فكلمة (قطرُبل) كلمة أعجمية وهي اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر.

ومن الألفاظ الأعجمية أيضاً قوله: (٤)

عفت من سمنّدو خيله وتنجّزت بخرشنةٍ ما قدّمته مواعده

(١) الديوان: ٦٤ .

(٢) المصدر السابق: ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق: ١٣٦ .

(٤) المصدر السابق: ٨١ .

فكلمة (سمندو) بلد في وسط بلاد الروم وهي كلمة أعجمية ، وكذلك كلمة (خرشنة)

بلد من بلاد الروم قرب ملطية وهي أعجمية أيضاً .

ومن الألفاظ الأعجمية أيضاً قوله: (١)

وحسن منقارٍ أشم قاني كأنما صيغ من المرجان

فلقد استخدم أبو الفرج كلمة (المرجان) وهي نوع من الأحجار الكريمة وهو نبات بحري

شجري أحمر يتكون من مادة كلسية يفرزها نوع من الحيوانات البحرية لوقاية جسمه من

الأمواج وتكثر في البحر الأحمر، ولفظ (المرجان) معرب من اليونانية.

ومن الألفاظ الفارسية التي استخدمها أبو الفرج قوله في وصف كانون: (٢)

واحدقنا بأزهر خا فقات حوله العذب

فما ينقل عن سبج يعود كأنه ذهب

فلقد استخدم أبو الفرج لفظة (سبج) وهي مادة قيرية صلبة سوداء لماعة تلتهب كالفحم

الحجري وهي كلمة فارسية.

أما الألفاظ المبتدلة عند أبي الفرج فقليلة، ولا نعني بالابتدال هنا أن تكون الكلمة عامية

بل قد تكون الكلمة فصحي ولكن كثرة استخدامها واستعمالها لدى العوام جعلتها مبتدلة

ومن هذا قوله في وصف الشراب والخمر: (١)

(١) الديوان: ١٦٩.

(٢) المصدر السابق: ٤٦٠.

ونحن في مجلس تدير به ال
خمرَ علينا الأقداحُ لا العُلبُ

فكلمة (العُلب) رغم أنها فصيحة إلا أن العامة استخدمتها كثيراً مما جعلها مبتدلة
والابتدال أو ما يسمى (بلي الألفاظ) ^(٢) ينشأ من كثرة الاستعمال.
ويقول أيضاً: ^(٣)

طاب جداً فلوبه سَمَح الدهر
ر لأمسي عطري واصبح طيبي

نجد كلمة (طاب جداً) كلمة فصيحة إلا أن العامة استخدمتها بكثرة فجعلتها مبتدلة.
ومن الألفاظ المبتدلة أيضاً قوله: ^(٤)

وداية تُرضعُ عبر دَرِّها

فكلمة (داية) هي القابلة التي تساعد النساء في الولادة وهي كلمة فصيحة إلا أن
استخدام العامة لها بكثرة جعلها مبتدلة.

أما الأسلوب السوقي: هو ما كان المعنى فيه صائباً ، ويأتي بارداً فاتراً ، وهذا الأسلوب
يكون مهلهلاً ، مستهجنأ مدموماً ، ولعل شاعراً مثل أبي العتاهية يغلب على شعره
السوقية، والألفاظ الباردة مثل قوله:

(١) الديوان : ٤٥ .

(٢) دلالة الألفاظ ، د. أبراهيم أنيس : ١٤٠ .

(٣) الديوان : ٥١ .

(٤) المصدر السابق : ١٠١ .

ماتَ والله سعيد بن وهب رحم الله سعيدَ بن وهبِ
يا أبا عثمان أبكيتَ عيني يا أبا عثمان أوجعت قلبي

ولعل أبا العتاهية كان راغباً في هذا الأسلوب يتعمده تعمداً ليشيع شعره على السنة العامة، على أننا يجب أن ننتبه إلى أن السوقية تختلف من عصر إلى عصر، تبعاً لاختلاف العامة من أهل كل عصر في مستواهم الثقافي، فما يعد شعراً سوقياً في عصر قد يكون مقبولاً في عصر آخر. (١)

والمدقق في بعض ألفاظ أبي الفرج يلاحظ أن بعض هذه الألفاظ تميل إلى المنطق والحكمة والعقل، وأن دل هذا على شيء فإنما يدل على تأثره بالفلسفة والمنطق الذي كان يغلب في ذلك الوقت ومن ذلك قوله في الحكمة: (٢)

رسائلُ إخوانِ الصفاءِ كثيرةٌ ولكنَّ إخوانِ الصِّفاءِ قليلُ

ويظهر ذلك أيضاً عندما ذم أبو الفرج الدهر قائلاً: (٣)

هي حالان شدةٌ ورخاءٌ ومجالان نعمةٌ وبلاءٌ
والفتى الحازمُ اللبيبُ إذ ما خانه الدهرُ لم يخنهُ العزاءُ
وإذا ما الرِّجاءُ أُسقطَ بين الناسِ فالناسُ كلُّهمُ أكفاءُ

(١) فصول النقد الأدبي وتاريخه: ٤٢.

(٢) الديوان: ١٣١.

(٣) المصدر السابق: ٣٣.

نلاحظ إن ألفاظ الأبيات السابقة فيها دقة المنطق وحكمة المحرب ، وتميل إلى العقل في معناها، ولقد عمد أبو الفرج إلى تراكيب لغوية أخرى تحوي عبارات تحمل شحنة من الحكمة حيث التجارب الكثيرة التي مر بها الشاعر، وخبرته في الحياة.

وحكم أبي الفرج منثورة في معظم ديوانه فمثلاً قوله: (١)

ما المال إلا ما افادَ ثناءً ما العزُّ إلا ما تَنَى الأعداءَ
شَحَّتْ على الدنيا الملوكُ وعافها مَنْ لَمْ يُطْعَ في حفظها الأهواءَ

فالشاعر هنا يظهر أن المال لا فائدة فيه إلا إذا ترك حمداً وثناءً.

ومن حكم أبي الفرج أيضاً قوله: (٢)

وصلاخُ الأجسامِ سهلٌ ولكنْ في صلاحِ العقولِ يَغِي الطيب

فالشاعر هنا يبين أن صلاح الأجسام سهل ميسر على الطيب أما صلاح العقل ففيه

مشقة وعسر.

ومن جميل حكم أبي الفرج أيضاً قوله: (٣)

لا تَسْتَكُنْ لطوارقِ النُوبِ والِقَ الخطوبِ بوجهِ محتسب

(١) الديوان : ٣٤ .

(٢) المصدر السابق : ٤٧ .

(٣) المصدر السابق : ٥٠ .

فدنوّ ما ترّجّوه من فرّجٍ يأتي بحسب تكاثفِ الكُرب
كم خائف من هلكة سبباً نال النجاةً بذلك السبب

فالشاعر هنا يدعو الناس إلى عدم الاستسلام لما يأتي به الدهر للإنسان ويدعوهم إلى احتساب الأجر عند الله عندما تأتي الخطوب فالفرج لا يأتي إلا عندما تتكاثف الكرب والمصائب، فكثير من الناس كانوا يخشون أموراً كثيرة تتسبب في هلاكهم إلا أنها كانت السبب في نجاتهم في هذه الحياة .

وتستمر حكم أبي الفرّج في ديوانه فنراه يقول: (١)

وما شرفُ الإنسانِ إلا بنفسه وإن خصّه جدُّ شريفٌ ووالدُ
إذا كان كلُّ الناسِ أبناءَ آدمٍ فأفضلُهم من فضّلتِه المَحامِدُ

فيذكر شاعرنا أن شرف الإنسان لا يكون إلا بنفسه وليس الشرف ما تبتنيه الجدود والآباء فالإنسان هو الذي يبني مجده بيده فلا يركن إلى ماضي آبائه وأجداده، فكل الناس أبناء آدم ولكن أفضل الناس من ترك حمداً يحمده الناس عليه.

ومن حكم أبي الفرّج أيضاً قوله: (٢)

لا تأسفَنَّ لأمر فاتٍ مطبئُهُ هيهاتَ ما فائتُ الدنيا بمرْدودٍ

فينصح الشاعر هنا الإنسان ألا يأسف على أمر فات فالذي مضى لا يعود أبداً .

(١) الديوان : ٧٠٠ .

(٢) المصدر السابق : ٧٩٠ .

ومن الأساليب التي استخدمها أبو الفرج في شعره كثرة الحمل الفعلية وخاصة في أغراض معينة كالمدح فقد حرص أبو الفرج على إبراز مزايا الممدوح من خلال أعمالهم وأقوالهم والتي عبر عنها الشاعر كثيراً بصيغة المضارع للدلالة على استمرارها ولحث الممدوح على متابعتها، فأنظر إليه مثلاً عندما مدح سيف الدولة قائلاً: (١)

تذاك إذا ضَنَّ الغمامُ غمامُ وعَزْمُكَ إنْ فُلَّ الحُسَامُ حُسَامُ
فهذا ينيلُ الرزقَ وهو مُمنَعٌ وذاك يرُدُّ الجيشَ وهو هُمامُ
ومن طلب الأعداءَ بالمالِ والضُّبا وبالسعد لم يبعد عليه مرَامُ

فنجد أبا الفرج قد استخدم الفعل المضارع (ينيل) و (يرد) في البيت الثاني للدلالة على كثرة واستمرار منح الرزق للناس وهو ممنوع عنه وهذا يدل على كثرة واستمرارية كرم سيف الدولة، وكذلك الفعل (يرد) يدل على شجاعته في رده للجيوش العظيمة واستمرارية هذا الرد. ويستخدم أيضاً أبو الفرج الفعل المضارع عندما أراد أن يصف بركة فيقول: (٢)

وقوراءَ كالفلكِ المستدير تروقُ العيونُ بالآلائِها
حبَّتْها البحارُ بأَمْواجِها وسحبُ السماءِ بأنوائِها
كأنَّ تدفقَ تيارِها يداك تفيضُ بُنعمائِها

فلاحظ أن أبا الفرج استخدم الفعل المضارع (تروق) ليدل على جمال هذه البركة واستمرارية هذا الجمال الذي يبهر العيون الناظرة إليها.

(١) الديوان: ١٤٣.

(٢) المصدر السابق: ٤٠٠.

وفي البيت الثالث نلاحظ أنه يمدح الممدوح بقوله (تفيض) لاستمرارية وتجدد عطاء هذا الممدوح .

ويكثر أبو الفرج من استخدام الفعل المضارع الذي يدل على الاستمرارية والتجدد عندما أراد أن يصف الخيل فيقول: (١)

تباشُرْ أَقْطَارَ الْبِلَادِ كَأَنَّهَا رِيَاخٌ لَهَا فِي الْخَافِقِينَ هَبُوبُ
تَمَاشِي بَفْتِيَانٍ كَأَنَّ جَسُومَهُمْ لَخَفَّتْهَا فَوْقَ السَّرُوحِ قَلُوبُ
وَتَمَلَأَ مَا بَيْنَ الْفَضَائِلِ عَثِيرًا مُثَارًا بَوَجْهِ الشَّمْسِ مِنْهُ شَحُوبُ

نلاحظ أن أبا الفرج استخدم الفعل (تباشُر - تماشى - تملأ) ليبدل على مدح الخيول وصفتها المستمرة في الانطلاق في الأقطار وحمل الفرسان عليها وآثارها للغبار في المعارك، وهذا الوصف يدل على عراقة وأصالة هذه الخيول واستمرارية عطائها في المعارك ومساعدتها الفرسان في مهامهم المكلفين بها.

ومن الملاحظ في ديوان أبي الفرج أنه كان يلجأ إلى بعض العناصر اللغوية ليستعين بها في نقل مضمون كلامه ومن هذه الأساليب استخدامه أسلوب التفضيل بكثرة في أبياته ومثال ذلك قوله: (٢)

مَا كَانَ أَحْسَنَ حَالَتِي لَوْ أَنَّ مَا أُوتَيْتَ مِنْ كَرَمٍ وَعَطْفٍ فِيهِ

(١) الديوان: ٤٢.

(٢) المصدر السابق: ١٦٦.

فاستخدم أفعل التفضيل (أحسن) ليفاضل بين أمرين ويريد اختيار الأحسن منها.
ويستخدم أيضاً أفعل التفضيل عندما قال: (١)

فليالي الصبا أسرُّ ليالٍ وزمانُ الهوى ألدُّ زمانٍ

فلقد استخدم أبو الفرج (أسر) و (ألد) على وزن أفعل وهي صيغة تفضيل لتدل على
أن ليالي الصبا كانت أجمل الليالي فهو يفضلها على جميع الليالي وكذلك زمن الهوى ألد وأجمل
الأزمان فهو يفضل هذا الزمان على غيره.

ومن استخدامه لاسم التفضيل أيضاً قوله: (٢)

زمنُ الوردِ أظرفُ الأزمانِ وأوانُ الربيعِ خيرُ أوانٍ

فلاحظ أن أبا الفرج استخدم اسم التفضيل (أظرف) على وزن أفعل ليفاضل بين الأزمان
وهو زمن الورد الذي يفضله على جميع الأزمان.

كما نراه يستخدم (خير) أيضاً اسم تفضيل إلا أنه حذف منه الهمزة فالأصل (أخير) إلا
أن علماء اللغة يجيزون حذف الهمزة في كلمة (أخير) و(أشر) ويجعلونها (خير - شر) فهو يقول
أن أوان الربيع خير أوان.

(١) الديوان: ١٦٤.

(٢) المصدر السابق: ١٦٣.

فلقد استطاع أبو الفرج أن يضيف بأسلوب التفضيل أبعاداً جديدة وإيضاحاً للصورة وتقريبها للنفوس بل وتأكيداً لأحوال الموصوف المفضل. وهذا يعكس حرص الشاعر على إفادة المتلقي.

ومن الأساليب والتراكيب التي يستخدمها أبو الفرج استخدامه أسلوب الاستدراك في الكلام (لكن) لتكون فاصلة بين تركيبين وبذلك يتولد للتركيب شيء من القوة تجعل المتلقي يتحضر لاستقبال ما بعد (لكن) حتى إذا سمعه وجده امتداداً لما سبق وزيادة بيان وتثبيت وتمكين ومن ذلك قوله: (١)

ولو قُبِلَ الفِدا لكان يُفدى وإن جَلَّ المُصائبُ عن التفادي
ولكنَّ المنونَ لها عيونٌ تكدُّ لحاظها في الابتعادِ

فالشاعر هنا يستخدم الاستدراك لينبه أن الإنسان يقبل أن يفدي المصائب بما يملك من مال وجاه ولكن الموت لا يفدى بشيء فالاستدراك هنا أظهر وأبين فيما لا يجد مجالاً للشك والريب في أن الموت لا مفر منه وأنه لا يفدى ولو ملئ الأرض ذهباً .

ومن استخدامه أيضاً ل (لكن) قوله مخاطباً أبا محمد يحيى ابن محمد بن سليمان الأزدي (٢)

(١) الديوان: ٧٦.

(٢) المصدر السابق: ٨٧.

وقد صاحبت إخوانا ولكن متى ثغنى عن الشمس البُدورُ

فكلمة (لكن) هنا جاءت لتستدرك أن ممدوحه لا يدانيه شيء .

ومن الأساليب التي استخدمها أبو الفرج في ديوانه محاولته تقليد الشعراء السابقين له مما

يضعف أسلوبه، وهذا ما يسميه النقاد بالسرقات الأدبية، والمتتبع لشعر أبي الفرج يجده قد

أخذ ممن سبقوه من الشعراء ونجد ذلك عندما يقول :^(١)

للظلم ما بين الأقربين مَضَاضَةٌ والذلُّ ما بين الأبعدِ أَرْوْحُ
فإذا أتتكَ من الرجال قوارصٌ فسِهامُ ذي الثُّرْبَى القَربِيةِ أَجْرَحُ

فنجد أن أبا الفرج قد نقل المعنى السابق بل معظم ألفاظ الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد

عندما قال :^(٢)

وظلمُ ذوي الثُّرْبَى أشدُّ مَضَاضَةٌ على النفس من وقعِ الحسامِ المهْندِ

فلقد نقل أبو الفرج المعنى كاملاً ونقل بعض الألفاظ مثل (الظلم . الأقربين . مضاضة) أوغيّر

كلمة الحسام فجعلها سهام، والملاحظ هنا أن بيت طرفة أجمل ولم يضيف أبو الفرج شيئاً

جديداً بل زادت ألفاظه عن بيت طرفة بن العبد، ولكن لم تزد معانيه.

ومن الأخذ الذي نقله أبو الفرج ما نقله عن المتنبي الذي كان يعيش في عصره فنجد أن

(١) الديوان : ٦٢ .

(٢) ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلام الشنتمري : ٤٠ ، وينظر شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزي : ١٣٦ .

أبا الفرج نقل عن المتنبي معانٍ وألفاظاً كثيرة منها قوله: (١)

لا تأسفَنَّ لأمر فاتٍ مطلبُهُ هيهاتَ ما فائتُ الدنيا بمرْدودٍ

لقد أخذ هذا المعنى من قول المتنبي: (٢)

لا تلقِ دهرَكَ إلا غيرَ مكترثٍ ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفاتت الحزن

فالمُتنبي يقول في البيت الثاني: لا يدوم السرور ولا يرد عليك ما فات حزنك عليه، ونجد أبا

الفرج أخذ هذا المعنى وقال هيهات ما فات من الدنيا أن يُرد. وهذا سماه النقاد (سرقة) لأن أبا

الفرج لم يضيف جديداً لهذا المعنى.

ومن السرقة أيضاً التي استخدمها أبو الفرج تعدّيه على بيت أبي تمام حيث يقول أبو تمام

في وصف فتح عمورية: (٣).

بيضُ الصَّفائح لا سودُ الصَّحائف في متوهنٍ جلاءُ الشك والرَّيبِ

فأبو تمام يقول أن السيوف البيضاء اللامعة هي التي تحقق النصر لا ما يكتب في

الصحائف من كلام المنجمين وأكاديبهم فنجد أن أبا الفرج أخذ هذا المعنى وقال: (٤)

عدلُ الصّوارمِ أعدلُ الأحكامِ وشبا الأسنّةِ أكتبُ الأقلامِ

(١) الديوان: ٧٩.

(٢) شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي: ٤٦٨/٢.

(٣) ديوان أبي تمام: ٤٠ / ١.

(٤) الديوان: ١٤٧.

فهو يقول أن السيوف الصوارم هي التي تحقق العدل لا ما تكتبه الأقلام في الصحف من كلام المنجمين وهذا المعنى قد أخذه من أبي تمام في البيت السابق .

ومن الأساليب التي استخدمها أبو الفرج وأكثر منها هي الأساليب الخبرية. والخبر هو كل قول يستفيد منه المخبر به علماً بشيء لم يكن معلوماً له عند إلقاء القول عليه. ويمكننا تلخيص معنى الخبر بالقول: "الخبر ما يصح أن يقال لقائله أنه صادق فيه أو كاذب، فإن كان الكلام مطابقاً للواقع كان قائله صادقاً وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذباً" (١) .

ومن المعروف أن الخبر إذا ألقى على متردد في حكمه حسن توكيده له ليتمكن مضمون الخبر من نفسه.

ومن الأدوات التي يؤكد بها الخبر (إن، لام الابتداء، أما الشرطية، السين، قد، القسم ضمير الفصل ، نونا التوكيد، الحروف الزائدة، أحرف التنبيه) (٢)

ولو نظرنا في ديوان أبي الفرج نجد أنه استخدم مؤكداً للخبر بكثرة ومن ذلك قوله: (٣)

وإذا ما الرَّجَاءُ أُسْقِطَ بين الناسِ فالناسُ كلُّهُمُ أَكْفَاءُ

نلاحظ هنا أن أبا الفرج استخدم الحرف الزائد (ما) بعد (إذا) الشرطية لتأكيد معنى هذا

الظرف.

(١) علم المعاني ، عبد العزيز عتيق : ٤٦ .

(٢) المصدر السابق : ٥٥ .

(٣) الديوان : ٤٣ .

ونجد أبا الفرج يستخدم حرف التنبيه (أما) وهو حرف استفتاح تدل على تحقيق ما

بعدها وتوكيده فيقول أبو الفرج: (١)

أَكْلٌ وَمِيضٌ بَارِقَةٌ كَذُوبٌ أَمَا فِي الدَّهْرِ شَيْءٌ لَا يَرِيبُ

فحرف (أما) دل على توكيد أن الدهر به أشياء تريب.

ومن الأساليب التي استخدم فيها أبو الفرج أدوات التوكيد قوله: (٢)

تَنَكَّبَ مَذْهَبَ الهَمَجِ وَغَدَّ بِالصَّبْرِ تَبْتَهَجِ

فِيَنَّ مُظَلَّمِ الأَيَا مَ مَحْجُوجٌ بِلا حُجَجِ

فلقد استخدم الشاعر أداة التوكيد (إنّ) المكسورة الهمزة المشدودة النون لتأكيد مضمون

الجملة.

وقال أبو الفرج في وصف الخمر مستخدماً (ما) الزائدة لتوكيد الخبر فيها هو يقول: (٣)

عَاطِنِيهَا كَالجُلْنِ مَارَ إِذَا مَا كُؤَلَّتْ مِنْ حَبَابِهَا بِالأَقَاحِ

وكذلك استخدم (ما) الزائدة للتوكيد في قوله عندما وصف إحدى آلات الصيد (٤).

مَوَاتٌ تَعِيشُ إِذَا مَا أَعَادَ لَهَا النَافِخُ الرُّوحَ مِنْ رُوحِهِ

فلقد استخدم (ما) بعد إذ الظرفية لتأكيد معنى هذا الظرف.

(١) علم المعاني: ٥٥.

(٢) الديوان: ٦١.

(٣) المصدر السابق: ٦٤.

(٤) المصدر السابق: ٦٥.

ومن أساليب التوكيد التي استخدمها أبو الفرج لتأكيد الجملة الخبرية استخدامه (قد) التي

تفيد التحقيق في قوله: (١)

لقد عزَّ العزاءُ علِّي لما تصدَّى لي لتقتلني الصُّدودُ

فقد حرف تحقيق جاء لتأكيد الجملة الخبرية.

ومن الجمل الخبرية التي استخدمها أبو الفرج وجاء معها بمؤكد قوله في مدح سيف

الدولة: (٢)

إنَّ المحامدَ رتبةٌ لا تبلغُ ال إنسان راحتها إذا لم يُجهدِ

فاستخدم الشاعر (إنَّ) المكسورة الهمزة المشددة النون لتأكيد جملة الخبر وبيان أن المحامد

رتبة لا يبلغها الإنسان إلا بالجد والاجتهاد.

ومن الأساليب الخبرية التي جاءت مؤكدة ب(قد) قوله: (٣)

قد ملأت لحيثه صدره ورأسه أفرغ من طبل

فجاءت (قد) لتوكيد الفعل الماضي ملأت.

ومن الأساليب التي استخدمها أبو الفرج في ديوانه الأساليب الإنشائية ومن ذلك

(١) الديوان: ٧٠٠.

(٢) المصدر السابق: ٧٤.

(٣) المصدر السابق: ١٣٥.

قوله: (١)

وهل يُجارى السابق المقصّر أم هل يساوى المدرك المعذر؟

فاستخدم الشاعر هنا أداة الاستفهام (هل) ليطلب بها التصديق ليس غير .

ومن الإنشاء الطلبي قوله في الرثاء : (٢)

لا تحسبي أنّ نفسي كالنفوس إذا حمّلتها في هوك الضيمّ تحتملُ

فاستخدم الشاعر النهي في قوله (لا تحسبي) والنهي هو طلب الكف عن الفعل أو

الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام .

ومن الأساليب الإنشائية الطلبية التي استخدمها الشاعر قوله عندما أراد مخاطبة أبي

إسحاق الصابئ وهو في السجن حيث يقول : (٣)

أيا ماجداً مذيممّ المجد ما نكصُ وبدرّ تمام مُدّ تكامل ما نَقصُ

فاستخدم الشاعر أسلوب النداء (أيا ماجداً) وهو حرف نداء للبعيد ، حيث أن

الصابئ في السجن ، وهو خارجه وهنا يقصد الشاعر بالنداء مدح المنادى .

وكذلك استخدم الشاعر النداء عندما أراد أن يتغزل فقال : (٤)

يا سادتي هذه نفسي تُودِّعكم إذا كان لا الصبرُ يُسليها ولا الجزعُ

(١) الديوان: ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق: ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق: ١٠٧ .

(٤) المصدر السابق: ١١١ .

فاستخدم الشاعر أسلوب النداء هنا (يا سادتي) وهو أسلوب إنشائي طليبي يقصد به الشاعر أن نفسه لا تطيق الصبر والجزع .

وكذلك استخدم أسلوب النداء عندما قال : (١)

يا من تشابه منه الخُلُقُ والخُلُقُ فما تسافرُ إلا نحوه الحدقُ

استخدم أسلوب النداء (يا من) وهو أسلوب إنشائي الغرض منه إظهار جمال محبوبه في خلقها وخلقها .

ومن الأساليب التي استخدمها أبو الفرج في شعره أسلوب القصر ، وأسلوب القصر هو تخصيص شيء بشيء أو أمر بآخر بطريق مخصوص .

ولو نظرنا في ديوان أبي الفرج نجد أنه استخدم أسلوب القصر في شعره ومثال ذلك قوله (٢):

ما المال إلا ما أفادَ ثناءً ما العزُّ إلا ما ثنى الأعداءَ

نلاحظ أن أسلوب القصر هنا جاء عن طريق النفي والاستثناء في قوله (ما المال إلا ما أفاد ثناء) وكذلك (ما العز إلا ما ثنى الأعداء)، وهذا الأسلوب واضح الأثر في تقوية المعنى وإحكام ربط الجملة ، والتركيز الشديد على بعض عناصر التركيب فليس للمال فائدة إلا ما جاء على أثره الثناء والحمد من الناس وكذلك لا يكون العز إلا بما يثنى

(١) الديوان: ١١٦.

(٢) المصدر السابق: ٣٤.

الأعداء ويكبتهم .

(١) ومن أمثلة أسلوب القصر أيضاً قوله :

وما يدركُ العلياءَ إلا مهذبٌ يصاب على مقداره ويصيبُ

فلقد استخدم أيضاً النفي والاستثناء في قوله (ما يدرك العلياء إلا مهذب) لربط الجملة

وتقوية المعنى .

ومن أساليب القصر التي استخدمها أبو الفرج أيضاً استخدامه حرف العطف (لكن) وهو

من أساليب القصر ومثال ذلك قوله : (٢)

وصلاخُ الأجسامِ سهلٌ ولكنْ في صلاحِ العقولِ يَعي الطبيب

(٣) ومن أساليب القصر أيضاً قوله :

وما أعابُ بشيءٍ بعدَ فُرقتكمُ إلا البقاءَ فإنني منه اعتذِرُ

فاستخدم النفي والاستثناء أيضاً لتقوية المعنى وربط الجملة .

(٤) ومن أساليب القصر التي استخدمها أبو الفرج في ديوانه أسلوب (إنما) في قوله :

لم يبق لي رَمَقٌ أشكو هواكُ به وإنما يتشكى من به رَمَقُ

(١) الديوان : ٤٢ .

(٢) المصدر السابق : ٤٧ .

(٣) المصدر السابق : ٨٨ .

(٤) المصدر السابق : ١١٦ .

فلقد استخدم أسلوب إنما ليقصر إن الذي به رمق من الحياة هو الذي يتشكى من الهوى ، وهذا الأسلوب جاء لتقوية المعنى .

وفي النهاية نستطيع أن نقول أن البغاء فحم الألفاظ حسن التركيب جزل العبارة حيث أنه كان كاتباً من كتاب سيف الدولة المشهورين ، وترك عدداً كبيراً من الرسائل التي تشير إلى براعته في فن الكتابة وحسن اختيار الألفاظ .

كما أنه يعطي التراكيب والأساليب التي استخدمها في ديوانه اهتماماً كبيراً ، فالذي يتطلع إلى ديوانه يدرك أن أساليبه تمتاز بالسهولة والوضوح في معظمها ، وهذه سمة غالبية على شعراء الدولة العباسية فالطبيعة الخلابية والحياة الناعمة والمناظر الجميلة والقصور الفاخرة والنوافير والتمائيل جعلت الناس يميلون إلى الرفاهية و البساطة والبعد عن التكلف ، ونجد ذلك جلياً في ديوان شاعرنا كما أوضحنا سابقاً .

*

*

*

المبحث الثاني

التصوير الفني

جاء في القاموس المحيط: الصُّور (بالضم) الشكل وقد صُوِّر فتصور ، وتستعمل بمعنى النوع والصفة ^(١) ويعني ذلك أن للصورة في اللغة ثلاث معان ، فهي تدل على الشكل ، والنوع، والصفة ، وقد وردت لذلك أمثلة متعددة من القرآن الكريم والحديث الشريف ومن ذلك قوله تعالى {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} ^(٢) فكلمة المصور معناها الموجد على الصفة التي يريد والصورة التي يختار ^(٣) .

وقد وردت لذلك شواهد من الحديث النبوي ، اشتملت على معاني الصور والتصوير منها ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه من قول المصطفى صلى الله عليه وسلم "إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورين" ^(٤). قال القسطلاني في شرح معنى المصورين "الذين يصورون أشكال الحيوانات التي تعبد من دون الله ، فيحكونها بتخطيط ، أو تشكيل عالمين بالحرمة قاصدين ذلك" ^(٥) ويفهم من هذا أن الصور تطلق على الشيء المشابه والمماثل لغيره رسماً وتشكيلاً .

وفي الشعر العربي القديم كذلك تدل الصورة على الشكل المحسوس المميز لشيء ما، ومن

ذلك قول زهير بن أبي سلمى: ^(٦)

لسانُ الفتى نَصْفٌ ونَصْفٌ فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(١) القاموس المحيط ، مادة (الصور) .

(٢) سورة الحشر، ٢٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ١١٧ .

(٤) صحيح البخاري : ٨٥/٧ .

(٥) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، شهاب الدين القسطلاني : ٤٨١/٨ .

(٦) شرح المعلقات السبع ، الزوزني : ١٩٥ .

ومما سبق ندرك أن الصورة بمعناها العام تدل على الشكل والصفة المحسوسة بصورة الإنسان في القرآن الكريم تدل على التشكيل والتصوير الذي يأتي بعد خلقه في الهيئة التي أرادها الخالق له ، وفي الأحاديث الشريفة تكون بمعنى الشيء المحسوس المشابه لغيره ، كما تدل على الشكل عامة ، وفي الشعر العربي تدل على الشكل المجرد البعيد عن الجوهر كما ورد في بيت زهير بن أبي سلمى ، فالصورة بمعناها العام الشامل تدل على السمات المحسوسة.

والصورة في النقد اليوناني تعني إيجاد شيء على هيئة غيره على سبيل المحاكاة مع إبراز الجوانب التأثيرية التي يريد المصور ، وبذلك يتضح أن المفهوم اليوناني للصورة لا يختلف كثيراً عن المفهوم المعروف في اللغة في استعمال القرآن أو الحديث أو الشعر العربي إلا أنه يميل إلى التخصيص بحيث يجعل الصورة مقيدة بالشيء المشابه لغيره^(١) .

والذي ينظر إلى النقد الأدبي عند الأوربيين المحدثين يجد أن الصورة الكلاسيكية تهدف إلى نقل الوجود الخارجي كما هو ، وكما يظهر للعين وتحتزنه الذاكرة ، فهي لذلك صورة جامدة لا تستوحي ما قد يكون وراء الألفاظ من إحاءات^(٢) ويكتفي البرناسيون بالوصف الموضوعي لمظاهر الطبيعة أو مآثر الحضارات السابقة، تاركين للمتلقّي استشفاف العواطف^(٣) إذن الصورة الكلاسيكية والبرناسية لا تتجاوز الوصف المباشر للأشياء المحسوسة، أما الرومانسيون فإن الشاعر عندهم يستعين على جلاء الصورة في الشعر بالطبيعة ومناظرها ، على أن يراعي

(١) النقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة : ٧٥ .

(٢) الصورة الشعرية ، ساسين عساف : ٤٤ .

(٣) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال : ٣٩٣ .

صنوف التشابه التي تربط ما بين صورة الطبيعية، وجوهر الأفكار والمشاعر، بحيث لا يقف هذا التشابه عند حدود المظاهر الحية^(١) فالصورة عندهم واصفة معبرة موحية، أما الرمزيون فإن شاعرهم يتجاوز المحسوسات، ليعبر عن أثرها العميق في النفس، ذلك الأثر الذي لا تستطيع أن تعبر عنه اللغة إلا بالإيحاء، بواسطة الموسيقى والألفاظ والغموض^(٢) فالصورة الرمزية لا تخضع لنظام العقل والمنطق، وتهدف إلى وصف أثر الأشياء على نفس الأديب ووجدانه العميق.

فالصورة القديمة قد انبعثت من مسألة اللفظ والمعنى في البلاغة والنقد، تلك المسألة التي طال الكلام والخلاف حولها حيث جعل القدامى الجانب اللفظي من الكلام هو صورته، فالصورة هي ما يقابل المعنى وإليها ترجع المزية في صناعة الشعر، والشاعر- صانع الشعر- تظهر موهبته، ويبرز إبداعه من خلال تصرفه في ألفاظ الكلام وتراكيبه، ابتداء من اختيارها، وانتهاء بنظمها، وصياغتها وقد ذكر العتابي (ت: ٢٢٠هـ) لفظ الصورة عندما تحدث عن حسن تأليف الكلام فقال: "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما نراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرًا، أو أخرت منها مقدماً، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقلة وتغيرت الحلية"^(١).

(١) النقد الأدبي الحديث: ٣٩٢.

(٢) المصدر السابق: ٣٩٦، ٣٩٥.

(١) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري: ١٧٩.

وقد ذكر الدكتور صالح بن عبد الله الخضير تعريفاً عاماً للصورة الفنية قد استخلصه من التعريفات المختلفة التي كتبت عن الصورة فيقول هي : " تركيب جميل ذو وحدة فنية ، منبعه الخيال ، ينبثق من أعماق النفس ليعبر عن تجربة الأديب ، مصحوباً بعاطفة قوية ، ومشتماً على مجموعة من الصور الجزئية النامية التي تتماسك وتتلاحم تلاحماً عضوياً فيما بينها ، وتؤدي إلى غاية واحدة ، وشعور نفسي متكامل ، وتأخذ هذه الصور الجزئية أنماطاً مختلفة ، فقد تأتي على هيئة صور مجازية ، أو رمزية ، أو حسية ، أو غير ذلك ، بحيث ، تكون في النهاية صورة كلية تنعكس من خلالها انفعالات الأديب وأحاسيسه " (٢) .

فمفهوم الصورة الفنية في العصر الحديث قد تحرر من قيود الماضي التي تقتصر على فنون البلاغة ، وأصبح يتجاوز ذلك ليشمل الصورة الرمزية والذهنية والأسطورية وغيرها (٣) .

أذن فإن من خلاصة الآراء قديماً وحديثاً وجدنا أنها تقول بأهمية اعتماد الصورة الفنية معياراً سليماً للنقد الأدبي ، وإذا كان لا بد من الإشارة إلى الجهود التي درست الصورة فإن الذي وجدناه كان مزيجاً من الاجتهادات المتأثرة بثقافة الدارس ورؤيته لطبيعة الشعر ، ووظيفته فضلاً عن موقفه من التراث والمعاصرة ، ولم يجد التعريف الجامع المانع للصورة الفنية في سائر المصادر التي عرضنا لها ، والذي وجدناه عند معظم المحدثين هو الحرية في اقتراح أنماط للصورة الفنية مستقاة من وظائفها ، أو صفاتها نحو الصورة العريضة والطويلة ، والجزئية والكلية ،

(٢) الصورة الفنية في الشعر الإسلامي عند المرأة العربية ، صالح بن عبد الله الخضير : ١٧ .

(٣) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، د.علي البطل : ١٥ .

فكانت الثمرة عشرات الأنماط التي تفتقر في أغلبها إلى دقة النظرة وشمولية المصطلح ، وقد تهيأ لنا بعد البحث في دلالة التصوير الفني وثمرته (الصورة) أن التصوير الفني الشعري يسعى إلى تقديم نسخة جزئية أو كلية للواقع الحسي أو الشعوري ، كما تهيأ للشاعر وبأسلوب أدبي مؤثر ، أما الصورة الفنية أو الأدبية أو الشعرية فهي تشكيل جمالي تستحضر فيه لغة الإبداع الهيئة الحسية أو الشعورية للأجسام أو المعاني بصياغة جديدة تملئها قدرة الشاعر وتجربته وفق تعادلية فنية بين طرفين هما المجاز والحقيقة دون أن يستبد طرف

بآخر وتظل أنماطها متعددة تبعد النظر النقدي داخل حدود الحس والشعور .

*

*

*

وللصورة الفنية وسائل تخرجها وتبرزها كأن يعمد الشاعر إلى التشبيه الذي ورد في الشعر القديم بكثرة ، أو يعتمد على الاستعارة التي هي ضرب من التشبيه ، أو يستعمل المجاز المرسل الذي يستخدم اللفظة في غير معناها اللغوي لعلاقة من العلاقات غير المشابهة ، أو يسلك طريقة الكناية ويتعد عن التصريح ، وقد عني القدماء والمحدثون بهذه الوسائل ، واهتم النقاد من الصور بأشكالها البلاغية ، التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ، وبحثوها على أنها وسائل شعرية^(١) .

ولم تكن هذه الوسائل البيانية مقصورة على النقد القديم ، فهي لا تزال أيضاً من أهم

وسائل رسم الصورة الفنية في النقد الحديث^(١) .

(١) الصورة الفنية في النقد الشعري ، عبد القادر الرباعي : ٤٢ .

(١) حركة النقد الحديث والمعاصر ، إبراهيم الحايوي : ٣٦ .

ويقول قدامة بن جعفر في التشبيه أنه : " أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرق ، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذف أليق " (٢) .

فالتشبيه هو مشابهة الشيء بما يماثله مشابهة جزئية حتى لا يكون نسخة طبق الأصل عن الشيء نفسه يقول ابن رشيق القيرواني : " التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه " (٣) .

ويقول أبو هلال العسكري في التشبيه هو : "الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب منابه أو لم ينب ... وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه " (٤)

ويعرف الخطيب القزويني التشبيه قائلاً : " التشبيه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في المعنى " (٥)

وقد عني أبو الفرج البغاء بالتشبيه في شعره وأكثر منه ، فشاعرنا عاش في ظلال الدولة العباسية وفي كنف أمرائها ووزرائها الذين عاشوا في دعة ورغد من العيش في مساكنهم

(١) نقد النثر ، قدامة بن جعفر : ٥٨ .

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : ١/٤٦٨ .

(٣) كتاب الصناعين ، أبو هلال العسكري : ٢٦١ .

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني : ١٧-١٦/٤ .

وملابسهم ومنتزهاتهم ، فكان للبيئة التي عاش فيها شاعرنا أثر في شعره وفي استخدامه للألوان
البيانية ، فهذه البيئة الجميلة كان لها الأثر في تدفق الخيال عند شاعرنا وتربية ذوقه بحيث لا
نجدّه يغرق في الخيال حتى يشبه الأوهام ، ولا يخرج بصوره عن حدود المنطق، وكانت البيئة
أيضاً مجالاً واسعاً لإيداع التشبيهات فيما يرى من المظاهر المثيرة ، والذي يدقق النظر في شعره
يلاحظ الحسية الواضحة في تشبيهاته ، حيث يأتي المشبه والمشبه به ووجه الشبه محسوساً ، أي
مأخوذ من المدركات الحسية سواء السمعي أو البصري أو غيرها ، وهذا يدل على أثر البيئة
الواضح في شعر أبي الفرج البغاء .

ومن التشبيهات التي يغلب عليها الطابع الحسي قوله في وصف الخمر : (١)

ومُدَامٍ كَأَنَّهَا فِي حِشَا الدِّ ن صَبَاحٌ مَقَارِنُ بِمَسَاءِ

فلقد أتى الشاعر بصورة بيانية رائعة أبدع فيها عندما شبه الخمر بالصباح والمساء فهو
يصف الخمر التي بداخل الكؤوس بأنها بيضاء مثل الصباح وقد خالطها شيء من السمرة مثل
المساء ، وتلك من التشبيهات المحسوسة فالخمر شيء حسي ، وكل من الصباح والمساء أشياء
حسية أيضاً لأنها تدرك بالبصر والبصر شيء حسي ، وهذا تشبيه أبدع فيه الشاعر حيث أتى
بصورة بيانية لافتة استمدتها من وحي الطبيعة ، حيث جمع بين وصف لون الخمر والطبيعة
المتثلة بـ (الصباح والمساء) والرابط المشترك بينهما هو اللون .

(١) الديوان : ٣٦ .

فمن الطبيعي أن يتأثر الشاعر بمظاهر الطبيعة الجميلة التي عاشها ويرسم صوراً رائعة

لمشاهدها الفاتنة فهاهو يقول : (١)

وقوراء كالفلك المستدير تروقُ العيون بالآلائها

لقد شبه البئر في استدارتها بالفلك في السماء فكل منهما حباها الله بالحسن الخلاب

ونلاحظ هنا جمال التشبيه حيث أبرز صورة البركة في جمالها وبهائها واستدارتها بالفلك في

السماء الذي يشع ضوءاً وبهاءً .

ولم يقتصر البغاء في تشبيهاته المحسوسة على الطبيعة الساكنة كما سبق ، وإنما امتد

بتشبيهاته إلى تصوير الطبيعة المتحركة ومنها قوله في وصف الخيل : (٢)

وكلُّ بعيدٍ قَرَّبَ الحَيْنَ نحوه سلاهْبُك الجُرْدُ الجيادُ قريبُ
تباشِرُ أقطارَ البلادِ كأنها رياحُ لها في الخافقين هبوبُ
تماشي بفتيانٍ كأنَّ جسومهم لخصفها فوق السروج قلوبُ

فهو يصف الخيل بالسرعة الفائقة لدرجة أنها تساعد راكبها على إدراك العدو البعيد المنال

ليصبح هلاكه قريباً ، فسرعتها بالانتقال من قطر لآخر تشبه سرعة حركة الرياح في جنبات

الكون الفسيح بين السماء والأرض ، ثم يشبه جسوم الفتيان التي تركب على سروج الخيل

(١) الديوان: ٤٠ .

(٢) المصدر السابق: ٤٢ .

بالقلوب ، لقد حاول الشاعر من خلال أبياته السابقة أن يأتي بصورة بيانية تجسد فكرته التي أراد إبرازها ، وهي أن خفة الفرسان على السروج والخيل تسرع تشبه خفة القلوب وهذا تصوير بديع .

ومن التشبيهات المحسوسة أيضاً التي يرسم لنا فيها صورة فنية رائعة قوله في وصف الجيش : (١)

في جَحْفَلٍ كَالسَّيْلِ أَوْ كَاللَّيْلِ أَوْ
كَالْقَطْرِ صَافِحٍ مَوْجَ بَحْرِ مُزِيدٍ

حيث نرى أن الشاعر اقتصر في تشبيهاته على المظاهر الحسية حيث شبه الجيش بتشبيهات مختلفة في نفس البيت حيث شبهه بالسيل مرة وبالليل مرة أخرى وشبهه بالمطر الذي تلاقى مع أمواج بحر متلاطم مرة ثالثة فقد أتى بأكثر من صورة ودمجها في صورة واحدة تدل على مدى الالتحام والكثرة .

فكما نرى في الأمثلة السابقة أن الشاعر اقتصر في تشبيهاته على المحسوسات .

أما تشبيه الحسي بالمعنوي فقليل عنده ومثال ذلك عندما كتب البيغاء بعض الأبيات التي يرد فيها على كتاب تلقاه من أبي محمد يحيى بن فهد الأزدي قائلاً : (٢)

وَجَرَّبْتُ مَذْغِبَتَ عَنِّي الْكِرَامَ
كَانُوا الشُّكُوكَ وَكُنْتُ الْيَقِينَا

(١) الديوان : ٧٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٥٦ .

أتى الشاعر بصورتين مختلفتين ليحسد فيهما طبائع الناس في ذلك العصر عندما قال (فكانوا الشكوك) حيث شبه الناس الذين جرحهم بالشكوك ، فواو الجماعة يعود على الناس الذين جرحهم ، وكذلك قوله (وكنت اليقينا) حيث شبه ممدوحه أبا يحيى بن فهد الأزدي بأنه اليقين ، والشكوك واليقين أشياء معنوية تدرك بالعقل. وهذا النوع من التشبيه يختلف عن سابقه .

اعتمد البيغاء في معظم أشعاره على الصور البيانية لإعطاء صورة واضحة عن كل فكرة يريد إبرازها ومن ذلك قوله في وصف الخمر : (١)

فكأنَّها في صفوها خُلِّقي وكأنَّها في عتقها كرمي

فلقد شبه الشاعر الخمر في صفائها وهي شيء محسوس بخلقه والخلق شيء معنوي لا يدرك بالحواس ، وكذلك قوله (كأنها في عتقها كرمي) فشبه أيضاً بتعيق الخمر بكرمه ، ونلاحظ في هذين التشبيهين المبالغة حيث وصف الشاعر نفسه وخلقته بصفاء الخمر ، ووصف كرمه بتعيق الخمر كدليل على تأصيل الكرم في نفسه ، فهذه اللوحة الجزئية في وصف الخمر اعتمد عليها الشاعر لرسم لوحة أوسع يعبر من خلالها عن ذاتيته المتمثلة بصفاء خلقه وكرمه ، وكان اختياره لتلك الألفاظ من أجل أن يأتي بصورة جميلة يحاول من خلالها إرضاء ذاته .

كما أن مدحه صوراً مختلفة وإن كانت لا تخرج في معناها عن الموضوعات التقليدية المتعارف عليها ، ونرى ذلك متمثلاً في مدحه لسيف الدولة حيث يقول : (١)

(١) الديوان: ١٥٢ .

نَدَاكَ إِذَا ضَنَّ الغَمَامُ غَمَامُ وَعَزَمُكَ إِنْ قُلَّ الحُسَامُ حَسَامُ
فهذا يَنْبُلُ الرزقَ وهو مُنَمَّعٌ وذاك يَرُدُّ الجيشَ وهو لُهَامُ
ومن طلب الأعداءَ بالمال والظُّبَا وبالسعد لم يبعد عليه مَرَامُ

فهو كريم وكرمه متدفق لا ينقطع وعطاءه مستمر لا يتغير ، حتى إذا انقطع الغمام الذي هو سبب في نزول المطر ، وعزمه قوي لا يضعف ولا يقل حتى ولو ضعف الحسام عن مواجهة الأعداء ، فهو حسام بتار فكرمه غزير ، لأنه يعطي المال والرزق في وقت امتناعه ، وعزمه وسيفه يرد الجيش وإن كان كثيراً ، فمن طلب جهاد الأعداء بالمال والسيف والسعد والعزة نال مراده وحقق مجده .

فالشاعر يشبه كرم سيف الدولة وعطاءه بالسحاب الذي ينشر الخير على الأرض ، فشبه الشيء المعنوي (كرمه - عزمه) بالشيء الحسي (الحسام - الغمام) وهذا النوع من التشبيه نادر وقليل في ديوان أبي الفرج البغداد .

والملاحظ في التشبيه السابق أنه تشبيه بليغ حيث حذف أداة التشبيه ، أو كما يسميه بعض البلاغيين تشبيه مؤكد ، وهذا التأكيد حاصل من ادعاء أن المشبه عين المشبه به .
والذي يدقق النظر في تشبيهات أبي الفرج البغداد يلاحظ أنه استخدم أداة التشبيه (كأن) بكثرة ، لأن استخدام كأن بكثرة يشعر بزيادة التأكيد ، فهي : "حرف معناه التشبيه

(١) الديوان: ١٤٣ .

وهو مركب من (كاف التشبيه) و(إن) ، فأصل قولك كأن زيدا الأسد : إن زيدا كالأسد ،
فالكاف هنا تشبيه صريح ، وهي في موضوع الخبر ثم إنهم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذي عقدوا
عليه الجملة فأزالوا الكاف من وسط الجملة وقدموها إلى أولها لإفراط عنايتهم بالتشبيه " (١) .
وعلى ذلك فإن الشعراء يعمدون إلى التشبيه بـ (كأن) عندما يشعرون بالحاجة إلى
زيادة التأكيد .

فمظاهر الجمال في تلك الطبيعة الساحرة انعكس على تشبيهات أبي الفرج البيهقي
حيث أتى بمعان جديدة ومبتكرة ونلاحظ ذلك في قوله عندما مدح أبي محمد جعفر بن محمد
بن ورقاء (٢) فتراه يقول : (٣)

وسجاياء كأنها الروضُ إلا أنها للعدوِّ موتٌ زؤامٌ

فلقد شبه الأخلاق والطبائع بالحدائق الجميلة الغناء، لكنها للأعداء الهلاك المحقق .
وهذا التشبيه من روائع تشبيهات أبي الفرج حيث شبه الشاعر طبائع ممدوحه بأنها الحدائق
الغناء التي ترتاح لها النفوس ، وتهفو لها القلوب ، ولكنها العكس تماماً ساعة الجد. وهذا النوع
من التشبيه يدخل في مجال التشبيه التمثيلي .

*

*

*

(١) شرح المفصل ، ابن يعيش النحوي : ٨١٠٨٠ .
(٢) ابن الورقاء: هو جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني ، سبقت ترجمته .
(٣) الديوان : ١٤٥ .

والاستعارة لها مكانة مرموقة في الأدب حيث تحقق الإيجاز والتشخيص والتجسيم والتجريد ، ومن هنا أصبحت أهم وسيلة لرسم الصورة البيانية عند الشعراء .

يعرف عبد القاهر الجرجاني الاستعارة في كتابه أسرار البلاغة بقوله: " الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية " (١) فالشاعر يستخدم طاقاته اللغوية وإمكاناته المعنوية لتنظيم الألفاظ والعبارة من موضع استعمالها الأصلي في اللغة إلى موضع آخر .

كما يوضح أبو هلال العسكري مفهومه للاستعارة في كتابه الصناعات بقوله: "هي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض " (٢) .

والاستعارة في اللغة تأتي بمعنى الرفع والتحويل من مكان إلى آخر ، يقال استعار فلان سهماً من كنانته : أي رفعه وحوّله من مكانه (٣) .

ويستعمل العرب الاستعارة في كلامهم إذا أرادوا تسمية الشيء بغيره خاصة إذا كانت هناك مشاركة ومشكلة بينهما ، ولقد ذكر الجاحظ ذلك عندما قال : " الاستعارة هي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه " (٤) .

(١) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني: ٢٧ .

(٢) كتاب الصناعات: ٢٩٥ ،

(٣) علم البيان ، عبد العزيز عتيق: ١٦٧ .

(٤) البيان والتبيين ، الجاحظ: ١٥٣/١ .

ويشير ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده إلى الاستعارة ويعدها ضرب من المجاز فيقول : " الاستعارة أفضل المجاز عندهم ، وأول أبواب البديع ، وليس في حلى الشعر أعجب منها ، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها ، والناس فيها مختلفون " (١) .

ولقد استخدم أبو الفرج البيهقي الاستعارة كغيره من الشعراء بقدر كبير ، وعنايته بالاستعارة تمثلت بشكل واضح وجلي في شعره ، حيث اعتمد عليها في تجسيد أفكاره التي يرصد بها أحوال المجتمع والطبيعة والنفس الإنسانية ومكوناتها ، وجاءت الاستعارة المكنية في مقدمة الاستعارات عنده ، ولا غرابة في ذلك "فالاستعارة المكنية أبلغ وأكثر تأثيراً في النفس، وأجمل تصويراً ، وذلك لأن العمل الإبداعي فيها أدق منه في الاستعارة التصريحية " (٢) .

وإن كثرة استعمال أبو الفرج للاستعارة المكنية يدل على قدرته على التخيل بل على خصوبة الخيال عنده .

فمن الاستعارات في مدحه هذه الصورة التي يرسم فيها بطولة سيف الدولة المقاتل المندفع بماله ونفسه في الحرب من أجل دفع الأعداء عن الدين والبلاد ، فسيف الدولة من الأبطال الذين باعوا ما يفنى وهو المال ، بما يبقى عبر العصور وهو العز والمنعة بافتدائه الأسرى من يد

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ٤٣٥/١ .

(٢) البلاغة فنونها وأفعالها ، فضل حسن عباس: ١٧٦/٢ .

الأعداء الروم بأمواله ، فهو في الأحداث الجسام والظلمة الحالكة نور يشرق في أرض المعركة،

فقد رسم الشاعر بألفاظه صورة جميلة تتلج النفس عن صفات ممدوحه فهو يقول: (١)

باع الذي يَفنى بما أبقى له ذِكْراً إذا دَجَّتِ الخُطوبُ أضاءً

اشتمل البيت على صورتين بيانيتين تحملان طابع التضاد اللفظي إلا أنهما يخدمان معنى

واحداً مقصوداً فالأولى في قوله (إذا دجت الخطوب) حيث شبه الخطوب بالليل ودل

على ذلك كلمة (دجت) وهناك أيضاً استعارة تصريحية في كلمة (أضاء) حيث شبه سيف

الدولة بالصباح الذي يشع ضوءه فيملئ الكون بهاءً .

لم يقتصر البغاء في مدحه على سيف الدولة الحمداي ، فهذا هو يمدح عدة الدولة أبي

تغلب بن ناصر الدولة بصورة تشبيهية حيث يقول : (٢)

دعوته فأجابني مكارمه ولو دعوتُ سوى نُعماه لم تُجِبِ

فقد رسم الشاعر صورة لكرم الممدوح يحاول بها إثبات الصفات الحميدة والمكانة العالية

لرجل من رجالات الدولة الحمدانية عندما استغاث به ، فقد شبه الشاعر مكارم عدة الدولة

بالإنسان الذي يجيب عندما تدعوه في الوقت الذي يمتنع غيره عن الإجابة ، فهو يرسم صورة

جميلة لكرمه من خلال الاستعارة السابقة التي أوحى بمدى عطاءه لكل من يطلب منه مكر

(١) الديوان : ٣٤

(٢) المصدر السابق : ٤٧ .

ولا تزال صورة سيف الدولة البطل تحتل المقام العالي في شعر أبي الفرج فقد ذكر محمد بن عبد الملك الهمداني أنه في سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة ورد الخبر بغزاة سيف الدولة لنواحي ملطية وغنيمته فقال الشاعر هذه الأبيات : (١)

ورد الدُّمستُقُّ دونَ مَنْظره خَبْرٌ تضيقُ بشرحه الكُنْبُ
ناجته عنك البيضُ من بُعد نُصْحاً وانقذ جيشه الرُّعْبُ
ولِّي لو اجببتَ حينَ نُجَا إدراكه لم يَنْجِه الهَرْبُ
يا كاليَّ الإسلامَ يحْرُسُه من أن يخالِجَ حَقَّه الرِّيبُ
إن كُنْتَ ترضى أن يطيعك ما سَجَدُوا له سجدتْ لك الصِّلْبُ

لقد رسم الشاعر صورة لإحدى المعارك التي خاضها سيف الدولة ضد الروم وقائدهم الدمستق فهو يصور منظر الدمستق الذي دب في قلبه الرعب من رؤية البيض من بُعد فانطلق يريد النجاة بنفسه من ذلك الهلاك المحقق ، واستطاع بالهرب أن ينجو من ذلك ولو أراد سيف الدولة غير ذلك لاستطاع أن يصل إليه ويدركه ، فقد جاءت الاستعارة في البيت الثاني لتشخص لنا صورة السيف حيث شبهه الشاعر بالإنسان الذي يناجى عدوه من بعيد ، فهذه لوحة فنية مرسومة بعناية لصورة السيف في المعركة حاول الشاعر من خلالها أن يجسد السيف ويرسمه ليكمل صورة البطل الأسطوري الذي لا ينافس .

فشعر الحرب شعر أبدع فيه البغاء حيث يرسم صورة واضحة لمعداته من السيوف والخيول والرماح وغيرها فيقول : (٢)

(١) الديوان : ٤١ .

(٢) المصدر السابق : ٤٨ .

ومَوْشِيَّةٍ بِالْبَيْضِ وَالرُّغْفِ وَ الْقَنَا
بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْجَنَاحِينَ فِي السُّرَى
مِنْ السَّالِبَاتِ الشَّمْسَ ثَوْبَ ضِيَائِهَا
مُحَبَّرَةَ الْأَعْطَافِ بِالضُّمْرِ الثُّبِّ
قَرِيبَةٌ مَا بَيْنَ الْكَمِيمِينَ بِالضَّرْبِ
بِثَوْبٍ تَوَلَّى نَسْجَهُ عَثِيرُ الثُّرْبِ

فالشاعر يصف ميدان الحرب مصوراً فيه الجنود التي تحمل السيوف والدروع اللينة الواسعة ، والقنا فوق ظهور الخيل الضوامر التي تندفع بهم إلى أرض المعركة وتتحرك يمينا ويساراً كأنها طائر يرفرف بجناحيه كما أنه يصور الخيل التي تحمل الجنود الشجعان المدججون بالأسلحة ، فهؤلاء الجنود يسلبون الشمس ثوب ضيائها عن طريق الغبار المثار تحت أقدام الخيل ، فهو يشبه الشمس بالفتاة التي تستتر بثوبها على سبيل الاستعارة المكنية .

أما عن وصف الخمر فهو يصور لنا ذلك عندما وصف دير عمر الزعفران فقال: (١)

صَفَحْتُ لِهَذَا الدَّهْرِ عَنْ سَيِّئَاتِهِ
وَصَبَحْتُ عُمرَ الزَّعْفَرَانِ بِضَجَّةٍ
وَعَدَدْتُ يَوْمَ الدَّيْرِ مِنْ حَسَنَاتِهِ
أَعَاشَتْ سُرُورَ الْقَلْبِ بَعْدَ مَمَاتِهِ
عَمَّرْتُ مَحَلَّ اللّهُو بَعْدَ دُثُورِهِ
وَأَلْفْتُ شَمْلَ الْأَنْسِ بَعْدَ شَتَاتِهِ

فهذه الصور التي رسمها الشاعر لدير عمر الزعفران تعبر عن ذاتية الشاعر فهو قد تجاوز عن سيئات دهره وما ناله من مصائب فيه ، حيث شبه الدهر بإنسان ارتكب سيئات ومعاصي عديدة فصنح عنه واعتبر زمن هذا الدير إحدى حسنات هذا الدهر الذي أساء إليه فكان يذهب إلى الدير ينعم بما فيه من ألوان اللهو والجمال الذي بعث السرور إلى قلبه فأحياه

(١) الديوان: ٥٧ .

بعد مماته ، أما بعد اندثاره توجه إلى اللهو والمجون، وتعود على مجموعة يؤنسونه بعدما تشتت أمر الدير* .

وقال كذلك على سبيل الاستعارة في وصف الشراب : (١)

بالقفص للقفص منزل كَثَّبُ ما للتصابي في غيره أربُ
جادتْ به ديمَةٌ السرورِ حَلَّ اللهو فيه وعرَّسَ (٢) الطربُ

الشاعر يهتم بالخمير اهتماماً كبيراً ً لأنها أقوى وسيلة للترفيه واللهو بذلك العصر ، وقد رسم صورة واضحة لأماكن تواجدها عندما قال (بالقفص للقفص منزل كَثَّبُ) فالقفص قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا من مواطن اللهو ومعاهد التنزه ومجالس التفرج ينسب إليها الخمر الجيد وفيها حانات كثيرة (٣) وقد ذُكرت قصائد متعددة في هذا المضمير .

والاستعارة المكنية في قوله (حل اللهو فيه وعرس الطرب) حيث شبه اللهو بالإنسان الذي يحل في المكان، كما أنه شبه الطرب بالقوم المسافرين الذين ينزلون في آخر الليل للاستراحة ثم يرتحلون مرة أخرى ، فالصورة توحي إلى الأثر الذي يتركه هذا المكان على نفوسهم ، إذ يبعث السرور والفرح في قلوبهم ، وقد تعكس لنا هذه الصورة العامة التي رسمها الشاعر صورة جزئية لشخصيته .

* ويحرم على المسلم زيارة الدير وشرب المسكر الذي يخامر العقل فيها لأنه خبيث مستقذر من عمل الشيطان ، ولما نزلت الخمر شرها قوم وامتنع آخرون إلى أن حرمتها آية المائدة / ٩٠ ، ينظر تفسير الجلالين : ١٠٠٣٠ .

(١) الديوان : ٤٤ .

(٢) التعريس : نزول القوم في السفر من آخر الليل للاستراحة ثم يرتحلون ، ينظر القاموس المحيط : (مادة : عرس) .

(٣) الديوان : ٤٤ .

فالباقلائي (ت: ٤٠٣هـ) يرى أن الكلام الذي يتلفظ به المتكلم هو صورة لما في النفس من أحاسيس وعواطف وأفكار فالمتكلم " يحتاج إلى لطف في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير " (١) .

* * *

أما المجاز العقلي هو لون بلاغي استخدمه البيغاء في كثير من أبياته فهو " يدل على سعة اللغة العربية ، وقدرتها على تجاوز الحقيقة إلى الخيال " (٢) .

ويسمى هذا النوع من المجاز عقلياً " لاستناده إلى العقل دون الوضع ، لأن إسناد الكلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة " (٣) .

والمجاز العقلي شأنه شأن المجاز بعامة ، يحي التعبير ، ويمنحه طاقة مؤثرة وقد استخدمه أبو الفرج في قوله : (٤)

أن تعلم الأيام موضع عبده من عزّه ومكانه من رائه
بشواهد الخلع التي يغدو بها متطاولاً شرفاً على نظرائه

فهو يقول أن الأيام تعرف مواضع كرمه ، ودلائل عزته ومكانته واضحة من خلال الخلع والعطايا التي يغدقها على من حوله متفوقاً بها على نظرائه ، ففي قوله (تعلم الأيام) مجاز

(١) إعجاز القرآن ، أبو بكر الباقلائي : ١٣٨ .

(٢) البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، بكري شيخ أمين : ٨١/٢ .

(٣) الإيضاح ، الخطيب القزويني : ٩٩/١ .

(٤) الديوان : ٤٠ .

عقلي حيث اسند الشاعر العلم للأيام مع أن الأيام شيء معنوي ، فالعلم من سمات البشر
وهنا استطاع الشاعر أن يبرز الأيام في صورة المحسوس كما أنه أنزلها منزلة العاقل المدرك الذي
يعلم .

وكذلك من المجازات العقلية التي استمدها الشاعر من البيئة التي عاش فيها قوله : (١)

إِنْ كُنْتَ تَرْضَى أَنْ يَطِيعَكَ مَا سَجَدُوا لَهُ سَجَدْتُ لَكَ الصَّلْبُ

حيث أسند السجود وهو فعل للإنسان العاقل إلى شيء جماد وهو (الصلب) وهنا جعل
من الجماد شيئاً عاقلاً يسجد. "وإن أبسط دلالة للكلمة الصورة وأكثرها حضوراً إلى الذهن هو
دلالتها على التجسيم أو على الأشياء القابلة للرؤية البصرية ، هذا برغم تعدد وجهات النظر
حول هذا المفهوم ، لكنه يلتقي مع المفاهيم البلاغية لأساليب البيان المعروفة " (٢) .

وأبو الفرج البيهقي كانت له أبيات في رثاء أبي المكارم وهو ابن سيف الدولة الذي توفي

سنة ٣٥٤ هـ ، فيقول : (٣)

سرورنا بك فوق الهمِّ بالتُّوبِ فما يغالبنا حزن على طربِ
إذا تجاوزت الأقدارُ عنك فهل من واجب الشكرِ أن يُرتاع من سببِ
حتام تخدعنا الدنيا بزخرفها ولا تحصّلنا منها على أربِ
نُسّرُ منها بما تُجنى عواقبه همّاً ونُهرَبُ و الآجالُ في الطلبِ

(١) الديوان : ٤١ .

(٢) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، أصوله وقضاياها ، د. سعد أبو الرضا : ٧٨ .

(٣) الديوان : ٤٩ .

فهو هنا يصف سروره بأبي المكارم الذي بلغ درجة تفوق درجة الحزن على ما أصابه من مصائب ، فلو أن الأقدار تجاوزت عنه وتركته ، فعلينا أن نقدم واجب الشكر ولا يمنعهم من ذلك مانع ، فاعتمد على المجاز العقلي لإعطاء فكرة واضحة عن الدنيا وزخرفها ، واختار لذلك ألفاظ قوية وموحية ففي قوله (تخدعنا الدنيا) نسب الخداع للدنيا وهي لا تخدع وليس لها عقل ولكن الشاعر نسب لها العقل والخداع وهذه الصورة تجسد لنا ما يدور بخلد الشاعر من أفكار حول الدنيا وملذاتها .

ومن المجاز العقلي أيضاً قوله : (١)

أفادت بك الأيام فزط تجارب كأتك في فرق الزمان مشيب

ففي قوله (أفادت بك الأيام) مجاز عقلي علاقته الزمانية فلقد أسند الشاعر الإفادة للأيام وجعل منها شيئاً يعقل ، وفي قوله (فرق الزمان مشيب) أيضاً مجاز عقلي علاقته الزمانية حيث أسند الشيب للزمان .

فُتِنَ الببغاء بجمال البيئة التي عاش فيها فتغنى بها شعراً ، ورسم لها لوحات فنية رائعة تصف

آيات الجمال والإبداع فيها فهي هو يقول في يقول في وصف تمثال سبع : (٢)

وضيَعِمَ في دَابِلِ يَلُوخُ
مساوِرِ تَسِيلُ منه الرُوخُ
جِسْمٌ ولكن ليس فيه رُوخُ

فهو يصور لنا ذلك الجمال الذي تراءى لنظره بصورة حيه وكأن هذا التمثال واثب

(١) الديوان : ٤٢ .

(٢) المصدر السابق : ٦٢ .

يقفز كأن به روح ، ولكن هو في النهاية جسم سبع ولكن بلا روح ، والمجاز العقلي في قوله
(تسيل منه الروح) جعلت الصورة توحى بأن الروح شيء حسي يدرك بالحواس عندما نسب
لها السيالان ، فهو يريد أن يبيث الحياة والحركة في كل ما يراه من مناظر جميلة .

ويركز البغاء في غزله على الجمال الظاهر للعيان في وجه محبوبته فيقول: (١)

بنفسي ما يشكوهُ من طرفه ونرَجِسُهُ مما دَها حُسْنُهُ وَرُدُّ
أراقتُ دمي ظُلماً محاسنُ وجهه فأضحى و في عينيه آثاؤه تبدو
غدت عينُهُ كالخدِّ حتى كأنما سقى عينه من ماءٍ تَوْرِيده الخدُّ

فالشاعر هنا يتحدث عن امتزاج كلي واتحاد روحي بينه وبين محبوبته فهو يفديها بنفسه
من الآلام التي تشتكي منها ، لأنها تعاني من الرمذ حتى أصبح ولد عينها الأبيض . الذي كان
يشبه النرجس ورداً . لونه أحمر وهو لون الرمذ ، ويصور الشاعر أن محاسن وجه محبوبته أراقت
دماء وجهه ظلماً من كثرة البكاء ، وأصبح أثر هذه الدماء واضحاً في عينه ، فالمجاز العقلي في
قوله (أراقت دمي ظلماً محاسن وجهه) حيث نسب الشاعر أراقة الدم لمحاسن الوجه ، ثم
يصور لنا لون عينها الرمضاء التي أصبحت كلون الخد احمراراً ، حتى اعتقد أن عينها قد شربت
من ماء توريد خدها احمراراً ، فهذه الصورة توحى إلى مدى الجمال الذي وهبه الله لهذا الوجه
عندما وصف حمرة خدي المحبوبة .

ويقول في صورة جميلة لمنزلة الحبيب عنده : (٢)

(١) الديوان : ٦٩ .

(٢) المصدر السابق : ٧٠ .

لقد عزّ العزاءُ عليّ لما تصدّى لي لتقتلني الصُدودُ
إذا بَعُدَ الحبيبُ فكلُّ شيءٍ من الدنيا ولذاتها بعيدُ

هذه الصورة تشعّرنّا بمدى الألم والحزن الذي يشعر به الشاعر نتيجة لصدود حبيبته عنه وفي قوله (عز العزاء) مجاز عقلي علاقته المصدرية حيث نسب العز للمصدر العزاء ، فهو يعلم أن بعاد الحبيب يؤدي إلى أن يكون كل شيء في الدنيا مكروه ، غير مرغوب فيه ، فهذه الصورة تجسد لنا أحاسيس الشاعر الجياشة وعاطفته القوية تجاه محبوبته .

* * *

أما المجاز المرسل فهو أحد فنون البيان ، وهو يمنح الشاعر قدرة على التعبير الموجز المبين، ويعين على تحقيق المبالغة ، كما أنه يحقق الجمال في التعبير بكونه يفتح المجال أمام المتلقي لتتبع الخيال والاستمتاع به .

وشاعرنا في غزله يختلف عن الآخرين فهو لا يقبل الضيم على نفسه حيث يقول : (١)

لا تحسبي أنّ نفسي كالنفوس إذا حملتها في هواك الضيم تحتمل
وربما بعثَ التذكّارُ نحوكم دمعي ، فتنكرهُ الأجفانُ والمقل
كوني ما شئتِ إن هجرًا وإن صلّةً فليس تنكرُ صَبْرَ البازل (٢) الإبل

(١) الديوان: ١٣٠ .

(٢) البازل: السن تطلع في وقت البرول ، والناب بزل بزولاً طلع بشدة . ينظر القاموس المحيط : (مادة: بزل) .

فهذه الصورة العاتبة يصف فيها عدم قدرته على تحمل الهوى كما أنها ترسم لنا رهافة الحس عنده ، فنفسه الأبية لا تحمل الضيم في هوى المحبوب ، فقد بعث تذكارات الأعبة دموع عينه ، ولكن أجفانه ومقلته لا تستجيب لذرف الدموع ، وهذه العبارات توحى إلى مدى صبره وتجلده ، وفي قوله (تنكره الأجفان والمقل) مجاز مرسل حيث ذكر الأجفان والمقل وأراد العين كلها ، وهذا الجاز علاقته الجزئية ، ثم يقول فأنت أيتها المحبوبة مخيرة بين أمرين أما المجر أو الوصال ، فالإبل لا تنكر صبر البازل على فريسته ، مع أن الإبل أكثر الحيوانات صبراً .

ويقول أبو الفرج في وصف الفرس : (١)

تتخاذلُ الأُلحاضُ في إدراكه ويجارُ فيه الناظرُ المتأملُ
فكأنه في اللطف فهمٌ ثاقبٌ وكأنه في الحُسنِ حظٌ مُقبِلُ

فهو يصف الفرس بعدة صفات ، فالأنظار تتخاذل عن إدراكه ، فإن عرض أمامك تحير نظرك في تأمله من سرعته حتى يتخيل لك أنه يسبح في الهواء ، أو أنه صقر يطير في السماء وهذه الصورة تجسد لنا مدى سرعته في الحركة ، وفي قوله (تتخاذل الأُلحاض) مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث ذكر الأُلحاض وهو يقصد العين كلها فذكر الجزء وأراد الكل ، ويستمر الشاعر في رسم صورة فنية رائعة عن صفات الفرس ، فيقول أنه لطيف وجميل ، وهو أيضاً حسن المنظر مثل الحظ الحسن المريح .

(١) الديوان: ١٢٩.

ولا تزال صورة البطل الشجاع المتمثلة بشخصية سيف الدولة الحمداني تتصدر مدائح

البيغاء فيها هو يقول : (١)

يسعى إلى الموت والقنا قِصْدُ وخيله بالرؤوس تَنْتَعِلُ
كأنه واثقٌ بأنَّ له عُمْراً مُقِيمًا وما له أجلٌ

فالشاعر يرسم صورة لشجاعته وإقدامه فهو يسعى إلى الموت في قتاله للأعداء ، فاندفاعه لهذه الحروب يدل على أنه بطل بلا شك ، كما يرسم صورة لهذه الخيل المغيرة التي تدوس رؤوس أعدائه ، وكأنها تتخذها نعلاً وأحذية ، ففي قوله (وخيله بالرؤوس تنتعل) مجاز مرسل علاقته الجزئية لأنه أراد كامل الجثث التي تدوسها خيله ، وليس الرؤوس فقط ، فهو في تقدمه واثق أنه لن يموت وكان عمره لن ينقضي ، وفي ذلك مبالغة ممقوته لا يحمده الشاعر عليها ، فلم يوفق في اختيار المعنى المناسب ، لأن الخلود لا يكون إلا لله وحده .

ومن الأمثلة على المجاز المرسل أيضاً قوله : (٢)

هي الدنيا تقولُ بملء فيها حذارٍ حذارٍ من بطشي وفتكي

فالشاعر يرسم لنا لوحة فنية يصور من خلالها الدنيا بصورة ناطقة ، متمثلة بالمجاز المرسل

في قوله (تقول بملء فيها) وهذا المجاز علاقته الكلية حيث ذكر الكل وهو الفم

(١) الديوان : ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٤ .

وأراد الجزء وهو اللسان فالقول لا يكون بكل الفم ولكن القول يكون باللسان فقط .

ومن الغزل الذي يصف فيه البغاء شوقه لمحبوته قوله : (١)

يا من تشابه منه الخُلُقُ و الخُلُقُ فما تسافرُ إلا نحوهُ الحدقُ

فالمحبوب قد تشابهة ملامح خلقتة ، وسحر جماله ، بحسن خُلُقهِ فأصبحت الحدق دائماً تنظر إليه في شوق ولهفة ، ففي قوله (فما تسافرُ إلا نحوهُ الحدق) مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث ذكر الجزء وهو الحدق وأراد الكل وهو العين ، فهو يرسم صورة متكاملة لمحبوته التي تمكن حبها في قلبه لجمالها مظهراً وجوهراً .

ومن أمثلة المجاز المرسل أيضاً قوله : (٢)

أمْرٌ بدار عمار بن نَصْرٍ فامنحها التحيةَ والدموعا
واستحي رباها أن يراني بها حياً وقد أودى صريعاً

فهو يرسم صورة لحزنه وأساه على أبي اليقظان عمار بن نصر فمن شدة حزنه عليه يقول انه كلما مر على دياره يقدم لها التحية ويذرف عليها الدموع حزناً على من كانوا يسكنون فيها، فالشاعر في قوله (فامنحها التحية والدموعا) لم يمنح التحية لمن يسكنها ولكن منح

(١) الديوان : ١١٦ .

(٢) المصدر السابق : ١١٢ .

التحية للدار وأراد من يسكنها وهذا مجاز مرسل علاقته الحالية ، ثم يرسم صورة جديدة ومبتكرة لشدة حزنه حتى أنه يستحي من رُبي تلك الديار أن تراه حياً وأصحابها قد أصبحوا صرعى .

* * *

أما بالنسبة للكناية إذا أمعنا النظر في كتاب مجاز القرآن وجدنا أبي عبيده محمد بن المثنى قد تعرض لها وهي عنده كل ما يفهم من سياق الكلام دون أن يذكر اسمه صريحاً في العبارة وقد مثل لها في كتابه بأمثاله نحو قوله تعالى { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ }^(١)، وعلق عليها بأن الله تعالى كنى بالضمير عن الشمس^(٢).

وقد وردت الكناية عند الجاحظ بمفهوم عام وهو التعبير عن المعنى بالتلميح لا بالتصريح والإفصاح كلما اقتضى الأمر ذلك^(٣).

والذي يتبع الجاحظ فيما قاله عن الكناية يجده قد استعملها استعمالاً مطلقاً من دون تخصيص أو تفريق ، بحيث أصبحت تشمل جميع الأساليب من الاستعارة والتعريض والمجاز والتشبيه وغيرها^(٤).

والكناية في اللغة كما عرفها أحمد الهاشمي في كتابه جواهر البلاغة كل ما يتكلم به الإنسان ، ويريد غيره ، وهي مصدر كنى ، أو كنوت بكذا ، إذا تركت التصريح به ويضيف

(١) سورة ص: ٣٢

(٢) مجاز القرآن ، أبو عبيده محمد بن المثنى التميمي : ١٨٢/٢-٢٧٨.

(٣) البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ٨٨/١.

(٤) علم البيان : ٢٠٥ .

أن الكناية : هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له ولكنه يجيء إلى معنى هو مرادفه ، فيومئ به إلى معنى الأول ، ويجعله دليلاً عليه .

أما في الاصطلاح : هي لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له ، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته ^(١) .

ومما سبق يتضح أن المقصود بالكناية هي الدلالة على معنى من المعاني بلفظ معين يكون ردف للفظ الأصلي الدال على ذلك المعنى كأن يريد الشاعر وصفاً معيناً لشيء ما ، ولا يذكره بلفظه الخاص به بل يأتي بمعنى تابع أو مرادف لذلك اللفظ .

ويعرفها عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز قائلاً : " هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء إليه ويجعله دليلاً عليه " ^(٢) .

والمطلع في ديوان أبي الفرج الببغاء يلحظ أن أبا الفرج استعان بالكناية في شعره كي يرسم الصورة البيانية ويمنح التعبير جمالاً ويهب المعنى قوة ورسوخاً في الذهن ، وذلك لما فيها من الخفاء اللطيف ، لاسيما " وقد أجمع النقاد على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح " ^(٣) .

ولقد أكثر أبو الفرج الببغاء من استعمال الكنايات وخاصة كناية الموصوف وكناية

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الماشي : ٣٤٥ ، وما بعدها بتصرف .

(٢) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني : ٦٦ .

(٣) المصدر السابق : ٥٥٠ .

الصفة لأن معظم شعره يعتمد على المديح ، والمديح يقوم على ذكر الموصوف والصفات الحميدة التي يتميز بها الممدوح ، ولقد اتسمت كنايات أبو الفرج بالوضوح ، حيث يسهل الانتقال من المعنى الأصلي إلى المعنى الكنائي ، دون حاجة إلى طويل تأمل ، بسبب قرب المعاني وسهولة العبارات .

ومن الكنايات التي استخدمها في شعره قوله في وصف بعض القبائل العربية التي أوقع بهم سيف الدولة ومزقهم شر ممزق لأنهم خرجوا عليه وحاولوا الاعتداء على ملكه فترى الشاعر يقول في حقهم : (١)

متهاجرين على الدنو كماً أنفت رؤوسهم من الأجسام

فهو يرسم صورة حقيقية لبطولة سيف الدولة في الحرب ، فهؤلاء الخارجين عليه استطاع بسيفه أن يفصل رؤوسهم عن أجسامهم حتى لكأنما عافت رؤوسهم أجسادهم ، ففي قوله (أنفت رؤوسهم عن الأجسام) كناية عن الموت الذي حاق بهم وفصل الرأس عن الجسد ، وهي كناية عن الموصوف .

وفي وصفه للخمر يقول : (٢)

وعريقة الأنساب و الشيم مَوْجُودَةٌ وَالخَلْقُ فِي العَدَمِ

(١) الديوان : ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٥٢ .

فالخمرة التي يتعشّقها أبو الفرج قديمة عريقة النسب والشيم ، وهي موجودة قبل خلق

الخلق ففي قوله (عريقة الأنساب) كناية عن الخمر وهي كناية عن الموصوف .

ويقول أبو الفرج الببغاء في أرجوزة يصف بها نفسه: (١)

مَنْ مُنْصِفِي مِنْ مُحْكَمِ الْكُتَّابِ شَمْسُ الْعُلُومِ قَمَرُ الْآدَابِ ؟

وهو هنا يصور معاناة ذاتية مرّت به فيقول : من ينصفه من عقلاء الكتاب وحكمائهم،

الذين هم (شمس العلوم وقمر الآداب) وهذه كناية عن الموصوف .

ومن الكنايات الجمالية التي استخدمها الببغاء قوله عندما كان يعاتب أخاه فنراه يقول :

(٢)

أَخِي وَمَا أَحْلَى دَعَاءِكَ يَا أَخِي هَذَا وَقَدْ جَرَحْتَ مُدَاكَ فُؤَادِي

فالشطر الثاني من البيت كناية عما لاقاه الشاعر من صاحبه من اعتداء وظلم، فالشاعر

هنا لم يقصد أن أخاه طعنه بالسكين في قلبه وإنما ذكر هذا الكلام كناية عما أصاب الشاعر

من حزن وضيق لما لاقاه من أخيه من ظلم واعتداء ، فالبيت السابق يرسم فيه الشاعر صورة

للحزن والأسى الذي سيطر عليه .

(١) الديوان: ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق: ٧٥٠ .

ويكرر الشاعر نفس المعنى فيقول : (١)

استودعُ الله قوماً ما ذكرتهم إلا وضعت يدي ولهاً على كبدي

فالشاعر هنا عندما يتذكر هؤلاء القوم (الأحبة) وما ناله منهم من هجر وقطيعة يضع يده على كبده كناية عن شدة الألم والمعاناة التي تصيبه عند تذكرهم ، وقد استطاع الشاعر أن يرسم صورة جلية لشدة حزنه الذي أثر على نفسه وجسده .

ثم يتحدث الشاعر عن الصفات الحميدة التي لمسها في ممدوحه فيقول : (٢)

ومن علقْتُ بأبي تغلب يداه احتذى البدر من سَعْدِهِ

ففي قوله (احتذى البدر من سعده) كناية عن العلو والسمو الذي يجده الإنسان عندما تتعلق يداه بأبي تغلب وهي كناية عن صفة . فهذه الصورة تكشف النقاب عن خصال وصفات ممدوحه .

وفي نفس القصيدة نرى كناية أخرى في قوله :

فطود السيادة في دسته (٣) وشمس الرياسة في بُرْدِهِ

ففي قوله (فطود السيادة في دسته) فالسيادة واضحة في وسادته التي يجلس عليها فهي تدل على الإجلال والاحترام ، وذلك كناية عن العلو والمنزلة الرفيعة لهذا الممدوح ، كما أن هذا

(١) الديوان : ٧٧ .

(٢) المصدر السابق : ٨٢ .

(٣) الدست : هو الوسادة التي يجلس عليها رئيس الوزراء ، أو المقعد الرئيس الذي يُعطى للضيف الأكثر إجلالا واحتراماً .

المدح لم يكن صفة للممدوح وإنما هي (كناية عن نسبة) أي نسبة السيادة إلى (الذست) الذي يخص الممدوح.

وكذلك قوله (وشمس الرياسة في برده) كناية عن نسبة فقد نسب شمس الرياسة إلى شيء متعلق بالممدوح وهو البردة. فالسيادة والرئاسة مختصتان به حسب رأي الشاعر .

ومن مظاهر الصنعة البيانية الجمالية التي ذكرها أبو الفرج قوله في وصف حراس الممدوح:

(١) ما بأل دارك حين تُدخِلُ جَنَّةً وبياب دارك مُنكَّرٌ ونكيرِ

في الشطر الثاني كنى بمنكر ونكير عن غلظة وفضاظة حراس باب الممدوح بعكس الممدوح الذي يضيي طمأنينة وسعادة على المكان .

لقد وظف الببغاء الكثير من مظاهر التصوير الفني والتي أبرزها التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية لتجسيد أفكاره التي في أغلبها تصور واقع ذلك المجتمع الذي يعيش فيه ، وتحدد معالم تلك الحياة بمختلف جوانبها ، كما استطاع من خلال صورته أن يرسم صورة واضحة لملامح شخصيته الإنسانية وقدراته الفنية .

وكانت البيئة أيضاً مجالاً واسعاً لإيداع التشبيهات والاستعارات والكنايات التي يغلب

عليها الطابع الحسي ، ولم تقتصر صورته على رسم الطبيعة الساكنة ، وإنما امتد بها إلى

تصوير الطبيعة المتحركة أيضاً، ولعل هذا يدل على مدى تدفق الخيال عند شاعرنا كما سبق

القول .

(١) الديوان: ٨٩ .

المبحث الثالث

الموسيقى الشعرية

من المعلوم أن موسيقى الشعر هي أوزانه وقوافيه وإيقاعاته ، التي من خلالها يستطيع الأديب أن يحقق التناغم الصوتي لعباراته ، وأن يبرز الجمال والحسن لألفاظه .

يقول ابن رشيق القيرواني : " الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولها به خصوصية ، والقافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر " (١) .

ويقول جبور عبد النور في كتابه المعجم الأدبي : " وأما الإيقاع فهو فن في إحداث إحساس مستحب ، بالإفادة من جرس الألفاظ ، وتناغم العبارات ، واستعمال الأسجاع وسواها من الوسائل الموسيقية الصائتة " (٢) .

وقد وضع البلاغيون شروطاً لاختيار ألفاظ الشعر ، وطريقة نظمها في الجمل وجعلوا من ذلك تلاؤم حروف اللفظة وأصواتها ، وانسجامها مع أخواتها في الجملة ، ليخرج الكلام خفيفاً على اللسان لذيداً على السمع (٣) .

كما ذكر البلاغيون والنقاد قواعد لاستحسان القوافي ، حتى تكون ملائمة لموقعها غير قلقة في مقرها (٤) ومن ذلك ألا تكون مستدعاة قد تكلف في طلبها (٥) ، وكان هذا الاهتمام بأمر الموسيقى الشعرية يرجع إلى أهميتها في الشعر وكونها عنصراً لا يستغنى عنه ، لأن الشعر يؤثر بعوامل ، من أهمها الإطراب بالصوت ، وتحريك المشاعر بالأنغام ، ولقد تعارف العرب ، منذ القدم على ذلك ، والتزموا بقوالب صوتيه ، لا يستطيع الشاعر أن يجيد عنها إلا شذوذاً ،

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، (١/٢١٨-٢٤٣) .

(٢) المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، (٤٤) .

(٣) سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، (٩٣) وما يليها .

(٤) قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم ، وليد قصاب ، (٢٣١) .

(٥) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، (٢١٠) .

ولما جاء الخليل الفراهيدي^(١) استنبط تلك الضوابط ، ووضع لها القواعد ، وأطلق عليها اسم بحور

الشعر، وكل بحر منها يتكون من مقاطع تسمى (التفاعيل)^(٢).

والتكامل والانتظام في الأوزان الشعرية إنما جاء من تعانق تلحين الغناء وحركات الرقص

التي لازمت شعرنا في نشأته ، مما جعله يستوفي النغم الطويل والقصير ، وموقع النبرات ،

ويتمسك بقرار القافية الثابت حتى تتم للأنغام وحدتها ، وتضع رنائها في كل بيت، وكان كل

دور من أدوار اللحن الموسيقي الذي يتغنى به الشاعر أو ينشده دور قائم بنفسه ينتهي عند كل

لازمة مكررة هي لازمة الروي وهذا رأي الدكتور شوقي ضيف^(٣).

أما الدكتور عز الدين إسماعيل يرجع هذا الأمر إلى طبيعة اللغة العربية ذاتها التي ساعدت

على ذلك ، فالمعول على البناء الموسيقي للكلمة على المقاطع ، أي على الحركات والسكنات

دون الالتفات إلى الصفات الخاصة التي تميز الحركات عن بعضه^(٤)، فهو يبين أهمية الحركات

والسكنات في البناء الموسيقي للكلمة فهي التي تحدث ذلك الأثر الصوتي ، ولا يهتم بتحديد

الصفات الخاصة التي تميز حركات الكلمات بعضها عن البعض الآخر .

والموسيقى في أشعاره تنقسم إلى نوعين أحدهم الموسيقى الداخلية ، والآخر الموسيقى

الخارجية .

(١) من أئمة اللغة وأدب ، أستاذ سيبويه ، وهو مخترع علم العروض ، ولد ومات في البصرة توفي عام ١٧٠ هـ ومن أشهر مؤلفاته كتاب (العين) .

(٢) الصورة الفنية في الشعر العربي / مثال ونقد، إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم: ٢٢٨ .

(٣) انظر فصول في الشعر ونقده د. شوقي ضيف: ٣١- ٣٢ .

(٤) الشعر العربي الحديث المعاصر ، عز الدين إسماعيل: ٥٢ .

أما عن الموسيقى الداخلية فهي الموسيقى الناشئة من حسن اختيار الألفاظ ، وجودة اتساقها داخل الجملة وتلاؤمها مع المعنى ، إذ أن للألفاظ إذا أحسن اختيارها ، جرساً موسيقياً عذباً ، وإيقاعاً مؤثراً .

ولا ريب في أن للموسيقى الداخلية المتمثلة في جرس الإيقاع الداخلي للكلمات أثراً كبيراً في المتلقي ، وقد بين الجاحظ أثر إيقاع ألفاظ القرآن الكريم في نفس المتلقي ، بقوله :

" فأمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه أعجب ، فمن ذلك إن منه ما يقتل ومنه ما يسر النفوس حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل نفسه من حلق ، وذلك مثل هذه الأغاني الطرية ، ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنعو هذه القراءات الشجية ، والقراءات الملحنة وقد بكى (ماسرجويه) من قراءة ابن أبي الجوخ ، ف قيل له بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ، قال إنما أبكاني الشجاء" (١).

وقد أشار الباحثون في مجال الموسيقى وجرس الألفاظ أن هذا النوع من فن البديع - أعني به المحسنات اللفظية - وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ ، فهو ليس في الحقيقة إلا تفنناً في طرق ترديد الأصوات في الكلام ، حتى يكون له نغم موسيقي وحتى يسترعي الآذان بألفاظه، كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه ، فهو مهارة في تنظيم الكلمات ، ومهارة في ترتيبها وتنسيقها ، ومهما اختلفت أصنافه ، وتعددت أنواعه وطرقه فإنها تجتمع جميعاً تحت

أمر واحد وهو العناية بحسن الجرس ، ووقع الألفاظ في الأسماع (٢)

(١) الشعر العربي الحديث المعاصر ، عز الدين إسماعيل : ٥٢ .

(٢) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس : ٤٤ - ٤٥ .

وأبرز مصادر الموسيقى الداخلية ما يعرف بالتصريع ، والترصيع ، والتجنيس أو الجناس ،
والموازنة ، والمطابقة .

وأول مصدر من مصادر الموسيقى الداخلية لأشعار البيغاء هو التصريع وللنقاد والكتاب
تعريفات كثيرة لهذا المصطلح ، يقول الخطيب القزويني : " التصريع هو جعل العروض مقفاة
مثل الضرب " (١) .

ويقول قدامة بن جعفر أيضاً : " إن التصريع يكون من اقتدار الشاعر وسعة بجره " (٢) فهو
أن تجعل مقطع المصراع الأول من البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها .

ولقد استخدم البيغاء التصريع بكثرة في شعره حيث كان يعتمد عليه في إحداث الرنات
الموسيقية في قصائده ومن أمثلة التصريع في ديوانه قوله : (٣)

هي حالان: شدة ورخاءُ ومجالان: نعمةٌ وبلاءُ

فنجد أن أبو الفرج صرع بين مقطع المصراع الأول من البيت فجاء بكلمة (رخاء) ثم
جاءت القافية بنفس الحرف وهي (بلاء) ، ولا يخفى على متذوق الشعر ما يحدثه هذا التصريع
من رنة موسيقية لذيدة في الآذان ، حيث أن الشاعر تفنن في اختياره للألفاظ ،
وحسن تنسيقه للعبارة وزاد تلك النغمات رنيناً حسن التقسيم الذي أورده الشاعر في البيت .

(١) بقية الإيضاح للإخصيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي : ٨٦/٤ .

(٢) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر : ٨٦ .

(٣) الديوان : ٣٣ .

ويكرر الشاعر التصريح في كثير من قصائده وهذا يؤكد قدرته الفنية في التعامل مع الموسيقى فيها

هو يقول : (١)

ما المال إلا ما أفادَ ثناءً ما العزُّ إلا ما تُنى الأعداءُ

فالتصريح نوع من أنواع الموسيقى الداخلية المستخدمة في تلك الفترة ، إلا أن البغاء كان له أسلوب خاص في استخدام الألفاظ ذات الحروف الخفيفة ، التي تحدث رنات موسيقية عذبة كما في البيت السابق حيث جاء التصريح بين كلمتي (ثناء) و(الأعداء)، فمقطع المصراع الأول من البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها .

وهناك أمثلة على التصريح بحرف الباء اخترتها من قصائد مختلفة منها :

أكلٌ وميضٌ بارقةٍ كذوبٌ أما في الدهر شيءٌ لا يريبُ (٢)

سرورنا بك فوق الهمِّ بالنُّوبِ فما يغالبُنا حزنٌ على طربِ (٣)

لا تستكنُّ لطوارقِ النُّوبِ والقَ الخطوبَ بوجهٍ محتسبِ (٤)

قد بلوْنَا الذِّكاءَ في كلِّ نابٍ فوجدناه صنعةَ السُّنْجَابِ (٥)

نجد أن الشاعر قد أتى بكلمات صرع بينها بأسلوب أدبي جميل نلمح من خلاله مدى

(١) الديوان : ٣٤ .

(٢) المصدر السابق : ٤٣ .

(٣) المصدر السابق : ٤٩ .

(٤) المصدر السابق : ٥٠ .

(٥) المصدر السابق : ٥٢ .

اتساع اللغة عنده ، ولعل هذا راجع إلى ثقافته الواسعة وقدرته الفنية على صناعة الشعر ، فقد صرع بين (كذوب ويريب) وبين (النوب وطرب) وبين (النوب ومحتسب) وبين (ناب والسنجاب) وقد لجأ إلى ذلك لإحداث موسيقى داخلية داخل القصيدة بألفاظ سلسلة قوية ، وقد أكثر (البغاء) من استعمال التصريع على وجه الخصوص في أشعاره ، مما دفعه إلى تكرار نفس اللفظ كما في الأبيات السابقة ، وهذا النوع من التكرار لا يذم لأن الشاعر لا يردد الألفاظ نفسها في القصيدة الواحدة ، كما أن الضرورة الموسيقية قد تقتضي ذلك التكرار .

وهناك أمثلة عديدة على التصريع نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله :^(١)

صَفَحْتُ لهذا الدَّهْرِ عن سَيِّئَاتِهِ وَعَدَدْتُ يومَ الدَّيرِ من حَسَنَاتِهِ

لجأ الشاعر إلى التصريع والتضاد بين (سيئاته) و(حسناته) لإحداث تناغم موسيقي ذي رنين يعكس لنا من خلاله حالته النفسية حيث أنه قد تجاوز عن سيئات دهره وما ناله من مصائب فيه ، واعتبر زمن دير عمر الزعفران إحدى حسنات هذا الدهر الذي أساء إليه ، وتنكر له عند ما لم يحقق أمانيه .

ومن التصريع أيضاً قوله :^(٢)

تَنكَّبُ مذهب الهمج وعُدُّ بالصبر تبتهج

فقد لجأ الشاعر إلى التصريع كما نرى في البيت السابق حيث صرع بين كلمة (الهمج)

و(تبتهج) ليضفي المزيد من الجرس الموسيقي في قصائده .

(١) الديوان : ٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ٦١ .

أما المصدر الثاني من مصادر الموسيقى الداخلية فهو الترصيع أي أن يكون حشو البيت مسجوعاً ، وأصله في قولهم - رصعت العقد - إذا فصلته (١).

ويضيف قدامة بن جعفر قائلاً: " الترصيع هو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع ، أو شبيهه به ، أو من جنس واحد في التصريف ، كما يوجد ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم ، ومثال ذلك قول امرئ القيس :

أَلصُّ الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ تبوع طُوبِ نَشِيطِ أَشْرُ

وقول زهير بن أبي سلمى :

كَبْدَاءِ مُقْبِلَةٍ وَرِكَاءِ مُدْبِرَةٍ قوداءِ فِيهَا إِذَا اسْتَعْرَضَتْهَا خَضَعُ

فأتى بفعلاء مفعلة تجنيساً للحروف بالأوزان " (٢).

ولقد استخدم أبو الفرج الترصيع في ديوانه لإحداث نغمات موسيقية متساوية داخل القصيدة ومن هذه الترصيعات قوله في قصائد مختلفة :

نورٌ وإن لم يغبٌ ووهمٌ وإن صحَّ وماءٌ لو كان ينسكبُ (٣)

فالأفق كفي والأنجُمُ الحبيبُ (١)
ليلاً ومنخرقُ الفضاءِ حديداً (٢)

فالأفج كفي والأنجُمُ الحبيبُ (١)
وقد استحال البرُّ بجرّاً والضحي

(١) الصناعتين ، أبو الهلال العسكري : ٤١٦ .

(٢) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر : ٨٠ - ٨١ .

(٣) الديوان : ٤٤ .

(١) الديوان : ٤٥ .

(٢) المصدر السابق : ٧١ .

خُذُوا مِنَ الْعَيْشِ فَأَعْمَارُ فَانِيَةٌ وَالدهرُ مُنْصَرِفٌ وَالْعَيْشُ مُنْقَرِضٌ^(٣)

والملاحظ أن البغاء لم يستخدم الترصيع كثيراً وهو جعل حشو البيت مسجوعاً، لأنه شاعر مطبوع لم يتجه إلى صنعة الألفاظ ولم يهتم كثيراً بالزخرف اللفظي مثل بعض شعراء البديع .

أما عن المصدر الثالث من مصادر الموسيقى الداخلية فهو التجنيس أو الجناس يقول ابن المعتز: "التجنيس هو أن تجيء الكلمة بجانس أخرى في بيت شعر، وكلام، وبجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها" ^(٤)

ويضيف قدامة بن جعفر قائلاً: "من صفات الشعر المطابق والجناس وهما داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى، ومعناها أن يكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة، وألفاظ متجانسة مشتقة، ويضرب قدامة بن جعفر مثلاً للمجانسة قول زهير بن أبي سلمى:-

كَأَنَّ عَيْنِي وَقَدْ سَالَ السَّلِيلُ بِهِمْ وَجِيْرَةٌ مَاؤُهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ أَمُّمٌ

فالتجنيس بين قول (سال، السليل) ^(١).

ويرى أبو هلال العسكري أن التجنيس "هو أن يورد المتكلم كلمتين بجانس كل واحدة

^(٣) المصدر السابق: ١١٠.

^(٤) البديع، لأبي العباس بن المعتز: ١٠٧-١٠٨.

^(١) نقد الشعر، قدامة بن جعفر: ١٦٢.

^(٢) الصناعتين، أبو هلال العسكري: ٣٥٣.

واحدة منها صاحبته في تأليف حروفها " (٢).

أما ابن الأثير فيقول في التجنيس : " أن يكون اللفظ واحداً ، والمعنى مختلفاً" (٣).

ولقد استخدم البيغاء التجنيس في شعره بكثرة ولكن تجنيسه جاء عفواً الخاطر ليس فيه تكلف ولا صنعة بحيث يخدم الفكرة التي توضح المعنى الذي أراده ، ويحقق الإيقاع الصوتي في القصيدة ، ومن التجنيس الذي جاء في ديوانه قوله : (٤)

يُحومُ حَوْلَ غرضٍ معلومٍ ومَقْصِدٍ في شعره مفهوم

ففي قوله (يحوم) (حول) جناس حيث تشابحت كلمة (يحوم) مع كلمة (حول) في حرفين هما (الحاء) و (الواو) فالموسيقى الداخلية واضحة في الجناس الذي أحدث ذلك التناغم.

وفي أبيات متفرقة من نفس القصيدة يستخدم أبو الفرج التجنيس فيقول :

لم يدع لقائلٍ مقالاً فيها ولا لخاطرٍ مجالاً
أحالَ بالريشِ الأشيبِ الأخضرِ وباحمرارٍ طَوَّقَها والمنسر

فالشاعر يبين أن غرض أبو إسحاق الصابئ وهو واحد من الذين امتلكوا نواصي الكلام من أرجوزته أن يفصح أن البيغاء هو المقصد الذي يريده ، وعندما تحدث عنه لم يترك لقائل

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير : ٢٤١/١ .

(٤) الديوان : ١٦٨ .

فيه مقال بعده فجانس بين (قائل) و(مقالاً) حيث اشتركت الكلمتان في (القاف) (الألف) (اللام) ثم ينتقل الشاعر في البيت الثاني إلى وصف الصابئ له حيث يقول أنه صاحب ريش اختلط فيه الأخضر والأحمر طوق البغاء فقد وصفه الصابئ بكل وصف حسن ، وصاغ أجمل المعاني والألفاظ ، وقد أحدث الجناس بين (الريش) (الأشيب) موسيقى داخلية ملحوظة .

كما أن هناك أمثلة عديدة على التجنيس منها قوله : ^(١)

خلف المدائح بعدك التأبينُ عن أي حادثةٍ يُعزى الدينُ
كُنْ كأنْتِ أسي ولكنْ بالحجى يتفاضل المحزونُ والمخزونُ

فالشاعر قال هذه الأبيات في رثاء الأمير الحمداني سيف الدولة أثر وفاته سنة ٣٥٦هـ ، فيقول أنه ليس هناك شيء نفعله بعد رحيلك إلا البكاء والثناء عليك ، والآن يُعزى الدين فيك ، لأنه فقد برحيلك رجل كان يدافع عنه بقوة ، فجانس بين (التأبين)

و (الدين) وبين (كن) و(لكن) مما أعطى القصيدة أثر موسيقي قوي له وقعته على المتذوق .

"ولعلنا ندرك الآن ما للجناس من أثر موسيقي قوي ينبع من ترديد الحروف ، وتقابل

الألفاظ المتشابهة ، وذلك أمر تطرب له الأذان ، وهو إلى ذلك يحمل المفاجأة حيث يتوهم السامع أن اللفظة المعادة هي عين الأولى ، ثم يدهش عندما يعلم أنها مغايرة لها في المعنى ، فيكون لذلك وقع حسن " ^(١) .

ومن التجنيس أيضاً قوله : ^(٢)

^(١) الديوان : ١٥٥ .

^(٢) علم البديع ، بسويوني عبد الفتاح : ١٦٥/٢ .

نكَلْفُهَا عَزَائِمَنَا فَتَكْفِي وَنَسْتَدْنِي الْحِظْوَضَ بِهَا فَتُدْنِي

فجانس بين (نكلفها) (فتكفي) مما جعل للبيت إيقاع موسيقي جميل تهفو الآذان

لسماعه .

ويقول البيهقي في مدح أبي جعفر بن محمد بن ورقاء : (٣)

جَادَ رَبْعًا حَلَلْتَهُ يَا هِمَامُ مِنْ نَدَى كَفَّكَ الْعَزِيزُ رِهَامُ

فهو يصف كرمه وجوده الذي لا ينقطع أبداً ، فأينما حل هذا الهمام البطل الشجاع ،

نزل المطر الغزير الدائم بشير الخير من كفه فعطاء هذا الهمام كالمطر الرهام ، فجانس الشاعر بين

(الهمام – الرهام) وهذا الأمر له أثر موسيقي تطرب له الآذان .

وهناك أمثلة عديدة على الجناس نذكر منها قوله : (٤)

فِي عَارِضٍ ضَاقَتْ الْأَرْضُ الْفَسِيحَةُ عَنْ سُرَاهُ إِذْ سَالَ فِيهَا سَيْلُهُ الْعَرْمُ

وَمَا سَمِعْنَا بَلِيْثٍ قَبْلَ رُوَيْتِهِ إِذَا سَرَى صَاحِبَتُهُ فِي السَّرَى الْأَجْمِ

الْبَاذِلُ الْمَعْرُوفَ وَالْأَنْوَاءُ بَاخِلَةٌ وَالْمَانِعُ الْجَارَ وَالْأَعْمَارُ تُخْتَرَمُ

فهذه الأبيات مختارة من مواضع متفرقة من نفس القصيدة كأمثلة على الجناس فقد جانس

الشاعر في البيت الأول بين (سال – وسيله) وفي البيت الثاني بين (سرى – السرى) والكلمة

(١) الديوان : ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٤ .

الأولى فعل بمعنى سار ليلاً ، أما الثانية فهي اسم بمعنى المشي ليلاً ، وفي البيت الثالث جانس بين كلمة (المانع – الأعمار).

"والجناس لا يخرج عن نظرية تداعي الألفاظ والمعاني ، حيث تففز لذهن المبدع اللفظة التي تشابه أختها في الجرس وتولد معنى ملائماً"^(١).

كما يقول البغاء في وصف أماكن الخمر والخمارين :^(٢)

كم للصبابة والصبأ من منزل ما بين كُلوآدى إلى قَطْرُئِل

فالشاعر يقول أن لركة الشوق وعذاباته ، ونشاط الشباب ونزواته حكايات ومنازل بين (كلوآدى) و(قطرئيل) القرى التي ينسب إليها الخمر والخمارين .

فاستطاع الشاعر أن يوضح المعنى الذي أراد عرضه من خلال الجناس بين كلمتي (الصبابة) و(الصبأ) فلم يقتصر الجناس على تحسين الصوت الإيقاعي فقط وإنما كانت له وظائف أخرى منها تنشيط ذهن السامع ، وإيضاح الفكرة ، وتحقيق التناغم الموسيقي . ولعل

أشهر من أبدع به قبله الشاعر الفحل البحري الذي قال :^(١)

نسيم الروض في ربح شمال و صوب المزن في راحِ شمول

ومنه أيضاً قوله :^(٢)

^(١) علم البديع ، بسيوني عبد الفتاح : ١٦٥/٢ .

^(٢) الديوان : ١٣٦ .

^(١) ديوان البحري : ١٦٠/٢ .

^(٢) المصدر السابق : ٦٢/١ .

راحت لا رُبْعِكَ الرِّياحُ مريضَةً وَأَصَابَ مِعْنَاكَ الغَمَامُ الصَّيْبُ

أما المصدر الرابع من مصادر الموسيقى الداخلية يتمثل في الموازنة ويعرفها ابن الأثير قائلاً: هي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن ، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً ، وللكلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال لأنه مطلوب في جميع الأشياء ، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان ، وهذا النوع من الكلام أخو السجع في المعادلة دون المماثلة ، لأن السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال وهي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد، أما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ولا تماثل في فواصلها ، فيقال إذاً : كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعاً وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة ، ومما جاء في القرآن الكريم من الموازنة قوله تعالى { وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }^(٣) فالمستبين والمستقيم

على وزن واحد ، ومن الشعر الوارد في ذلك قول ربيعة بن ذؤابة :

إن يقتلوك فقد ثلت عروشهم بعثية بن الحارث بن شهاب
بأشدهم بأساً على أصحابه وأعزهم فقداً على الأصحاب

فالبيت الثاني هو المختص بالموازنة فإن (باساً ، فقداً) على وزن واحد^(١).

(١) سورة الصافات: ١١٧، ١١٨.

(٢) المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر: ٢٧٤/١ .

(٣) سورة الغاشية: ١٥ .

(٤) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي: ٨٧/٤ .

(٥) الديوان: ٣٩.

أما الخطيب القزويني فيقول في الموازنة: "هي أن تكون الفاصلتان متساويتان في الوزن دون التقفية، كقوله تعالى { وَمَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَرَزَائِي مَبْثُوثَةٌ }^(٢). الفاصلتان في كلمتي (مصفوفة - مبثوثة) والتقفية في الأولى على الفاء، وفي الثانية على التاء، ولا ينظر إلى تاء التأنيث فيهما، لأنها لا تعد من حروف القافية لإبدالها هاء في الوقف، وقول أبي تمام:

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا السخط إلا أن تلك ذوابل

والشاهد في تساوي الفاصلتين (أوانس - ذوابل) في الوزن دون التقفية^(٣).

ولقد استخدم البيغاء الموازنة في قصائده كثيراً، وعلى سبيل المثال نذكر منها قوله:^(٤)

فإذا نطقت نطقت من ألفاظه وإذا وهبت وهبت من نغمائه

قال الشاعر هذا البيت في مدح عدة الدولة الذي أفاد الشاعر من قربه منه الكثير من

الفضائل، لذلك تأثر به فإذا تحدث كان كلامه مأخوذ من كلام عدة الدولة، وإذا أعطى

فإنما يعطي من نعم عدة الدولة وعطاياه التي لا تعد ولا تحصى، فالموازنة بين (نطقت)

و(وهبت) في الوزن جعل للبيت اثر موسيقي واضح تتحرك المشاعر له.

ومن الموازنة أيضاً قوله في وصف بركة:^(١)

وجُودك أغزر من جريها وخُلُقك أعذب من مائها

(١) الديوان: ٤٠٠.

فهو يصف الماء في البركة ثم يستطرد من وصف مائها إلى وصف كرم الممدوح الذي هو أغزر من ماء البركة ، كما أنه يصف حسن خلقه الذي فاق عذوبة ماء البركة ، فبين (جودك) (خلقك) موازنة حيث أن الكلمتين متساويتين في الوزن .

وأيضاً وازن بين أكثر من كلمة في بيت واحد عندما قال : (٢)

نور وإن لم يغب ووهمٌ وإن صحَّ وماءٌ لو كان ينسكبُ

فهو يصف شراب في قدح أبيض فوازن بين (نورٌ) و(وهمٌ) و(ماءٌ) وهذا الاستعمال لتلك الكلمات على أوزان متساوية ساعد في إحداث موسيقى داخلية لها جرس مستحب في السمع يدل على قدرة فنية لدى الشاعر.

وكذلك وازن بين (الراح) و(الجام) و(الأفق) في قوله : (٣)

فالراحُ بدرٌ والجام هائلته والأفق كفي والانجمُ الحبُّ

أما المصدر الخامس من مصادر الموسيقى الداخلية فيتمثل في المطابقة التي أجمع الناس على أنها الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو بيوت القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد ، والليل والنهار ، الحر والبرد ، والطباق في اللغة الجمع بين الشئيين ، يقولون طابق فلان بين ثوبين ثم استعمل في غير ذلك فليل طابق البعير في سيره ، إذا وضع رجله موضع يده وهو راجح بين الشئيين ، قال الجعدي :

(٢) المصدر السابق : ٤٤

(٣) المصدر السابق : ٤٥ .

وخيلٍ تطابق بالدارعين طبًا قِ الكِلَابِ يَطَانِ الهَرَّاسَا

وفي القرآن الكريم قال تعالى: { وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا } " (١).

وذكر ابن المعتز الطباقي قائلاً: " قال الخليل بن أحمد رحمه الله : يقال طابقت الشيءين إذا جمعتهما على حدو واحد " وكذلك قال أبو سعيد ، فالقائل لصاحبه اتيناك لتسلك بنا سبل التوسع فأدخلتنا في ضيق الغمان ، قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب " (٢).

ويقول الدكتور عبد العزيز عتيق " المطابقة أو التطبيق والطباق والتضاد ، والمطابقة في أصل الوضع اللغوي أن يضع البعير رجله موضع يده ، فإذا فعل ذلك قيل طابق البعير ، والمطابقة في اصطلاح رجال البديع هي الجمع بين الضدين ، أو بين الشيء وضده في كلم ، أو بيت شعر ، كالجمع بين اسمين متضادين مثل الليل والنهار ، البياض والسواد ، الحسن والقبيح ، الشجاعة والجبن ، والجمع بين فعلين متضادين مثل ، يظهر ويبطن، يسعد ويشقى، يعز ويذل ، يحي ويميت " (١).

ومن المعلوم أن الطباقي من أعظم المحسنات أثراً في الأسلوب ، لأنه لا يقف عن ظواهر الألفاظ بل يدخل إلى معانيها وبذلك تتضح لنا الفكرة وتنجلي عندما يعرض لنا الكلمة وضدها .

(١) الصناعتين : ٣٣٩ .

(٢) كتاب البديع : ٣٦ .

(١) علم البديع ، عبد العزيز عتيق : ٧٨٧٦ .

يقول بسيوني عبد الفتاح : " ما من ريب في أن الجمع بين الأمور المتضادة يكسو الكلام

جمالاً ، ويزيده بهاء ورونقاً فالضد – كما قالوا يظهر حسنه الضد " (٢)

ولقد أفاد أبو الفرج الببغاء من هذا اللون البديعي واستطاع من خلاله تصوير ما يختلج

في نفسه من الأفكار والأخيلة ، بأسلوب سهل موجز ، يتلائم مع ظروف الشاعر ، ومن أمثلة

المطابقة التي استخدمها أبو الفرج في شعره قوله عندما مدح سيف الدولة الحمداني : (٣)

باع الذي يَفْنَى بما أبقى له دَكْرًا إِذَا دَجَّتِ الخُطُوبُ أضاء

فسيف الدولة من الذين باعوا ما يفنى وهو المال بما يبقى وهو العز والمنعة عندما أفتدى

الأسرى من يد الأعداء بأمواله ، فهو في الأحداث الجسام والظلمة الحالكة كالنور المشع الذي

يملى الدنيا ضياءً ، فالمطابقة جاءت بين (يفنى وأبقى) وكذلك بين (دجت وأضاء)

وجمع ذلك في بيت واحد وذلك يدل على مقدرته البلاغية .

ومن أمثلة المطابقة أيضاً قوله : (١)

هي حالان شدةُ ورخاءُ ومجالان نعمةُ وبلاءُ

فالشاعر هنا يصف حياة الناس الدنيوية التي لا تسير على وتيرة واحدة فمنهم من ينعم

بتلك الحياة فيعيش في نعيم ورخاء ، ومنهم عكس ذلك ممن ضاقت بهم الحياة ، فقد لجأ

(١) علم البديع ، بسيوني عبد الفتاح : ٨/٢ .

(٢) الديوان : ٣٤ .

(٣) الديوان : ٣٣ .

(٤) المصدر السابق : ٣٦ .

الشاعر إلى البديع لتجسيد فكرته تلك حيث استعمل الطباق بين (شدة ورخاء) وبين (نعمة
وبلاء) فالرخاء ضد الشدة والبلاء ضد النعمة .

ويقول في وصف الخمر والقدح : (٢)

ومُدَامٍ كَأَنَّهَا فِي حِشَا الدِّ ن صَبَاحٌ مَقَارِنُ بِمَسَاءٍ

فهو يصف الخمر التي في الإناء بأنها تشبه الصباح الذي اقترن بالمساء فجاء الطباق بين
(صباح ومساء) .

وفي نفس القصيدة كذلك نلمح الطباق بين (جد وهذل) في قوله :

حبذا العيشُ تُسْرِي الأَمَانِي بين جد الغِنَا وهَزَلِ الغِنَاءِ

البغواء شغوف بالطباق حيث نلمح هذا اللون البديعي في الكثير من أشعاره فهاهو
يقول: (٣)

ما بَالُ حَيِّ بِالْأَرَاكِ نَزَلُتُهُ ضَيْفًا فَضَنَّ وَشِيْمَةُ الْعَرَبِ الْقُرَى

فبين كلمة (ضن) أي بخل وبين (القرى) أي الإكرام طباق ، ويسمى هذا الطباق أيهام
الضد^(١) حيث أن ضد (ظن) (أعطى) والإكرام نوع من العطاء .

يقول البغواء في قصيدته التي يرد فيها على أبيات الأزدية التي كتبها إليه يتشوقه بعد

خروجه من بغداد : (٢)

(٣) المصدر السابق: ٣٩.

(١) هو الجمع بين معنيين غير متقابلين لا تضاد بينهما ولكن يتوهم التضاد من ظاهر اللفظين باعتبار معنيهما الأصليين، ينظر الإيضاح : ١٥/٦ .

بُقْرَبِكَ مِنْ بَعَادِكَ اسْتَجِيرُ وَهَلْ فِي الدَّهْرِ غَيْرُكَ مِنْ يُجِيرُ
نَأَيْتَ فَمَا لِسُلُوَائِي دُنُوُ وَغَبْتِ فَمَا لِلذَّاتِي حَضُورُ
وَقَدْ صَاحَبْتِ إِخْوَانًا وَلَكِنْ مَتَى تُغْنِي عَنِ الشَّمْسِ البُدُورُ

وعلى هذا النحو يمضي الشاعر في وصف مشاعره تجاه أبو محمد يحيى الأزدي لأنه مخلص صادق في تشوقه له ، وقد أحسن البغاء في رسم صورة الصديق الوفي المخلص عندما قال متى تغني عن الشمس البدور ، كما أنه استعمل الطباق بين (بقربك وبعادك) مما أعطى موسيقى داخلية رائعة تطرب الآذان بسماعها .

ومن طباق إيهام الضد قوله : (٣)

أَضْرَمَ المَاءُ بالشَّقِيقِ بِهَا النَارَ رَ وَعَهْدِي بِالمَاءِ ضِدَّ النَارِ

فبين (الماء والنار) طباق إيهام الضد. حيث جمع بين معنيين لا تقابل بينهما، ولكن يتوهم التضاد باعتبار معنيهما الأصليين فعبر بالماء الذي معناه الحقيقي مقابل للنار.

ويقول البغاء في الغزل : (١)

حَصَلْتُ مِنَ الهَوَى بَكَ فِي مَحَلِّ يَسَاوِي بَيْنَ قُرْبِكَ وَالفِرَاقِ

وهو هنا يعرض لنا درجة الحب التي وصل لها وهي أن يتساوى عنده قرب المحبوب أو بعده فجاء الطباق بين (قربك والفرق) ليعطي تناغم موسيقي في البيت لأن الموسيقى الشعرية عنصر

(٢) الديوان: ٨٧.

(٣) المصدر السابق: ٩٠.

(١) الديوان: ١١٩.

(٢) المصدر السابق: ١٢١.

ضروري في الشعر لا يمكن الاستغناء عنه لأهميته في إيضاح المعنى وخدمة الفكرة التي يريد الشاعر عرضها .

وهناك أمثلة كثيرة على هذا اللون البديعي نذكر منها قوله : (٢)

يا مَنْ يُحَاكِي البدرَ عندَ تمامِهِ أرْحَمَ فتى يَحْكِيهِ عندَ مُحَاقِهِ

فبين (تمامه ومحاقه) طباق فتمام البدر هو اكتماله ، والمهاق هو غياب معظم الهلال ويكون في ثلاث ليال من آخر الشهر والامحاق : أن يهلك الشيء .

ويقول البغاء في حال الدنيا : (٣)

هي الدنيا تقولُ بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
ولا يغركمُ حُسْنُ ابتسامي فقولِي مُضْحِكُ والفعلُ مُبْكِي

فهو يصف الدنيا بالغدر وهي بنفسها تحذركم من بطشها وفتكها الشديد ، فلا تنخدعوا بها حين تبسم لكم لأنها سرعان ما تنقلب من القول المضحك إلى الفعل الذي يؤدي للبكاء ، فجاء الطباق بين (مضحك ومبكي) وهذا نوع من الموسيقى الداخلية عن طريق المقابلة بين معنيين متضادين .

(٣) المصدر السابق : ١٢٤ .

أما عن الموسيقى الخارجية فإن أبرز مصادرها في الشعر القافية وهي في اللغة من قفا يقفو أي تبع والقافية التابعة ، واصطلاحاً ، مقاطع صوتية تكرر في أواخر أبيات القصيدة ، وتنتج عن أحرف تسمى حروف القافية ، ينشأ عنها نغم موسيقي معين (١)

والقافية عند الخليل بن أحمد مجموعة الأحرف تمتد من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن ، مثل تابا من قوله :

أقلَى اللوم عاذل والعتابا(٢)

" والقافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر " (٣)

ويقول إبراهيم أنيس في كتابه موسيقى الشعر : " وتظهر أهمية القافية من جهة كونها أصواتا تكرر في نهايات الأبيات مشكلة جزءاً أصيلاً من موسيقى الشعر ، يتردد في لحظات زمنية منتظمة " (٤) .

ولقد استخدم البغاء كل من القوافي المطلقة والقوافي المقيدة ولو أحصينا القوافي في ديوانه نجد أنه استخدم القوافي المطلقة بكثرة فقد بلغت مائة وثلاث وخمسين قصيدة ومقطوعة . أما القوافي المقيدة التي استخدمها أبو الفرج فلم تزد عن ثلاث قصائد ، وهذا أمر معتاد عند الشعراء ، فإنهم لا ينظمون على الروي الساكن إلا قليلاً .

(١) الورد الصافي من علمي العروض والقوافي ، محمد حسن إبراهيم عمري : ٣٥٩ .

(٢) مفتاح العلوم ، السكاكي : ٢٣٨ .

(٣) النغم الشعري عند العرب ، عبد المنعم الخفاجي : ١٠١ .

(٤) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس : ٢٧٣ .

ولو قمنا بعمل إحصائية لديوان أبي الفرج ، وما أشهر القوافي التي استخدمها نجد الآتي .:

م	نوع القافية	عدد القصائد أو المقطوعات	م	نوع القافية	عدد القصائد أو المقطوعات
١	قافية الهمزة	٧	١٥	قافية الضاد	١
٢	قافية الباء	١٥	١٦	قافية الطاء	-
٣	قافية التاء	٢	١٧	قافية الظاء	-
٤	قافية الثاء	-	١٨	قافية العين	٥
٥	قافية الجيم	٣	١٩	قافية الغين	-
٦	قافية الحاء	٤	٢٠	قافية الفاء	١
٧	قافية الخاء	-	٢١	قافية القاف	٨
٨	قافية الدال	٢٦	٢٢	قافية الكاف	٤
٩	قافية الذال	-	٢٣	قافية اللام	٢٠
١٠	قافية الراء	١٩	٢٤	قافية الميم	١٥
١١	قافية الزاي	١	٢٥	قافية النون	١٠
١٢	قافية السين	٣	٢٦	قافية الهاء	-
١٣	قافية الشين	١	٢٧	قافية الواو	-
١٤	قافية الصاد	١	٢٨	قافية الياء	٣

وتوجد أرحوزة واحدة لأبي الفرج في نهاية الديوان مختلفة القوافي ، كما يوجد ثلاثة عشر

بيتاً مفرداً مختلفة القوافي .

ومن خلال الإحصائية السابقة نجد أن أبا الفرج استخدم بعض القوافي بكثرة وبعض

القوافي بقلة كما لم يستخدم بعضها مطلقاً .

ويبين الجدول الآتي ترتيب استخدام القوافي في ديوانه . :

م	ترتيب القوافي حسب الاستخدام	العدد	م	ترتيب القوافي حسب الاستخدام	العدد	قوافي لم يستخدمها
١	قافية الدال	٢٦	١١	قافية الكاف	٤	الثاء
٢	قافية اللام	٢٠	١٢	قافية الجيم	٣	الحاء
٣	قافية الراء	١٩	١٣	قافية السين	٣	الذال

٤	قافية الميم	١٥	١٤	قافية الياء	٣	الطاء
٥	قافية الباء	١٥	١٥	قافية التاء	٢	الظاء
٦	قافية النون	١٠	١٦	قافية الزاي	١	الغين
٧	قافية القاف	٨	١٧	قافية الصاد	١	الهاء
٨	قافية الهمزة	٧	١٨	قافية الضاد	١	الواو
٩	قافية العين	٥	١٩	قافية الفاء	١	
١٠	قافية الحاء	٤	٢٠	قافية الشين	١	

ومن ملاحظتنا على الجدول السابق يتضح أن البيغاء استخدم عشرين رويماً في شعره أي أنه استخدم عشرين حرفاً من حروف الهجاء في قوافيه وهو عدد غير قليل، وفيه دلالة على تمكن الشاعر من لغته ، وسعة ثروته اللفظية ، وقدرته على اجتلابها.

ونستنتج مما سبق أن الشاعر لم يحط بحروف الهجاء كلها ، حيث أهمل روي الثاء الحاء - الذال - الطاء - الظاء - الغين - الهاء - الواو ، ولا اعتقد أن أبا الفرج أهمل هذه الحروف من قبيل العجز ، إذ لو أراد أن ينظم على أي منها لاستطاع ، فشاعرنا من أرباب اللغة ومن الكتاب المشهورين في دواوين الدولة الحمدانية .

كما أن أبا الفرج استطاع أن ينظم بعض القصائد على حرفي الشين والضاد رغم ندرة استعمال هذه الحروف في الشعر العربي . ثم أن إهمال أبي الفرج للنظم على بعض الحروف يرجع أصلاً إلى ندرة هذه الحروف في أواخر الكلمات العربية^(١).

(١) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس : ١٧٥ .

ولو نظرنا إلى دواوين فحول الشعراء سنجد أن معظمهم لم ينظم في كثير من الحروف العربية وليس هذا عيباً منهم بل كما ذكرنا بسبب ندرة هذه الكلمات التي تنتهي بهذه الحروف.

ولو أمعنا النظر في حروف الروي التي استخدمها أبو الفرج (الببغاء) ومناسبتها لموضوعات القصيدة نلاحظ أنه قد وفق في اختيار حرف الروي الذي يتوافق نغمة مع غرض القصيدة العام ، فلقد جعل أبو الفرج الحرف الجزل القوي للمعنى القوي الفخم، والحرف الرقيق الناعم للمعنى اللطيف الرقيق .

ومن أمثلة ذلك استخدام أبي الفرج لحرف الباء ، وهو حرف شديد مجهور يناسب وصف الحروب والمعارك فلقد استطاع أن يوظف هذه الحروب التي خاضها سيف الدولة لنواحي ملطية وغنيمته فيها فنراه يقول : (٢)

ورد الدُمستقُ دونَ مَنْظَرِه	خَبْرٌ تَضِيْقُ بِشَرْحِه الكُتُبُ
ناجته عنك البيضُ من بُعْدٍ	نُصْحاً وَأَنْقَذَ جَيْشِه الرُّعْبُ
ولّى ولو أَحْبَبْتَ حِينَ نَجَا	إِدْرَاكِه لَمْ يُنْجِه الهَرْبُ
يا كَالِي الإسلامِ يَحْرُسُه	مَنْ أَنْ يَخَالِجَ حَقَه الرِّيبُ
إِنْ كُنْتَ تَرْضَى أَنْ يَعْطِيكَ مَا	سَجَدُوا لَهُ سَجَدْتُ لَكَ الصَّلْبُ

ومصادقاً لقولنا في حرف الباء أنه يناسب الحروب استخدام أبي تمام الشاعر المشهور في

قصائده التي تصف الحرب ذلك الحرف فهاهو يقول في مطلع أحداها : (١)

(٢) الديوان : ٤١ .

(١) ديوان أبي تمام : ٤٠/١ .

(٢) علم اللغة العام (الأصوات)، كمال بشر : ٨٨ .

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ

فلقد استخدم أبو تمام حرف الباء عندما وصف فتح المعتصم لمدينة عمورية .

كما استخدم البيغاء الصوت المجهور عند النصح والإرشاد وهو الصوت الذي تنذبذب

الأوتار الصوتية حال النطق به ، والأصوات الصامتة المجهورة في اللغة العربية كما نطقها اليوم

هي " الباء - الجيم - الدال - الذال - الراء - الزاي - الصاد - الظاء - العين - الغين -

اللام - الميم - النون - الواو " (٢) .

فلقد استخدم الجيم لتناسب النصح وقرع النفوس التي تريد أن تسلك طريق الرشاد فنراه

يقول: (٣)

تنكَّبَ مذهب الهمجِ وعُذَّ بالصبر تبتهج
فإنَّ مُظَلِّمَ الأيا م محجوجٌ بلا حُججِ
تسامحنا بلا شكر وتمتعنا بلا حرجِ
ولطف الله في إتيا نها فتح من اللججِ

كذلك استخدم حرف الدال وهو حرف مجهور عند النصح أيضاً فقال : (١)

لا تأسفنَّ لأمر فاتٍ مطلبُهُ هيهات ما فائت الدنيا بمرؤودٍ
إذا اقتضته أخذت نقداً وإن سئلت فبذُّها بالأمانى والمواعيدِ

(٢) الديوان: ٦١ .

(١) الديوان: ٧٩ .

(٢) المصدر السابق: ٩٨ .

فحرف الدال من الأصوات التي تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به كما ذكرنا آنفاً
ولهذا استخدمه الشاعر استخداماً ملائماً عندما أراد أن يقرع آذاننا بنصائحه ، واستخدم أيضاً
حرف الراء عندما وصف انصراف سيف الدولة من إحدى الغزوات ظافراً ومن المعلوم أن
حرف الراء أيضاً حرف جهوري فقال : (٢)

فلا انتزع الله الهدى عز بأسه ولا انتزع الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه بإغراق منظوم الكلام ونثره

ولقد استخدم أبو الفرج البيهقي حروف الهمس عندما تحدث عن الغزل ووصف النساء.

والصوت المهموس هو الصوت الذي لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به ،

والأصوات المهموسة في اللغة العربية كما ينطقها مجيدو القراءات اليوم أو كما ينطقها

المختصون في العربية اليوم هي: "ت ، ث ، ح ، خ ، س ، ش ، ص ، ط ، ف ، ق ، ك" (٣)

ومن استخدام السين في وصف المرأة يقول أبو الفرج : (١)

كلُّ فضلٍ لكلِّ نوعٍ وجنسٍ دون فضل المرأة من غير لبسٍ
لَطْفَتْ رِقَّةً وفاضتْ صَفَاءً فهي كالماء في عيانٍ ولمسٍ
واستدارتْ بباهرِ النورِ حتى ظنَّها الناظرونَ قطعةً شمسٍ
وهي أصفَى أخٍ يكشِفَ لي عني وأدنى خلٍّ يوفُرُ أنسي
وإذا ما نأى نديمي عني ظلَّ طرفي بها ينادمُ نفسي

(٢) علم اللغة العام (الأصوات) : ٨٧ .

(١) الديوان : ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٦ .

كما استخدم البيغاء حرف اللام عندما أزد المدح ومن المعروف أن حرف اللام من

الحروف الجهورية التي تناسب فخامة القول وفخامة القول تناسب المديح فنراه يقول: (٢)

يسعى إلى الموت والقنا قصدٌ وخيلُهُ بالرؤوس تَتَعَلُّ
كأنه واثقٌ بأن له عمراً مُقيماً وما له أجلٌ

ولقد استخدم أبو الفرج حرف الميم وهو حرف رقيق وقال متغزلاً: (٣)

يدعي حبيبي إلى هجري فيعدلُ بي عن هجره مَرَضٌ في القلبِ مكتومٌ
لو كان ينصفني ما كانَ يَهْجُرُونِي لَكِنِّي الدَّهْرُ في حُبِّي هِ مَظْلومٌ

كما استخدم أبو الفرج بعض القوافي المؤسسة مكسورة الدخيل وهذا ما يستحبه

العروضيون ولعل استخدام هذه القوافي المكسورة الدخيل للنزوع إلى خفة النغم وحلاوته ،

فإن الألف التي يمتد معها النفس ، وتستأثر ببعض الجهد ، يلائم أن يأتي بعدها حرف مكسور

، لتكون نهايته مريحة ، تواكب نهاية البيت ومن ذلك قوله : (١)

أنظر إلى صورة لو أنها علمت بمن تشبّه لم تظهر لبانيها

حيث جاء حرف الدخيل وهو النون في (لبانيها) مكسوراً وفق ما استحبه العروضيون.

(٢) المصدر السابق: ١٤٦.

(١) الديوان: ١٦٦.

ورغم ذلك فإننا نجد في قوافي هذا الشاعر عيوباً ومنها الإقواء وهو اختلاف المجرى الذي

هو حركة الروي المطلق بكسر وضم كقول النابغة الذبياني: (٢)

أمن آل مية رائج أو مغتدي عجلان ذاد و غير مزود

إلى أن يقول :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذلك حدثنا الغراب الأسود
لا مرحباً بغير ولا اهلاً به إن كان تفريق الأربة في غدٍ

فالروي هنا الدال ، والمجرى الذي هو حركة الروي المطلق هنا هو الكسرة في جميع أبيات

القصيدة عدا البيت المنتهي بكلمة (الأسود) ، فمع أن رويه الدال إلا أن مجراه قد
اختلف من كسر إلى ضم ، ولذلك زعم الرواة أن البيت قد تغير على هذا الوضع :

وبذلك تنجأ الغراب الأسود

ونظير ذلك قول حسان بن ثابت: (١)

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن قصرٍ جِسْمُ البَعَالِ وَأَحْلَامُ العَصَافِيرِ
كَأَنَّهُمْ قُصِبٌ جُفَّتْ أَسَافِلُهُ مُثَقَّبٌ نَفَخَتْ فِيهِ الأَعاصِيرِ

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ٣٨، ينظر شرح القصائد العشر: ٤٥٣.

(١) ديوان حسان بن ثابت: ١٢٢.

فالروي هنا الرء غير أن مجراه في البيت الأول الكسرة وفي البيت الثاني الضم .

ومن أمثلة الإقواء عند البيغاء قوله : (٢)

وكأن المديِر في الحلة ال بيضاء منها في حلةٍ صفراءِ

فالقصيدة تنتهي بروي مكسور وهي تبدأ بالبيت الأتي :

ومُدامٍ كأنَّها في حشا ال نّ صباحٌ مقارن بمساءِ

وهي قافية مكسورة ثم جاء أبو الفرج بالبيت السابق :

وكأن المديِر في الحلة ال بيضاء منها في حلةٍ صفراءِ

وقام بكسر كلمة (صفراء) إلا أن هذا خطأ لأن صفراء ممنوعة من الصرف لأنها اسم ينتهي بألف تأنيث ممدودة والممنوع من الصرف يجر بالفتحة إلا إذا كان محلي (بال) أو مضاف ، وكلمة صفراء هنا غير محلاه بال أو مضافة ومن هنا يجب ان تجر بالفتحة فالأصل أن تفتح كلمة (صفراء) ولكن البيغاء جاء بها مكسورة وهذا يعتبر تغيير في حركة الروي ويسمى الإقواء .

وفي قصيدة وصف اليؤيؤ وقع أبو الفرج في نفس الخطأ وهو الإقواء عندما بدأ القصيدة

بروي مكسور فقال : (١)

ويؤيؤٍ أوحى من القضاءِ

(٢) الديوان : ٣٧ .

(١) الديوان : ٣٨ .

ثم جاء بيت من المفترض أن يكون الروي مجروراً بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف فقال:

ذي سُفْعَةٍ في خده بيضاء

فجاء بكلمة بيضاء مكسورة ولكن الأصح هي أن تكون مجرورة بالفتحة لأنها ممنوعة من

الصرف وكذلك قوله في نفس القصيدة :

تشفُّ عن ياقوته صفراء

فجاء بكلمة صفراء مجرورة بالكسرة والمفروض ان تجر بالفتحة لأنها ممنوعة من الصرف

أيضاً .

ومن الملاحظ أن الإقواء قليل في ديوان أبي الفرج لأنه رجل أدب وعلم وعلى دراية

كبيرة بعلوم النحو والصرف .

ومن العيوب التي وقع فيها كذلك البغاء الايطاء وهو إعادة كلمة الروي بلفظها ومعناها

بعد بيتين ، أو ثلاثة إلى سبعة أبيات ، وهذا يدل على قلة إلمام الشاعر بمفردات اللغة، إذ عليه

ألا يكرر ألفاظ القافية ، مما يستحسن في الشعر ألا يكرر الشاعر اللفظ بعينه في مسافة

متقاربة، وكلما بعدت المسافة كان أفضل .

ومن الايطاء الذي وقع فيه أبو الفرج البغاء قوله في وصف اليؤيؤ :

ذي سُفْعَةٍ في خده بيضاء

فأنهى البيت بكلمة (بيضاء) ، ثم كررها في البيت الذي يليه قائلاً :

مُخْبِرَةٌ عَنْ هَمَّةٍ بِيضَاءِ

حيث أنهى البيت بكلمة (بيضاء) أيضاً وهذا عيب في القافية أن ينتهي بيتان بكلمة واحدة مشتركة في اللفظ والمعنى .

ومن أخطاء الايطاء أيضاً في ديوان أبي الفرج عندما أراد وصف تمثال سبع فقال :^(١)

مساوِرٌ تَسِيلُ مِنْهُ الرُّوحُ
جِسْمٌ وَلَكِنْ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ

حيث كرر الكلمة الأخيرة في البيت وهي كلمة الروح في بيتين متتابعين .

ومن عيب الايطاء أيضاً تكرار كلمة (الأقداح) في قصيدة واحدة ولم يفصل بين البيتين

إلا أربعة أبيات فيقول في وصف الخمر في البيت الأول :^(١)

غَيْرِ نَكَرٍ أَنْ تَسْتَمِدَّ شِعَاعِ الِ شَمْسٍ مِنْهَا كَوَاكِبِ الْأَقْدَاحِ

ثم بعد أربعة أبيات يقول :

وَنَشِيدٍ مُسْتَنْبَطٍ مِنْ حَدِيثٍ وَغَنَاءٍ يُغْنِي عَنِ الْأَقْدَاحِ

وهكذا كرر الأقداح في قصيدة واحدة وهذا عيب .

^(١) الديوان : ١٢ .

^(١) الديوان : ٦٤ .

^(٢) المصدر السابق : ٣٨ .

ولقد وقع البغاء كذلك بعيب التضمين وهو ألا يستقبل البيت بمعناه ، بل يكون المعنى جزءاً من بين بيتين ، وبعبارة أخرى أن يكون البيت الثاني مكماً للبيت الأول في معناه، وذلك كأن يرد المبتدأ أو الفعل في البيت الأول ، ثم يأتي الخبر أو الفاعل ، أو المفعول به ، أو ما شابهه في البيت الثاني .

ومن أمثلة التضمين عند البغاء قوله : (٢)

ويؤيؤٍ أوحى من القضاء
مُمتَّع الصورة والأعضاء

فالبيت الثاني مكمل لمعنى البيت الأول .

وكذلك وقع أبو الفرج في التضمين عندما قال في وصف صورة أفعى : (٣)

ومارقٍ معتدلِ الكعوبِ
يقل أفعى معدة التركيبِ
تدبُّ في الجوّ بلا ديبِ

حيث أن البيت الثاني مكمل لمعنى البيت الأول وهذا عيب لدى النقاد القدامى يسمونه التضمين .

وفي النهاية نستطيع القول أن البغاء استخدم الألوان البديعية بكثرة خاصة الجنس والطباق والموازنة والتصريح التي تعد من أبرز مصادر الموسيقى الداخلية في قصائده ، فالمحسنات

(٢) الديوان : ٥١ .

البديعية عنده جاءت عفوية غير متكلفة ، وكان يأتي بها ليحدث أثراً موسيقياً جميلاً داخل القصيدة ، وأسلوبه هذا يتفق مع أسلوب الشعراء في ذلك العصر من حيث الإغراق في الصنعة البديعية ، وليس معنى ذلك أن الشعراء قد أفرطوا في تناولهم للصنعة المتكلفة واهتموا باللفظ على حساب المعنى كما فعل شعراء القرون الوسطى ، بل لا يزال الكثير منهم لدية القدرة على نظم اللفظ الجميل والمعنى الرائع في تلائم دون تكلف في الصنعة أو تعمد للبديع .

أما الموسيقى الخارجية فقد تمثلت بالوزن والقافية ، حيث وفق الشاعر في استخدام حروف الروي استخداماً فنياً يضيف حسناً وجمالاً على القصيدة من حيث اختيار الحروف المناسبة للموضوع أو الغرض الذي ينظم فيه ، والتي تتلائم مع خفة النغم وحلاوته .

الخاتمة

حاولت فيما مضى أن أقوم برحلة استعرض فيها شعر أبي الفرج البغاء الأديب الشاعر والكاتب ، أحد نجوم القرن الرابع الهجري الذي اجمع كثيراً من علماء الأدب على انه شاعر فحل من بين شعراء زمانه ، ولقد ذكره الثعالبي في اليتيمة ومدحه كثيراً ، وذكر جملة من نظمه ورسائله ، وقال عنه : " نجم الآفاق ، شمامة الشام والعراق ... واحد من أفراد الدهر في النظم والنثر " (١) .

(١) يتيمة الدهر ، الثعالبي : ٢٥٢ .

ووصفه الخطيب البغدادي أيضاً بأنه " كان شاعراً مجوّداً وكاتباً مترسلاً ، مليح الألفاظ جيد المعاني ، حسن القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف وغير ذلك " (٢).

وأوضحت مقدمة البحث الدوافع من هذه الدراسة ، وسبب اختيار شعر البيغاء موضوعاً للبحث ، وكان من أهمها التعرف على سيرة الشاعر وحياته وتحديد ملامح قساماته النفسية من خلال شعره خاصة أنه لم يظفر بدراسة مفصلة حتى وقتنا الحاضر ، وأن أغلب حياته يكتنفها الغموض ، كما أن كثرة وغزارة النتاج الإبداعي للشاعر الذي يرسم صوراً شعرية جيدة كأن من دوافع هذا البحث ، فضلاً عن تنوع المضامين الأدبية والشعرية لديه، ولاسيما موضوع الوصف ، فهو كثير ومتفرع في ديوانه تغنى الشاعر فيه بالطبيعة الساحرة والمناظر الخلابة وكل ما يتصل بمظاهر الحياة العامة. لذلك حاولت أن تكون هذه الدراسة موضوعية فنية عن شعر الشاعر الذي كان مهضوم الحق من جانب القدماء اللذين انشغلوا عن دراسته دراسة مستفيضة ، ولعل اهتمامهم بالشاعر الكبير أبي الطيب المتنبي هو الذي شغلهم عن دراسة الشعراء الآخرين .

كما تناول البحث فكرة عامة وموجزة عن العصر الذي عاش في أحضانه، لمعرفة المجتمع الذي كان يحيط به و الأحوال التي كانت سائدة فيه من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، والتي كان لها أثر واضح على حياته الأدبية ومهارته الفنية، فتكلمت عن الحياة السياسية وبيّنت مدى اضطراب تلك الحياة في هذا العصر ، حيث تحدثت عن وضع الخليفة ، وعماد دار في ذلك العصر من حروب ومنازعات كانت تحدث بين الخلفاء ، وأوضحت بعض

(٢) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي : ١١/١١ .

مظاهر الحياة الاجتماعية التي انقسم فيها الشعب إلى طبقتين مختلفتين : طبقة الخلفاء التي تنعم بالترف والغنى وتحقيق ما تصبو إليه نفوسهم من المتعة واللذة وأسباب اللهو والخلاعة ، وطبقة أخرى تقابلها وهي أغلبية الشعب التي تئن من الفقر والجوع ، تحدثت كذلك عن النضج الفكري والأدبي الذي وصلت إليه الحياة العقلية في ذلك العصر، وما أحاطها العلماء والأدباء من رعاية وتشجيع ، ولاسيما سيف الدولة الحمداني الذي كان له فضل كبير على العلم والثقافة ، فعلى الرغم من الضعف والتفكك والانحلال السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي وصل إلى درجة كبيرة في القرن الرابع الهجري إلا أننا نجد هذا العصر من أرقى العصور ثقافة في الأدب والعلم.

كما أوضحت الدراسة في الفصل الأول أهم الدوافع الشعرية لدى الشاعر وأثرها على شعره ، وهي تتمثل بالدوافع الذاتية والاجتماعية والدينية التي استعرضت فيها كل ما يتعلق بشخصيته حيث وضحت أشعاره طبيعة شخصيته التي تميل إلى اللهو والمرح والفكاهة وحب الحياة فهو إنسان يحب الأمل والتفاؤل . فمن الدوافع الذاتية لديه رغبته في إبراز مشاعره الذاتية بالإضافة إلى موهبته الفطرية وثقافته ، حيث أن عصره كان غنياً بالعلم والأدب والفن فاستطاع أن يستفيد من هذا الجو العلمي الضخم الذي عاش فيه حتى اتسعت لديه آفاق المعرفة والنظر في الحياة والطبيعة فكان لهذا الاتساع أثر ظاهر وبين في تفكيره وفي أساليب تعبيره ، فضلاً عن المساجلات أو المعارضات التي جرت بينه وبين الشاعر الصائب وهي تعد من القصائد الذاتية يقول الدكتور مصطفى الشكعة: " فقد كان بين كل من الشعارين الكاتبين أبي الفرج البغاء

وأبي إسحاق الصابئ مودة ومحبة ، يتكاتبان ويتراسلان ، هذا من حلب، وذاك من بغداد ، وكان كل منهما يتمنى لقاء صاحبه ... لا شك أن هذا اللون من المساجلات الإخوانية والمداعبات الشعرية بين الأصدقاء من الشعراء يعد شيئاً جديداً بالنسبة للتعبير الشعري في ذلك العصر ، وكان كل من الصابئ والبيبغاء موصوفين بالظرف ، ولذلك اتسعت دائرة المساجلات الفكهة بينهما بحيث أضافت إلى الشعر لوناً من البدائع والطرائف زاد في لطافته وفكاهته أن الأديبين قد جمعا بين ناحيتي النظم والنثر" (١).

والدوافع الاجتماعية في أشعار الببغاء تظهر بشكل واضح من خلال تصويره لبيئته ومجتمعه ومظاهر الحياة المختلفة وكل ما يتعلق بطرائق المعيشة وأسباب الترف والرفاهية ومنها ما يتعلق بالشراب وحياة اللهو والغناء واستخدام الجوارى والغلمان ، كما تظهر تلك الدوافع الاجتماعية من خلال تصويره لظروف الحياة القاسية التي كان يعاني الشعب فيها من حياة القهر والفقر والبؤس ، فقد صور لنا الببغاء هذا المجتمع الإنساني بمختلف طبقاته كما وضع حالته بالإضافة إلى حالة الناس في عصره ، وشاعرنا من الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم فهو فيما يبدو شاعراً طموحاً يسعى إلى توظيف موهبته الفطرية في الشعر توظيفاً حسناً للوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة ، وكان لسيف الدولة الفضل الأول في ذلك حيث كان يغدق عليه العطايا ، ويجزل في كرمه ، والبيبغاء يعترف بفضلته وحسن صنعه ، فيهب له ذاته شعراً ونثراً معبراً عن وده وولائه له الذي لا ينقطع عن طريق تسجيل أعماله وتحليل ذكره .

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، د. مصطفى الشكعة: ٤٠٦ - ٤١١.

وأوضحت الدراسة كذلك الدوافع الدينية التي تمثلت في حثه على ضرورة القتال والدفاع عن الإسلام والمسلمين وحمائهم ، وسيف الدولة احد رجالات الدولة الأبطال الذين دافعوا بقوة عن الدولة الإسلامية وحماتها من سيل الروم العارم ، فالبيغاء من الشعراء الذين ربطوا بين الحرب والدين في أشعارهم ، فظهر الدافع الديني في تصويره للواقع السياسي التي مرت به البلاد في ظل سيف الدولة ، كما ظهر في تأكيده على التمسك بالصفات والخصال الكريمة ، والإيمان بقضاء الله وقدره والاستسلام له ، فهو يتحلى بالصبر، ويلجأ إلى الله شاكياً مستجيراً برحمته ، طامعاً في عطفه ، واثقاً بعدالته ، كل ذلك يؤكد على ملامح الاتجاه الديني عنده .

أما الفصل الثاني فقد دار حول الدراسة الموضوعية لفنون الشعر عنده ، حيث وجدت في ديوانه حشداً من الأغراض الشعرية المختلفة فقسمتها وصنفتها إلى أصلية وفرعية بحيث لم أترك غرضاً إلا وأثبتته وشرحته ومثلت له بنموذج أو أكثر ، على سبيل المثال لا الحصر ، ولو كان نادراً كالذي عنونته بوصف اللص . وصف منافرة بين سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة . وكان أول هذه الفنون الوصف الذي جاء أغلبه في وصف الطبيعة ومناظرها الخلابه ، فوصف كل ما تقع عليه عينه وصفافاً مادياً ، كما أن الوصف كان متداخلاً مع جميع أغراض شعره ، حتى يكاد يكون أهم الأغراض جميعاً ، فقد وصف الطبيعة الصامته وآيات الجمال فيها ثم انتقل إلى وصف الطبيعة المتحركة وهي عالم الحيوانات والطيور ، كما وصف البيئة وكل ما يحيط بها حيث اتجه إلى وصف أدوات الحرب والصيد وأدوات أخرى نتيجة لحياة الترف التي كانت تحيط به .

والمبحث الثاني : يتناول الشعر السياسي والاجتماعي حيث تناول أبو الفرج في خضم هذه الأحداث كثير من القضايا السياسية ، كان أبرزها شعر الحرب الذي وصف فيه الجيش في أثناء حربه مع الروم ، وبطولة سيف الدولة وشجاعته في هذه الحروب ، فالشعر السياسي الذي أبدع فيه الببغاء كان يتناول سيف الدولة في خضم معاركه ، كما مدح الكثير من رجالات الدولة الحمدانية ، بالإضافة إلى المراثي التي قيلت بالحكام وخاصة ما يتعلق برثاء سيف الدولة أحد أبطال الحروب أما الشعر الاجتماعي ، فهو بعيد عن السياسة ومجالس الملوك والأمراء ومنه .

١- المدح : الذي لم يخرج عن موضوعات المدح التقليدية التي تدور حول الصفات الحميدة من العفة والشجاعة والصبر والكرم والنخوة وغيرها .

٢- الرثاء : حيث توجه الشاعر إلى رثاء شخصيات عامة ، كان لها فضل عليه ، وقد دلت مراثيه على مدى تعلقه بمن يرثيه ، لدرجة انه لم يعد يتقبل الحياة بدونهم .

٣- الأخوانيات : وقد ارتقى هذا اللون الشعري نتيجة لعلاقات الود والمحبة بين الأصدقاء والأحباب عامة والشعراء خاصة وكانت المساجلات الإخوانية بينه وبين الشاعر الصائب تحتل جانبا عظيماً من شعره الإخواني .

٤. الحكمة : كان يورد بعض الحكم في قصائده وكأنها جزء لا يتجزأ من بناء القصيدة حيث كانت مبعثرة بين أغراض شعره الأخرى، فلم يفرد لها قصائد كاملة .

٥. الشكوى : زادت الشكوى بسبب الحياة الاجتماعية القاسية التي يعن فيها الناس من حياة الحرمان و الفقر والقهر وضنك العيش فشكوا الزمان الذي أصابهم بذلك واستمروا في تصوير معاناتهم في الحصول على العيش ، وشعر الشكوى عند البيغاء قليل .

٦. العتاب : وهو قليل كذلك في شعره ، ومنه عتاب الأخوة ، وعتابه لبني نصر عندما هجره، ولم يقتصر عتابه على الأخوة والأحبة بل توجه أيضاً إلى عتاب حي من أحياء العرب عندما لم يقدموا له واجب الضيافة .

٧. الهجاء : لم يكن هجاء البيغاء فاحشاً أو جارحاً بل جاء في قالب من الفكاهة والمداعبة بعيد كل البعد عن الألفاظ التي تخدش الحياة ، وقد كان الهجاء نادراً في ديوانه .

أما المبحث الثالث : فيتناول الغزل وهو عبارة عن غزل عفيف طاهر ، يتسم برقة اللفظ وسهولة المعنى وتدفق العاطفة .

وأما الفصل الثالث : فقد دار حول الدراسة الفنية لشعره ، وأتضح لي أن الشاعر كان يختار الألفاظ والعبارات التي تناسب كل غرض من موضوعاته فالغزل له من الألفاظ والعبارات ما يتلاءم مع هذا الموضوع ، ومن المدح ما يليق بالمدوح وهكذا ، فاللفظة عنده سهلة بسيطة واضحة المعنى ، حيث لم يستخدم الألفاظ العامية أو الأعجمية في شعره إلا نادراً، كما أن معظم ألفاظه كانت تميل إلى المنطق والحكمة والتعقل ، وهذا يدل على تأثره الواضح بالفلسفة والمنطق الذي كان يغلب في ذلك الوقت ، كما لجأ إلى بعض الأساليب اللغوية ليستعين بها في نقل مضمون كلامه .

وفي المبحث الثاني من الناحية الفنية وجدت أن الصورة الشعرية عنده تمتاز برقة التصوير، وبساطة العبارة في التعبير عن أحاسيسه المتفاعلة مع بيئته ، وفي تصوير ما يدور في نفسه من الخلجات والأفكار ، كما وجدت أن معظم صوره رائعة وهي مستمدة من وحي الطبيعة في أغلبها ، وهي أيضاً تعكس لنا ذاته وقسماته النفسية وقد لمست ذلك في الكثير من أغراضه الشعرية كالغزل والشكوى والعتاب وغيرها .

وفي المبحث الثالث : تناولت الموسيقى الشعرية ، والتي انقسمت إلى قسمين موسيقى داخلية تتمثل بالمحسنات البديعية التي لجأ إليها الشاعر بكثرة من غير تكلف أو مبالغة في الصنعة ، والقسم الثاني هو الموسيقى الخارجية التي تمثلت بالوزن والقافية وقد وفق الشاعر في استخدام القافية المناسبة للموضوع الذي ينظم فيه ، وفي النهاية نستطيع القول أن (البيغاء) تمكن من إحداث أثر موسيقي جميل في قصائده .

وفي النهاية نستطيع أن نجمل بعض أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي :

١- يدخل البيغاء إلى المدح مباشرة في كثير من قصائده ، وقليلة تلك القصائد التي يستهلها بذكر الأطلال والغزل .

٢- المدح عنده ينقسم إلى شقين : شق يتناول فيه مدح سيف الدولة الذي يحتل الجزء الأعظم من شعر الشاعر والكثير من رجالات الدولة، والآخر يتمثل في مدحه الفضائل الذاتية .

٣- تكرار المعاني مع كل ممد وحيه ، حيث لم يخرج عن الموضوعات التقليدية من مدح الشجاعة والكرم والحلم والتواضع والنخوة والرياسة والصدق والجود والعدل .

٤- هناك أبيات تجاوزت المبالغة المحمودة إلى الغلو المذموم أو المبالغة الممقوتة في مدح سيف الدولة ، لأنها من الصفات التي لا تكون إلا لله وحده دون سواه ، بحيث يستحيل أن يتصف بها الممدوح .

٥. يعكس لنا شعره ثقافته الواسعة حيث كان ذا معجم لغوي ضخم ، كما يعكس لنا مدى ثقة الشاعر بشعره من حيث جودته وحسن سبكه وصياغته عندما وصف أبياته بالذُرر المتناثرة .

٦- يهدف البغاء من وراء مدحه التقرب إلى الحكام حتى يجزّلوا له العطاء ، وحتى ينعم بالحياة الهائلة السعيدة ، ويطمئن على توفير مطالب حياته وملذاته ، فهو يرغب في الوصل مع ممدوحه دون نفاق أو تداني في طلب العطاء ، لأنه يفضل الفراق رغم مرارته ، على القرب المخلوط بالذل والنفاق والتذلل .

٧- لم يقتصر وصفه على تمجيد بطولة سيف الدولة الذي يقود تلك الجيوش ، وإنما أفرد قصائد لوصف دقائق المعركة من بداية التحام الجيوش إلى انتهائها وتحقيق النصر على الأعداء في الغالب .

٨- يأتي الوصف في مقدمة موضوعاته غالباً ، فمعظم قصائده من مدح وغزل وهجاء لقومه وشكوى ، كل ذلك أو بعضه كان يتخلله الوصف .

وبعد ، فهذا بحثي المتواضع أقدمه بعد جهد وعناء كثير ، راجية من الله تعالى أن ينفع به ، وأن أكون حققت الهدف المرجو منه في الكشف عن بعض الجوانب والحقائق التي لم تلق عليها

الأضواء ، وبيان مكانة الشاعر الأدبية ومنزلته بين شعراء عصره ، وأسأل الله أن يعفو عن زلاتي
لأن الكمال في كتاب الله وحده ، فيه سبحانه سداد الخطى وارشاد الطريق ، وبه وحده العون
والتوفيق

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياها ، د.سعد أبو الرضا ،مكتبة المعارف، الرياض .
- ٢- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، د. عبد القادر القط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ٣- الآثار الباقية عن القرون الخالية ، محمد بن أحمد البيروني ، ١٩٢٣م .
- ٤- الأدب في ظل بني بويه ، محمود غناوي الزهيري ، مطبعة الأمانة ، مصر، ١٩٤٩م .
- ٥- الأدب في ظل سيف الدولة الحمداني ، د. درويش الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ ، ١٩٥٩م .
- ٦- الأدب وفنونه ، د. عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م .
- ٧- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، شهاب الدين القسطلاني ، دار الفكر .
- ٨- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمد الفاضلي ، صيدا ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

٩- أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية للطبع والنشر، ط ٨ ، ١٩٧٣م.

١٠- إعجاز القرآن ، أبو بكر الباقلاني ، تحقيق عماد الدين حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ .

١١- الأعلام ، خير الدين زركلي ، (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب) ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٣٥م .

١٢- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، محمد راغب الطباخ ، المطبعة العلمية في مدينة حلب، ط ١ ، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م .

١٣- الإمبراطورية البيزنطية ، أومان ، مطبعة الاعتماد .

١٤- الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان .

١٥- الأنساب ، للإمام أبي سعد بن عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى ، نشر محمد أمين دمج ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠م .

١٦- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرح د. عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل، بيروت ، ط ٣ .

١٧- البديع ، لأبي العباس عبد الله بن المعتز ، تحقيق ، د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

١٨- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة المعارف

للتوزيع ، الرياض ، مكتبة الآداب ، القاهرة .

١٩- البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين بيروت ، ط ٣ .

٢٠- البلاغة فنونها وأفنانها حسن عباس ، دار الفرقان ، عمان ، ط ٢ ، ١٤٠٩ هـ .

٢١- البلاغة والتحليل الأدبي ، أحمد أبو حاقه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ،

١٩٨٨ م .

٢٢- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة،

ط ٤،

٢٣- تاج العروس من جواهر القاموس ، مرتضى الزبيدي ، تحقيق علي شري ، دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

٢٤- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحلیم النجار ، دار

المعارف ، ط ٢ .

٢٥- تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) الخضري ، الطبعة الجمالية بمصر، ط ١،

١٣٣٤ هـ . ١٩١٦ م .

٢٦- تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار

العلم للملايين ، ط ٧ ، ١٩٧٧ م

٢٧- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ، دار الشروق للنشر والتوزيع ،

عمان ، ط ٢٠٠١ ، ١ .

٢٨- تاريخ بغداد ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ،

بيروت ، لبنان ، ١٩٣١ م .

٢٩- تنمة المختصر في أخبار البشر ، ابن الوردي ، القاهرة ، ١٢٨٥ هـ .

٣٠- تجارب الأمم ، مسكوية ، تصحيح هـ . ف امدروز ، طبع شركة التمدن الصناعية

وطبعة ليدن .

٣١- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، د. شكري فيصل ، دار العلم للملايين ، بيروت ،

ط ٤ .

٣٢- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، دار الأندلس ، بيروت ط ٧ ، ١٤٠٥ هـ .

٣٣- التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين إسماعيل ، الناشر مكتبة غريب للطباعة والنشر

والتوزيع ، القاهرة ، ط ٤ .

٣٤- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، دار إحياء التراث العربي ،

بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٤٨ م

٣٥- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم مترز ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي

أبو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠ م .

٣٦- الحياة الأدبية في بلاط البويهيين ، د. فاطمة الزهراء المواثي ، ط ١ ، ١٩٩١ م .

- ٣٧- حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين الدميري ، دار القاموس الحديث بيروت .
- ٣٨- الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، بيروت ، ط٣ ، ١٣٨٨م ، وطبعة القاهرة ١٩٤٥م .
- ٣٩- خطط الشام ، محمد كرد علي ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- ٤٠- دائرة المعارف الإسلامية ، نقلها إلى العربية ، محمد ثابت أفندي - أحمد الشتاوي .
- ٤١- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، قرأ وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ، الناشر مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ط٣ ، ١٤١٣-١٩٩٢م .
- ٤٢- دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس ، دار المعارف ، ط٦ ، ١٩٨٦م .
- ٤٣- دول الإسلام ، الذهبي ، حيدر آباد ، ط١ ، ١٣٣٧هـ .
- ٤٤- الدولة البيزنطية ، الباز العربي ، النهضة ، ١٩٥٠ .
- ٤٥- ديوان أبي تمام ، شرحه الخطيب التبريزي ، وحققه محمد عبده عزام ، طبع ونشر دار المعارف بمصر ، ط٤ ، ١٩٧٦م .
- ٤٦- ديوان أبي فراس الحمداني ، عني بنشره وجمعه وتعليق حواشيه سامي الدهان ، بيروت ، ١٩٤٤م .
- ٤٧- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، دار صادر بيروت .
- ٤٨- ديوان السري الرفاء ، طبعة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ .

٤٩- ديوان طرفه بن العبد ، شرح الأعلام الشنتمري ، تحقيق دريه الخطيب ولطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

٥٠- ديوان عبد الواحد بن نصر المخزومي (الببغاء) د. سعود محمود عبد الجابر ، دار الحامد للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م .

٥١- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر بيروت .

٥٢- زبدة الحلب ، الصاحب كمال الدين المعروف بابن العريم ، تحقيق سامي الدهان .

٥٣- سر الفصاحة ، عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، القاهرة ١٣٥٠-١٩٣٢ م .

٥٤- سيف الدولة الحمداني ، مصطفى الشكعة ، الناشر عالم الكتب بيروت ، مكتبة المتنبي بالقاهرة .

٥٥- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، بدر الدين العيني ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة .

٥٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

٥٧- شرح ديوان المتنبي ، الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، راجعه وفهرسه د. يوسف الشيخ محمد البقاعي دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

٥٨- شرح ديوان المتنبي ، الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، الاستقامة .

- ٥٩- شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٧ م .
- ٦٠- شرح المفصل ، ابن يعيش النحوي ، عالم الكتب بيروت ، مكتبة المتنبي بالقاهرة .
- ٦١- شعر أبي فراس الحمداني ، دراسة فنية ، ماجدولين بسيسو ، ط١ ، ١٤٠٩ هـ -
١٩٨٨ م .
- ٦٢- شعر الحرب ، زكي مبارك ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١ م .
- ٦٣- شعراء من العصر العباسي الثاني بين الظل والتأثر ، د. عبد الله أحمد باقازي ، ١٤٠٨ هـ .
- ٦٤- الشعر العربي الحديث المعاصر ، عز الدين إسماعيل .
- ٦٥- الشعر في ظل سيف الدولة ، د. درويش الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١ ،
١٩٥٩ م
- ٦٦- الشعر والشعراء ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، طبعة محققة ومفهرسه ، نشر
وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
- ٦٧- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي ، نسخة
مصورة عن الطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية ، ١٩١٦ م .
- ٦٨- الصبح المبني على حيثية المتنبي ، للبديعي ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، القاهرة ،
١٩٦٣ م .
- ٦٩- صحيح البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢ هـ .

- ٧٠- صحيح مسلم بشرح النووي ، يحيى بن شرف النووي ، مؤسسة قرطبة ، ١٤٢٢ هـ .
- ٧١- الصداقة والصدق ، أبو حيان التوحيدي ، مصر ، ط ١ ، ١٣٢٣ هـ .
- ٧٢- الصراع مع الروم ، د. نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ١ ، ١٣٩٧ هـ
١٩٧٧ م .
- ٧٣- الصناعتين - الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري ، حققه د. مفيد قمحة ، دار
الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
- ٧٤- الصورة الشعرية ، ساسين عساف ، المؤسسة الجامعية بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ .
- ٧٥- الصورة الفنية في الشعر الإسلامي عند المرأة العربية في العصر الحديث ، د. صالح عبد
الله الخضير ، مكتبة التوبة ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٧٦- الصورة الفنية في الشعر العربي مثال ونقد ، إبراهيم عبد الرحمن الغنيم ، الشركة العربية
للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م .
- ٧٧- الصورة الفنية في النقد الشعري ، عبد القادر الرباعي ، دار العلم ، الرياض ، ط ١ ،
١٤٠٥ هـ .
- ٧٨- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها د.
علي البطل ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٧٩- الصيد عند العرب - أدواته وطرقه - حيوانه الصائد والمصيد ، د. عبد الرحمن رأفت
الباشا ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

٨٠- الصيد والطرء عند العرب ، حققه وشرحه وقدم له وزينة بالصور ، د. ممدوح حقي ، دار

النشر للجامعين ، ١٩٦١م

٨١- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ،

١٩٧٤م.

٨٢- ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٥.

٨٣- ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥م.

٨٤- عصر سلاطين المماليك ، د. محمود رزق ، ط١ ، ١٩٦٥م .

٨٥- العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٣ .

٨٦- علم البديع ، بسيوني عبد الفتاح ، مطبعة السعادة ، ١٤٠٨هـ .

٨٧- علم البيان ، عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ-

١٩٨٥م .

٨٨- علم اللغة العام (الأصوات) ، كمال محمد بشر ، دار المعارف ، مصر ، ط٧ ،

١٩٨٠م.

٨٩- علم المعاني ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .

٩٠- العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لأبي الحسن بن رشيق القيرواني ، حققه د. النبوي عبد

الواحد شعلان ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

- ٩١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لأبي الحسن بن رشيق القيرواني ، حققه ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت - لبنان ، ط ٤ ، ١٩٧٢م.
- ٩٢- الفرج بعد الشدة ، التنوخي ، تحقيق عبود الشالحي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨م.
- ٩٣- فصول في الشعر ونقده ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م .
- ٩٤- فصول في النقد الأدبي وتاريخه ، دراسة وتعليق ضياء الصديقي وعباس محجوب ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .
- ٩٥- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط ١ .
- ٩٦- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، د. مصطفى الشكعة ، عالم الكتب بيروت .
- ٩٧- فوات الوفيات، محمد شاعر الكنتي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، (د، ط).
- ٩٨- في النقد الأدبي ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٢م .
- ٩٩- القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، المؤسسة العامة للطباعة والنشر، بيروت
- ١٠٠- قضايا النقد الأدبي ، زكي العشماوي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت.
- ١٠١- قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم ، وليد قصاب ، دار العلوم الرياض ، ١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م.
- ١٠٢- الكامل في التاريخ ، لأبن الأثير ، اعتنى به صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية .
- ١٠٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، مكتبة المثنى ، بغداد .

- ١٠٤- الباب في تهذيب الأنساب ، عز الدين الجزري ، مكتبة المثنى ، (د.ت)
- ١٠٥- لسان العرب لأبن منظور ، معجم لغوي علمي قدم له العلامة الشيخ عبد الله العلايلي ، إعداد وتصنيف خياط نديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت .
- ١٠٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير الموصلي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م .
- ١٠٧- مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي ، علق عليه د. محمد فؤاد سزكين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ١٠٨- المختصر في أخبار البشر ، أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين) ، القسطنطينية ، ١٢٨٦ هـ .
- ١٠٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، علي بن الحسن المسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مصر ، مطبعة السعادة ، ط ٤ ، ١٩٦٣ م .
- ١١٠- معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، طبعة دار المأمون في القاهرة ، ١٩٣٦ هـ . ١٩٣٨ م .
- ١١١- المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٨٤ م
- ١١٢- معجم البلدان ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ م .
- ١١٣- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، تراجم مصنفي الكتب العربية ، مكتبة المثنى ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .

- ١١٤- معجم ما استعجم ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن أبي مصعب البكري .
- ١١٥- مفتاح العلوم ، السكاكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ١١٦- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي ، تحقيق أبي عبد الرحمن عادل بن سعد، الدار الذهبية للنشر والتوزيع .
- ١١٧- من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المقدسي ، ليدن ، مطبعة أبريل ، ١٩٠٩ م .
- ١١٨- من تاريخ الأدب العربي ، طه حسين ، العصر العباسي الثاني ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط ١ ، ١٩٧٤ م .
- ١١٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ابن الجوزي ، حيدر آباد ، ط ١ ، ١٣٥٨ م .
- ١٢٠- موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو، القاهرة .
- ١٢١- النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، زكي مبارك ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط ١ ، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م
- ١٢٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة .
- ١٢٣- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، المحسن التنوخي ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
- ١٢٤- النغم الشعري عند العرب ، محمد عبد المنعم الحفاجي ، دار المريخ ، الرياض، ط ١٤ ، ١٩٧٠ م .

- ١٢٥- النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر ، القاهرة .
- ١٢٦- النقد الأدبي عند اليونان ، بدوي طبانة ، مكتبة الأنجلو، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٩ م .
- ١٢٧- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط ١ ، ١٣٩٨ هـ .
- ١٢٨- النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، أبريل ، ١٩٩٦ م .
- ١٢٩- نقد النثر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ . ١٩٨٢ م .
- ١٣٠- نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نسخة مصورة عن مطبعة الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
- ١٣١- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، لإسماعيل البغدادي ، منشورات مكتبة المثني ، بغداد ، استانبول ، ١٩٥١ م .
- ١٣٢- الورد الصافي من علمي العروض والقوافي ، محمد حسن إبراهيم عمري ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة .
- ١٣٣- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق الأستاذين أبو الفضل إبراهيم والبجاوي ، ط ٢ .

١٣٤- وفيات الأعيان ، لأبن خلكان ، طبعة جديدة ومنقحة ، دار إحياء التراث العربي ،

بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

١٣٥- يتيمة الدهر ، للشعالبي، تحقيق مفيد قمحه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان،

ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

تناول هذا البحث شعر أبي الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي المولود بنصيبين سنة

٣١٤ هـ تقريباً ، والمتوفى رحمه الله . ببغداد سنة ٣٩٨ هـ .

والهيكل العام للدراسة يتكون من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمه .

فالتمهيد يتناول وصفاً لمظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في

ذلك العصر ، والتي كان لها آثار عميقة على حياة الناس عامة والشعراء خاصة ، ثم وصفاً

لبلاط سيف الدولة الحمداني الذي عاش في أحضانه شاعرنا .

والفصل الأول يتناول الدوافع الشعرية ، وأثرها في شعر أبي الفرج وهي تتمثل بالدوافع

الذاتية والاجتماعية والدينية التي استعرضت فيها كل ما يتعلق بشخصيته وبيئته ومجتمعه ، وأثر

النزعة الدينية على ألفاظه ، ومعانيه ، وموضوعاته الشعرية .

والفصل الثاني يتناول المضامين الشعرية عنده ، حيث وجدت في ديوانه حشداً من

الأغراض الشعرية المختلفة فقسمتها وصنفتها إلى أصلية وفرعية وكان أولها الوصف الذي جاء

أغلبه في وصف الطبيعة وكل ما يحيط بها . ثم يليها الشعر السياسي والاجتماعي ، ومن

موضوعات الشعر السياسي الذي أبدع فيه شاعرنا وصف الحرب والجيش ومدح رجالات

الدولة وعلى رأسهم سيف الدولة الحمداني ، أما الشعر الاجتماعي فهو بعيد عن السياسة

ومجالس الملوك والأمراء ومنه المدح . الرثاء . الأخوانيات . الحكمة . الشكوى . العتاب . الهجاء
وأخيراً تناولت الغزل الذي يتسم برقة اللفظ وسهولة المعنى .

أما الفصل الثالث فيتناول الدراسة الفنية في شعر أبي الفرج ، ويتضمن مايلي :

- لغة الشاعر وأسلوبه : حيث كان يختار اللفظة السهلة البسيطة التي تتناسب مع موضوعاته
الشعرية ، كما أنه أستخدم الكثير من الأساليب اللغوية ليستعين بها في نقل مضمون كلامه .
- التصوير الفني : فالصورة عنده تمتاز برقة التصوير وبساطة العبارة في التعبير عن أحاسيسه
ومشاعره المتفاعلة مع البيئة المحيطة به ، حيث أن معظم صورته كانت مستمدة من وحى الطبيعة
.

- الموسيقى الشعرية : لجأ الشاعر إلى المحسنات البديعية بكثرة من غير تكلف أو مبالغة في
الصنعة ، كما وفق الشاعر في استخدام القافية المناسبة للموضوع الذي نظم فيه حيث أن
الإيقاع والموسيقى في شعر الشاعر لها أثر كبير في نفس المتلقي .

وفي ختام البحث تناولت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة في كل فصل من فصولها
في دراسة شعر البيغاء دراسة موضوعية وفنية . ثم ثبت المصادر والمراجع .

وأخيراً هذا موجز يشمل على أهم عناصر الموضوع التي تُقدم صورة واضحة للدراسة

الموضوعية والفنية في شعر أبي الفرج الذي كان من شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني في القرن
الرابع الهجري دون منازع .

*

*

*

Research Summary

Addressing this research was Abi Al Faraj Bin Abdul Wahid Bib Nasr Almkzumi born Bnosaibin year 314 H, and the deceased-God's mercy-year 398 H. in Baghdad.

And the general structure of the study consists of three chapters and pave and conclusion.

Valtmhid deals with the description of the manifestations of political life and social and cultural rights, which were prevalent in that time, and that had a profound impact on the lives of the general public and especially poets, and then describes the tiles State Saif Al Dawlah Al-Hamadani where the poet lived.

And the first chapter deals with the motives poetry, and its impact felt in the vagina and is the father of self-motivation and social and religious reviewed everything related identities and the environment, together, and the impact of religious attributing trend, and its meaning, and his themes poetry.

And the second chapter deals with the true poetic content, as found in his multitude of different uses poetic dividing and classified and the original sub and the first description, which came mostly in the description of nature and all that surrounds them. Then followed the social and political poetry / poetry and themes of the political masterpiece which poet described the war and praise the men of the army and State and the State headed Saif Al Dawlah Al-Hamadani, the poetry is far from the social and policy boards kings and princes and praise him - Lament – Al ehlwaniat – complaint - wise - Admonition spelling. And finally dealt spinning, which is airily expression and easy question .

The third chapter deals with the study of art in the Abu Faraj poetry, and include the following:

- The language of the poet and his style: where he was chosen the easy simple word that fit with the poetic themes, and that he used many methods to language used by the transfer of the content of what he said.

- Artistic photography: the picture has the advantage of simplicity and imaging airily words to express his feelings and identify interacting with the environment surrounding it, since most of the image was derived, inspired by nature.

- Music poetry: the poet resorted to a lot charitable eloquence

n-cost or exaggeration in the industry, as according to the poet in the use of Rhyme appropriate to the subject, who organized it as rhythm music in the poet's have a big impact in the same audience. And at the conclusion of research on the most important findings of the study in each chapter of the chapters in the study of Al-Babgah poetry substantive and technical study. Then cited sources and references.

Finally, this summary includes the most important elements of the subject that provide a clear picture of the substantive and technical study of poetry of Abu Faraj, who was from poets tiles Saif Al-Dawlah Al-Hamadani State